

ان الله لا يغير ما بقوم
حتى يغيروا ما بأنفسهم
« قرآن شريف »

رَحَلْنَا لَكَ الشَّيْءَ

بقلم

محمد البديع البتوني

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

٥٢٦ شارع بورسعيد / الظاهر

ت: ٥٩٢٢٦٢٠ - فاكس: ٥٩٣٦٢٧٧

حقوق الطبع والنشر محفوظة للناسر
مكتبة الثقافة الاءينة

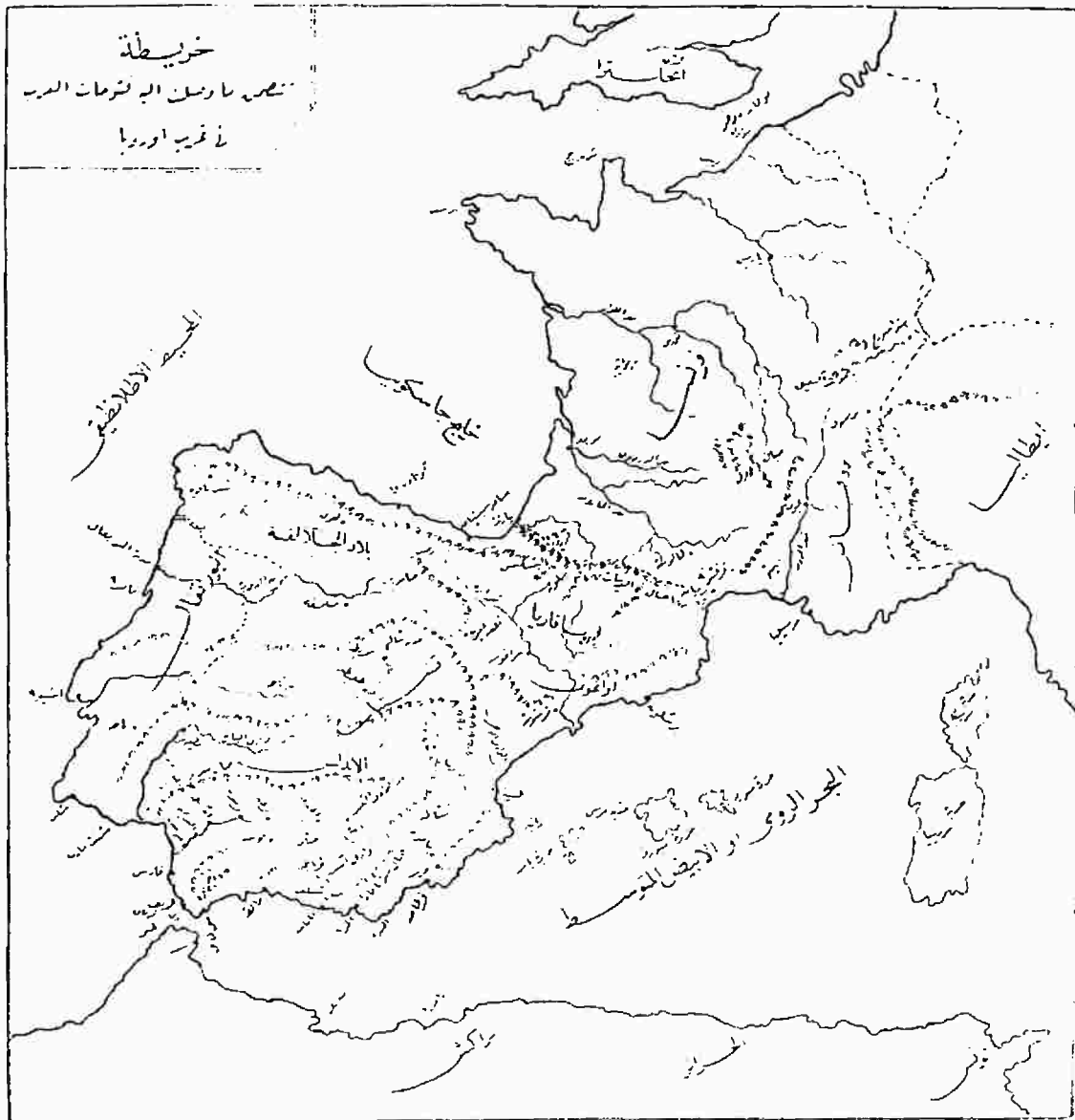
رقم الإياع	٩٨ / ١٣٩١٠
الترقيم الاءولى I.S.B.N	977-5250-36-6

ءار المءرى للطباعة
عمارة ١٨ مساكن كفر الءبل - الهمرم

خريطة

تظهر ماركات اليقظة العرب

في غرب أوروبا



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على آلائه والصلاة والسلام على رسله وانبيائه
وبعد فقد طلب منى بعض اخوانى أن أجمع رسائلنى التى أرسلت
بها من أوروبا فى شهر أغسطس الماضى إلى جريدة « الاهرام » الغراء
فنشرتها بعنوان « جولة فى اسبانيا ». فليت طلبهم شاكرًا لهم هذه
الرعاية وقد زدت على هذه الرسائل ما تكمل به فائدتها. وأضفت إلى كل
رسالة كلمة تفسح فى تاريخها مع العظة التى نستخلص منها. مبتعدًا عن كل
ما يؤثر فى العاطفة الدينية أو القومية بالتطرف إلى حد المبالغة فى مدح
أو نقد. ولزيادة الفائدة أضفت إليها رسومًا لبعض صور تلك الآثار
الجميلة التى تركها العرب فى الأندلس. وكذلك مصور جغرافى لاسبانيا
والبورتنغال وفرنسا تتضمن مواقع البلاد التى وصل إليها الفتح العربى .
ثم ذيلت رسائلنى بقاموس موجز لما ورد بها من أسماء البلاد لعهد العرب
وما يقابلها الآن من الأسماء الفرنسية . والله المسئول أن ينفع بهما
محمد لبيب البتوفى

تمهيد

كانت حالة اسبانيا قبل فتح العرب لها أشبه بالبداءة منها بالحضارة ولم يعلم التاريخ لأهلها مدينة قديمة يذكرون بها بل كانوا طوال عمرهم طعمة للفاتحين من فيزيقيين ورومان ويونان وقرطاجيين وقوط . وما كانوا يعرفون شيئاً من أسباب الحياة الا ما كانوا يستخرجونه من معادن بلادهم فيستبدلون به مادة غذائهم وكسائهم من تجار الأمم المحتلة لبلادهم ، حتى دخل فيهم عنصر الدول المتغلبة فأخذوا يحملون سلاحهم ويدافعون عن حوزتهم وأصبحوا أمة اشتهرت بانها حرية وهي وان كانت تدبش بين أركان القرى كانت أهلها غارقين في خشونة الهمجية الى أواخر القرن الرابع للميلاد . ولم تقم لاسبانيا قائمة الا في المدة التي حكمها القوط في أوائل القرن الخامس للمسيح . ولما دخلتها النصرانية وكثر ورود القسس اليها دعا الملك ريكارد في أواخر القرن الخامس بطارقة النصرانية الى مؤتمر في طليطلة وعلى أثره اعتنق المذهب الكاثوليكي . ومن ثم احتفل بكنيسة طليطلة هو وقومه حتى أصبحت غنية زاهية بكثير من الأواني الذهبية التي كانت منها تلك المائدة الثمينة البديعة التي أخذها العرب بعد استيلائهم على هذه المدينة وقدمها موسى بن نصير إلى الوليد الأموي مع الغنائم التي وفد بها على دمشق بعد الفتح .

وهنا يقف القلم مبهوراً حائراً خجلاً من أن يرى لبعض مؤرخي العرب في بعض الآثار التي تتصل بالتاريخ القديم لاسبانيا أقوالاً لا تنطبق على عقل ولا فكر بل هي أساطير^(١) اعتادها بعضهم عند ما يريد أن

(١) نذكر لك باختصار شيئاً مما جاء في نفع الطيب من غير تعليق عليه :

يتكلم على شيء تغفل تاريخه في بطن الماضي البعيد . ولا بد أن يكونوا قد أخذوا هذه الأساطير عن سكان البلاد بعد فتحهم لها . وتاريخ الاسبان أنفسهم مشحون بكثير من أمثال هذه الخرافات . ولكون العرب أمناء على النقل لم يشاءوا أن يحكموا عقولهم فيها ولا في غيرها

أولاً — ذكر أن المائدة التي وجدها طارق في طليطة وقدمها ابن نسير الى الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي كانت لسيدنا سليمان عليه السلام . وانها وصات الى طليطة مع الملك بربان وكان قد اشترك مع مختصر في حربه لبيت المقدس . ووقعت هذه المائدة في نصيبه من الغنائم بعد أخذها مدينة القدس ؟
ثانياً — ما ذكره من أن سيدنا سليمان وسيدنا عيسى صلوات الله عليهما أتيا الى طليطة في حياتهما ؟

ثالثاً — ما ذكره صاحبه الله من « أن مضيق الزقاق » كان موضعه برزخا يصل ما بين أسبانيا وبلاد المغرب . فلما حضر الاسكندر ذو القرنين الى هذه الجهة ؟ اشكى له أهل أسبانيا من تعدى أهل المغرب عليهم فأمر فأزيل هذا اللسان وبذلك اتصلت مياه المحيط بمياه البحر الأبيض فوصلت ما بين البلدين . وهذا القول صحيح من جهة وجود اللسان وزواله . ولكن الذي أزاله هو يد الطبيعة عقب اضطراب بركاني عظيم اندكت له أرضه كما اندكت له الأرض التي بين الأناضول والأستانة . ومكانها الآن مضيق البوسفور الذي وصل البحر الاسود بالدرنيل . وكذلك الحال في بوغاز باب المندب الذي فصل بين آسيا وأفريقيا . ومضيق بيرنج الذي فصل بين شمالي آسيا وأمريكا . وذلك كله قبل وجود التاريخ وقد يكون قبل وجود الانسان . وبهذه المناسبة نقول أن الطيار السويسري هرنتر الذي وصل على طيارته الى القاهرة يوم الجمعة ١٤ ديسمبر سنة ١٩٢٦ قال في حديثه لمكاتب الأهرام الفراء أنه يريد السفر الى أواسط أفريقية للتحقق من نظرية وجيز الذي يقول بأن القارات كلها كانت متملا بعضها ببعض وأنه سيأتي زمن يتفصل فيه جنوب أفريقيا الى نصفين في المنطقة التي تبتدىء من جبل كينيا الذي يبلغ ارتفاعه ٥٨٠٠ متر رابعاً — ما ذكره من أن الصنم الذي كان مقدس كانت له خاصية عجيبة لما كان يحيط به من الطلسمات التي بنى عليها وأنه كان يمنع مرور الرياح من البحر المحيط الى البحر الأبيض وأن مفتاح هذه الطلسمات كان موضوعا في صندوق من الفضة في بيت خاص به في طليطة لا يفتحه أحد . فلما كان زمن لتدقيق سافره حب الاطلاع على ما في هذا البيت ففتحه . وفتح الصندوق الذي به فوجد فيه تماثيل على صورة العرب مكتوبا عليها « سيملك هذه البلاد قوم على هذه الصورة » — ثم قال — وفتح الصندوق بطل عمل الطلسمات ودخل العرب اسبانيا !!!

والقول بالبحر والطلسمات قديم في الأمم . وقد عقد ابن خلدون في مقدمته بابا خاصا به قال فيه « وكان للسحر في بابل ومصر زمان بعثه موسى عليه السلام أسواق نافقة . ولهذا كانت معجزة موسى من جنس ما يدعون ويتنافون فيه وبقي من آثار ذلك في البرابى بصعيد مصر شواهد دالة

من هذا القبيل . لذلك ترى تاريخهم أنفسهم قبل الاسلام سقيما عليلا فيه كثير من الأساطير التي تفضل حقيقة التاريخ بين سطورها . وربما ترى هذه الأمانة نفسها في أيامنا هذه حتى في الأزهر الشريف فانك ترى أهله قد يحترمون غلطات المؤلفين وعلى اعتقادهم أنها أغلاط لا يزالون يتركونها لهم في كتبهم ولا يريدون أن يصلحوها احتفاظا بأمانتهم في النقل . وعلى كل حال إنى لم أطلع للعرب على تاريخ للاندلس بحيث يقوم بحاجة من يريد الاطلاع على تاريخها فحسب ، ذلك لأن مؤرخيهم ينتقلون من رواية الى أخرى ومن شيء من التاريخ الى شيء من الأدب ومن شعر لناظم الى نثر لكاتب ومن شيء في الاندلس الى شيء في العراق أو في مصر يجر اليه سياق الحديث مما يتعب له الذي يريد أن يطلع منه على شيء في خصوصه . وحسبك أن تلقى نظرة على كتاب نفح الطيب وهو أكبر كتاب في تاريخ الاندلس لتعلم حقيقة ذلك ، وخير ما رأيته من روايات التواريخ العامة خاصة بالاندلس هو ما كان لابن خلدون . وفي

على ذلك ؟ الى أن قال - وأما التفرقة عندهم بين السحر والظلمات فهو ان السحر لا يحتاج الساحر فيه الى معين . وصاحب الظلمات يستعين بروحانيات الكواكب ؟ وأسرار الأعداد وخواص الموجودات ؟ وأوتناغ الفلك المؤثرة في عالم العناصر كما يقول المنجمون . ويقولون : السحر اتحاد روح بروح . والظلم اتحاد زوج بجسم ؟ الى أن قال - وأما الشريعة فلم تفرق بين السحر والظلمات وجعلته كله بابا واحداً محظورا « وذكر ابن خلدون في هذا الباب ان مسامة بن أحمد الجريطي أمام أهل الاندلس في التعاليم والحريات خلص كتبها وهذبا في كتابه الذي سماه (غاية الحكيم) . ولم يكتب أحد في هذا العلم بعده » .

ومن هذا ترى أن السحر والظلمات كان لها مجال كبير في الاندلس ولا بد انها انتقلت منها الى بلاد المغرب ولا يزال من أهلها من يشتغل بها الى الآن . وشهرتهم بذلك في مصر شائعة ذائعة . وبمناسبة استشهاده ابن خلدون ببرابى مصر في أمر الظلمات يذكر القراء ما كتبه جرائد أوروبا وخصوصا الانكليزية منها منذ سنتين حين وفاة اللورد كارنارفون بعد كشف قبر توت عتخ آمون على أثر قرصة ببوضة أو ذبابة في المقبرة نفسها وكانوا يتساءلون هل كان موته انتقاما منه لفتح تلك المقبرة التي باركها السكنة أثناء دفن هذا الملك برقام وتعاويزم التي كانت

كتاب « الاستقصا ، في تاريخ المغرب الأقصى » شذرات مختصرة قيمة ذكرت فيه هنا وهناك على حسب علاقتها بتاريخ المغرب . ومن المطبوعات الجديدة مختصران قيمان الأول عن رحلة بالأندلس للاستاذ محمد كرد علي . والثاني تاريخ للأمويين بالأندلس للاستاذ محمد عبد الله عنان .

وفي الجملة قد كان للأسبان قبل دخول العرب إليها شيء من المدنية القوطية وكانت هذه المدينة شائعة في أوربة الوسطى على أثر اكتساح القوط للدولة الرومانية في أوائل القرن الخامس للميلاد . وقد اندمج القوط في البلاد التي فتحوها وفيت لغتهم في لغتها واتصلت مدينتهم بمدنيتها ولم يضع الأفرنج لها فنا خاصاً بها إلا في القرن الثالث عشر للميلاد . وأقدم أثر لهذا الفن بأوربا هو كنيسة كولونيا بألمانيا . أما إسبانيا فأضخم وأعظم أثر فيها هو دير الاسكوريال الذي بناه فليپ الثاني في النصف الثاني للقرن السادس عشر . ووضع الأوربيون بعد ذلك للبناء العربي الأندلسي الجميل فناً خاصاً به سموه استيل مورسك (STYLE MAURESQUE) أخذوه على الخصوص من قصور الحمراء . وترى شيئاً منه في بعض وجهات أبنية مصر الجديدة (هليوبوليس) ولا سيما في فندقها الأكبر .

تدور حول لمة من يجرؤ على فتحها . وقد فويت عندهم هذه الفكرة بعد موت ذلك العالم الأشرفي الفرنسي عقب زيارته لهذه المقبرة في السنة التالية .
أما التمثال الذي كان بقادس فقد أقامه فيها الرومان عند استيلائهم على أسبانيا لحرقل أو هرقل وهو أحد أمتهم وهو عندهم آله الزرع وحلى البلاد من عدوها . وحلى المسافرين في البر والبحر . وقد أقاموه في هذه المدينة ليحميها من أعدائها القريبين منها في بلاد المغرب ومن هذا نجست تلك الخرافة في أذهان الأسبان وانتقلت منهم إلى العرب فذكروها بغير تعليق عليها . وربما توسع بعضهم فيها فزاد عليها وجعلها من عند نفسه وما زال هذا التمثال بقادس حتى نار على بن عيسى قائد البحر فظن أن تحته مالا وهدمه فلم يجد شيئاً :

وقد دخل أصل هذا الفن مع العرب الى اسبانيا فانهم لما جازوا اليها
تقلوا معهم بعض مدينة الشرق . ولما فرغوا من حركة الفتح في السنين
الأولى من جوازهم الى الأندلس أخذوا في تخطيط الدور ، وتشيد
القصور ، وحفر الترع ، واقامة الجسور ، وبناء القناطر ، وشق الخلجان ،
وتهيئة الأراضي للزرع والعناية بتربية ذوات الضرع . واستوردوا من
مصر والشام كثيراً من الأشجار والنباتات مما لم يكن له وجود في قارة
أوربا . حتى اذا ضربوا بجزائريهم ، وأنأخوا بكل كل سلاطنتهم ، وأخذت
ينابيع الثروة تتفجر في كل ناحية من نواحي البلاد وظهرت معالمها في
جميع شؤونهم اهتموا بنشر العلوم وتشيد هياكل الفنون ، وكانوا يكافئون
كل من برز فيها ويميزون كل من ظهر في آفاقها وبياناتها في مكافأة
المؤلفين ، فتغير حال البلاد من بدو مطلق الى حضارة متأقمة ، وتكشفت
سماؤها مما كان يتكاثف فيها من سحب الجهالة عن شمس من العرفان
تنير أفلاكها ، وتعلأ أجواءها بمادة العلوم المختلفة من دينية وطبية وزراعية
وفلسفية وطبيعية وكيمياوية ، وغير ذلك من أدب جامع ، ونظم رائع ،
مما كان مادة للافرنج بنوا عليه شيئاً كثيراً من مدينتهم الحالية . وكان
ملوك العرب وأمرائهم في مقدمة الناس اهتماماً بهذه العلوم وتحصيلاً لها ،
حتى لقد كانوا مع شغلهم بأعباء ملكهم لا يريدون أن يروا أنفسهم أو
يراهم الناس أقل ممن اشتغل بتلك العلوم مهنة وصناعة . وكانت مجالسهم
أشبه شيء بأندية علمية يشاطرون فيها العلماء علمهم في وقت فراغهم من
أعمال الدولة ، بل كانوا في مجالس أنفسهم ولهم يتنقلون في كثير من
الشؤون : فمن هزل الى جد ، ومن مجون الى فنون ، ومن صحفة شراب ،

الى صفحة كتاب . وهذا العمرى كان سبباً فى شحذ قرائهم وارهاق
بديتهم ، وتهذيب طبيعتهم ، حتى أصبحت لا يصدر عنها الا كل مارق
وراق ، وبدع وشاق . وكانت قصور قرطبة وسر فسطة وطليطلة واشبيلية
وجيان والمرية وبلنسية وغرناطة مطالع سعود ، وموارد وفود ، ومرابض
أسود ، ومساكن جنود ، ومراكز بنود . ومجامع عظماء ، ومتنديات علماء ،
كما كانت مجالى سرور ، ومرائع حيور ، وكُنُس غزلان ، وملتقى أخذان ،
ومزار ندمان . وبالجملة قد جمع أمراء الاندلس فى شباب دولتهم من الملك
بين جلاله وجماله ، ومن الوجود بين نسيمة ونعيمه : فأخذوا من حياتهم
بالحسنين لدينهم ودنياهم ، مع أخلاق فاضلة ، وحكومة عادلة ، ونفوس
مائلة ، للعاجلة والآجلة . فشادوا للملك قراره ، وللعلم مناره ، وللفن داره ،
وللأنس مزاره . وسار الناس على سننهم ، والناس على دين ملوكهم .

ومن يطلع على أقوالهم فى نثرهم وشعرهم ير أن بحال القوم بعد
فراغهم من أعمالهم كانت مجتمع أحباب ، لكل مالد وطاب ، من أكل
وشراب ، وسماع الأغاني . بين الثالث والثانى ، من ذى عذار ، أو ذات
سوار ، ولسكن فى حشمة ووقار . حتى اذا ولى شباب نهضتهم ، وأسلم
الملوك قيادهم لشهواتهم . وتركوا حبل البلاد على غاربها لم يلبثوا ان ظهرت
فيهم معالم الخول ، وأخذت زهرتهم فى الذبول ، ونجم سعودهم فى الأقول ،
فنضب معين ثقافتهم ، وانحلت عروة وحدتهم ، وتفككت رابطة جماعتهم ،
وجفت دماء هممتهم ، وخبت ريح نعمتهم ، وماتت قلوبهم والقلوب لا
تموت الا اذا غفل الداعى ، وهجمت عليهم الذئاب من كل ناحية والذئاب
لا تهجم الا اذا نام الراعى . إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

الرسالة الأولى

كدت أترك مصر وأنا معتمز أن أمضى برهة من الزمن في جبال
البرينيات أو الشنايا (كما كانت يعرفها العرب) ترويحاً للنفس وارتداداً
للصحة . فلفت نظري أحد إخواني الى زيارة اسبانيا التي لم أكن أعرفها
مع أنى جبت تقريباً أكثر أقطار أوربا شرقاً وغرباً وشمالاً . وكان عدم
معرفتي باللغة الاسبانية يمنعني من هذه الزيارة ولا سيما أن في هذه البلاد
البقية الصالحة من آثار ذلك الملك العربي الفخم . ولهذا يقصدها كل سنة
عشرات الآلاف من السياحين من أوروبا وأمريكا وألمانيا على الخصوص .
وكان أحد إخواني قد سهل عليّ عدم معرفتي لغة القوم بما أخبرني من
شيوع اللغة الفرنسية فيهم . وحينئذ قويت عزمي وأخذت جواز سفر
في أول أغسطس (سنة ١٩٢٦) أقطع به السكة الحديدية الاسبانية من
شمالها الى جنوبها ومن غربيها الى شرقيها ماراً بأهم البلاد التي كان للعرب
أثر فيها .

وأول ما مررنا به بعد أن تركنا الحدود الفرنسية بمدينة (ايرن)
وهي أول حدود اسبانيا الشمالية الغربية . وبعد التفتيش العسكري على
أجوزة المرور (لأن البلاد تحت الأحكام العرفية) ثم التفتيش (الجمركي)
على أمتعتنا . سار القطار الى سان سباستيان . وهنا تجلت لي حيرتي بعدم
معرفة لغة البلاد . لأنه على الرغم من أن هذه المدينة متصلة بالحدود
الفرنسية وعلى الرغم من أنها مدينة من أشهر حمامات البحر في أوروبا —
وجدتني غريباً فيها لعدم معرفتي باللغة الاسبانية . ولما لم أجد لي مخلصاً

من هذا المأزق الا التشبه بالانكليز في جودهم نذرت لله صوماً فلن أكل
اليوم اسبانيا، ويومى هذا على النصف من يوم مريم : لأن يومها كان
شهراً على ما يقولون ولأنى كنت قدرت لسياحتى في هذه البلاد نصف
شهر . هنالك أصبحت عزلى ضرورية لأنى لا أفهم الناس والناس
لا يفهمونى حتى أحتفظ بكرامتى بعدم ظهورى بينهم بمظهر الجاهل .
وهم لو أنصفوا لوجدونا كلينا هذا الرجل .

إذا ما التقي ذو شملة عربية بنى عجمة فالكل فى النطق أعجم
وهنا أقول انه من الضرورى للعالم وجود لغة أخرى تكون الثانية
لكل إنسان حتى تتكون بها الحلقة التى تربط جميع أفراد العالم بعضهم
ببعض ، فتسهل عليهم أمورهم وتقوى رابطتهم العلمية والمالية والتجارية
والصناعية . ولقد فكر فى ذلك القوم باوربا واشتغلوا بوضع أصول لغة
جديدة سموها (الاسبيرانتو) . ولكنهم لم ينضجوها بعد أو أنهم لم
ينجحوا فى وضعها أو فى تعميمها بين الناس . وهم لو نجحوا لأحدثوا بها
تقدماً كبيراً وسريعاً فى كل مرافق الحياة وفى كل طرف من أطراف
العالم ، ولاستغنى الناس بها عامة عن تعلم عدة لغات ربما لاتصلح لشيء
إذا هى انتقلت من بيتها التى تعيش فيها . على انه لا حاجة لكل هذه
المتاعب فى خالق لغة جديدة ، وحسب الناس الاتفاق على لغة من اللغات
الكثيرة الانتشار فى العالم لتكون هى اللغة الثانية لكل أمة .

سأله سيافينا

هى أعظم مدن اسبانيا البحرية على الاقيانوس الاطلانطى وعلى

خليج (غسقونية) وعدد أهلها خمسون ألف نفس ، وهى مصيف ملوك اسبانيا . وترى قصر الملك فى قمة جزيرة صغيرة جميلة فى مدخل المرفأ تسمى جزيرة كلارا . وهذه الجزيرة بوضعها الطبيعى تخفف عن المرفأ هجمات أمواج الاقيانوس . ولهذا يكون الاستحمام فى مياهها مأمونا وليس فيه شئ من الخطر . وفى هذا المرفأ حمامات عامة نفحة وخاصة جهة الجنوب .

ومن الناس من ينصبون لهم على الشاطئ خيمات صغيرة يقضون فيها يومهم بملابسهم البحرية طول نهارهم .

وهذا المرفأ على شكل هلال يقوم على طرفه الشمالى جبل (ارجيله) وعلى الطرف الجنوبى جبل (الجلادو) . وهما أشبه شئ بحارسين بمنعان نفوذ العواصف الى داخل المرفأ . فالمدينة فى حرز حريزهما من عواصف الشتاء ، ولهذا كانت مدينة شتوية أكثر منها صيفية .

ويحيط بالمرفأ رصيف جميل جداً ، وهو وان كان ضيقاً بعض الضيق قد بلغ الغاية من النظافة واللطافة وقامت عليه الأبنية الجميلة من فنادق وغيرها من مساكن الخاصة . وكنت أرى فى طريق (الكورنيش) بمرسيليا شيئاً من الجمال ولكن هذا الرصيف وكذلك الرصيف الذى يحيط بجبل أرجيله أنسيانيه بل أنسيانى رصيف الاسكندرية الذى على الميناء الشرقى والذى كلف المدينة أكثر من نصف مليون من الجنيهات : لأنه ينقصه تمام العناية به لتظيفه على الخصوص مما فيه من الحشرات الانسانية حتى يصبح للخاصة نصيب من التنزه عليه .

وتكثر فى المدينة الميادين اللطيفة قامت عليها أشجار جميلة تغلظها

رياض الورود والرياحين والأزهار المختلفة مما يجعل كل ميدان جنة زاهرة وروضة باهرة . ويفصل مباني المدينة نهر (أيروما) وترى لمياهه عند اتصالها بمياه الاقيانوس شكلا بديعا يكسو صفحة الماء زبداً فضياً دائماً ، وتسمع للأمواج في هدوئها أصواتاً كأصوات القبل تهيج الأشجان بهذه الموسيقى الطبيعية . ولعل لهذا الزبد الأبيض الذي تراه هنا على طول الشاطئ الاطلنطى معنى في تسميته بالشاطئ الفضى . وعلى حافى النهر من جهة الجنوب مسرح (تياترو) فيكتوريا ومن جهة الشمال ملعب الكورسال . وقد دخلت هذا الأخير فوجدته أنعم شيء في بابه . والمدينة القديمة تقع على عمن المرفأ فى سفح جبل (أرجوله) . ومما يؤسف له أن هذه المدينة قدرة وعامة أهلها من الصيادين : فترى نساءهم ينسجن شباك الصيد منشورات على الأرض وبعضهن يعملن فى تمليح السردين^(١) على رصيف المرفأ الشمالى . وهذا القسم كقسم الانقوشى بالاسكندرية قبل انشاء الرصيف ، وهو الوصمة الوحيدة فى جبين هذا المرفأ الجليل . وفوق هذا الجبل قلعة قديمة لا يسمح بالصعود اليها وبجوارها مقبرة لبعض الضباط الانكليز الذين ماتوا فى احتلالهم لهذه المدينة بين سنتى ١٨٣٦ و ١٨٣٧ فى أثناء ثورة الدوق كارلوس .

أما طرف المرفأ الجنوبي فهو غاية فى النظافة وحسن النظام وأبنيته جميلة . ويصعد الى جبل ايجالدو بواسطة الفنو كياير^(٢) funiculaire . ويحيط به فى أعلاه بهو كبير واسع له كُنَّات أو أطناف (بلكونات) تشرف على المدينة كأنها صفحة جغرافية ، وتشرف من جهة أخرى على الاقيانوس فتراه

(١) الصير ، أو العرم (٢) سكة حديدية مسنة تنلق الجبال وتشد عرباتها بواسطة حبل مكون من ألاك حديدية مرنة وذلك اما بضغط الماء أو بآلة رافعة فى محطتها العليا .

في عظمته لا يحده غير اتصال الماء بالسما في أفق يتخلله شيء من القتام على الدوام حتى في أيام الصفاء . وفي أعلى الجبل فندق فيه مالد وطاب ، من أكل وشراب ، ومخاصرة على نغمات الموسيقى خصوصا (بعد العصر) . ودون الفندق على الجبل مكان فيه طائفة من الزوج يضربون على الطنبور ويرقصون ويشربون نوعا من المريسة . وهم انما يمثلون افريقية للناس بهؤلاء المتوحشين الذين لا يزالون في الحلقة الأولى من الانسانية !! وكان أولى بهم أن يعرضوا في مكانهم بعض أسرى الريف الذين ظهروا للعالم وللتاريخ بكبير شهاتهم . وهم لا يزالون يدافعون عن كرامتهم وحوزتهم تلقاء هاتين الدولتين الضخمتين مع قلة عددهم وعددهم .

ولقد صادف اليوم الذي أزمعت فيه سفري من هذه المدينة الاعلان عن^(١) مصارعة الثيران ، وذكروا اسم من يتولى الصراع في هذه

(١) هذا النوع من الصراع قديم في بلاد اسبانيا . ولا يدرون أمن طريق الرومان دخل اليها أم من طريق القرطاجيين . ويقول بعضهم انه ظهر في اسبانيا بعد دخول العرب — فان كان هذا صحيحا فإنه يكون من طريق البربر الذين اخذوه عن القرطاجيين لما بينهما من التبعية أو الجوار . أما العرب فلا نعلم عنهم في تاريخهم انهم اشتغلوا بمثل هذا الصراع . وعلى كل حال كان صراع الثيران الى القرن التاسع من الميلاد يدخل في انواع الفروسية التي كانت تظهر فيها بطولة المصارع باسبانيا . فقد كان ينزل الى الميدان الذي به الثور المتوحش ويهجم عليه ويأخذ بقرنيه ولا يزال به حتى اذا غلبه على أمره وألقاه الى الأرض كان له شرف الانتصار على خصمه . فاذا كانت الغلبة للثور هجم عليه بعض المتفرجين بخناجرهم وأثخنوه جراحا يقع منها صريحا . وربما أقتذوا الرجل من تحت قرنيه وفيه رمق من الحياة فيقوم وهو يتعثر في خجله . وكثيرا ما كان ينزل المصارع الى هذا الميدان فارسا فيقتل مع الثور وتكون النتيجة القضاء على أحدهما . ولم يتغير شكل هذا الصراع الى صراع فني مداره على خفة المصارع ومروته في حركاته الا في القرن الثاني عشر الميلادي . وبالجملة أن صراع الانسان مع الحيوانات المفترسة كان منتشرا في الدولة الرومانية .

وملعب (الكوليزيوم) لا يزال أثره موجودا في روما . وكان يسع ثمانية آلاف نفس وقد كان افتتاحه سنة ٨٠ ميلادية مدة الامبراطور نيوليس الذي أمر فادخل في ساحة هذا الملعب خمسة آلاف من الحيوانات المفترسة وأرغم المسيحيين المساكين الذين منوا باضطهاده على قتالها :

الحفلة وهو اللون (انتونيو كثير) أعظم فرسان هذه الحلبة عندهم ، كما ذكروا أن الملك سيحضرها مع الأسرة المالكة . ولما لم يكن قد سبق لى رؤية هذا الصراع إلا فى صور الخيالة (الصور المتحركة) أخرت سفرى لمشاهدته فى أكبر ميادينه وأعظم مظاهره . وهذا الصراع قديم فى هذه البلاد : يتدرب منهم قوم على مصارعة الثيران التى تربي لهذه الغاية فتجد الثور على منتهى ما يكون من الوحشية ، عظيم الهامة قوى العضل ، ويبلغ ثمنه عندهم أضعاف ثمن مكافئه من غير ذات الصراع .

وكان أهل روما يجتمعون فى أعيادهم فى هذا المكان لمشاهدة الالاب المختلفة التى كانت تقام فيه ، ومنها مصارعة بعض الرجال للوحوش . ولقد كانوا يلقون ببعض السبيد الى ميدان هذا الملعب وهم عزل من كل شىء ، ثم يرسلون عليهم بعض الأسود من خيسها من باب له على هذا الميدان . فيأخذ السالكين فى دفعها عن أنفسهم يحكم طبيعة النضال الجوى ، ولكنهم لا يلبثون أن يصرعوا وتأخذ السباع فى نهنش أجسادهم ، وهناك كنت تسمع رنات السرور والانجاب من النظارة . وكثيراً ما كان الملك يأمر فيلقى ببعض من يغضب عليه من القواد الى هذا الميدان ومعه آلة كفاحه ويرسلون عليه بعض الأسود فيدفع القائد خصمه بشدة . وقد يغلب عليه ويصرعه وهناك يجودم الأسد ما كان له من جرعة فيصفق له الناس من كل جبة هاتين له بكلمات الاستحسان وعند ذلك ينظر الملك الى القفو عنه ويرجعه الى قيادة جيوشه بعد تهنته بهذا الظفر العظيم .

ومن هذا وذاك ترى أن شدة فرح الناس بالظفر فى هذه الميادين كانت تنسيهم فظاعة تلك الدماء التى تسيل على أرضها من أحد الخصمين مما أذا رأوها فى غير هذا المكان أخذتهم الشفقة والرحمة واستدعوا جمعية الرفق لاسماف صاحبها .

وقد كان يكثر الصراع فى الأزمنة الغابرة بين حيوان وآخر من نوعه فقد كان بين الثيران كما كان بين الكباش والديكة . وكان الصراع فى هذين النوعين الى زمن قريب بمصر .

اما الصراع بين انسان وآخر فقد كان من الالاب الرياضية التى كانت تستعملها اليونان والرومان وبها كانت تظهر قوة الشخص المادية وهى كل شىء فى تلك الازمان ، فيكون له بها شرف البطولة التى يحرز بها فى قومه المجد الأعلى والشرف الاسمى ، وقد يصل بها الى عرش الملك بل الى عرش الالوهية فى نظرم .

أما الآن فاشتغال الناس بهذه الالاب الرياضية قد أصبح عاما فى البلاد المتمدنية ولكن على قاعدة « العقل السليم فى الجسم السليم » وقد أصبح لابطالها المحترفين لالابها شىء من هذا الشرف يتردد صده فى أنحاء المسكونة ، وهذا غير ما يكسبونه من مادة الرهان على انتصاراتهم مما تكون لهم به ثروة قد تهدر باللايين .

وللمصارع شهرة كبيرة في قومه تتناسب مع قوة صراعه وله فيهم احترام كاحترام كبار الرجال وعظماهم . وكثيراً ما تراه محمولا على الأعناق من الشعب بعد انتصاره على خصومه من هذه الحيوانات الفظيعة . أما اذا صرع الثور خصمه فتلك الطامة الكبرى والحزن العام والكآبة الشاملة ، غير ما يحدثه ذلك من الذعر في نفوس القوم وعلى الخصوص القرييين منه في جلوسهم . وقد يمتري الثور في هذه الحالة شبه جنون فيهجم على الحاجز الخشبي الذي يفصل بين المصارعين والنظارة فينشأ عن ذلك خلل واضطراب في بعض صفوفهم فيسقط بعض الناس على بعض وينشأ عنه ضرر كبير يصحبه موت الكثيرين تحت أقدام الفارين من الهلع والخوف . وهنا أرجو أن تسمح لي بأن أقص عليك ما رأيت .

وصلنا الى هذا المكان فوجدته دائرة أرضية يبلغ قطرها ثلاثين متراً على أقل تقدير وهي مكان الصراع . ويحيط بها سياج خشبي متين على ارتفاع نحو مترين ، وفيه باب يدخل منه المصارعون من إنسان وحيوان ، ومن دونه أبواب غرف الثيران لكل واحد غرفة ، ومن وراء هذا السياج قامت أمكنة المتفرجين ، وهي تندرج الى ثلاث درجات بعضها فوق بعض بميل الى الوراء ، وفي القسم العالى من جهة الغرب مقاصير جلالة الملك والأسرة المالكة وكبار رجال دولته ، وهذا غير أعلى المسرح الذي لا مجالس فيه للنظارة بل ييقون فيه وقفا على أقدامهم ، ويسع هذا المكان عشرين ألف نفس على أقل تقدير ، ولقد كانت جميع مجالسه مكتظة بالناس من نساء ورجال فلما جاءت الساعة المضروبة ، دخل المصارعون راجلهم وفارسهم وعليهم الحلال المقصبة البراقة ولما وصلوا قبالة



بناء لمصارعة الثيران في سان ميباستيان

مقصورة الملك سلوا السلام اللائق ثم وقفوا في أما كنهم مستقبلين
الجهة التي يدخل منها الثور ، وهناك فتح باب غرفة على المسرح فاندفع
منها ثور هائل بحالة توقع الرعب في قلب من لم يتعود مثل هذا المنظر ،
وكأنى به وقد وقف برهة والشرر يطير من عينيه وهو يحيل نظره في
خصومه يتخير الجهة التي يهجم منها ، ثم لا يلبث أن يهجم على أحد
المصارعين ، فان كان من المترجلين قابله بملاءته الحمراء التي لا يكون في
يده غيرها ، وفي هذا الوقت تدهش من خفة هذا الرجل في زوغانه عن
مسقط قرني الثور بحركة خفيفة جدا ينتقل بها من يمين رأس الثور الى
يساره وهو من قرنيه الثائرين قاب قوسين أو أدنى . ولا يزال يطعمه
بهذه الحركات المدهشة الدقيقة حتى يعجزه فيتركه الثور الى غيره ، فيقابله
هذا بمثل حركات الأول محرضاً له على الهجوم على الفارس الذي ترى
في يده رمحاً طويلاً ، فاذا هجم عليه قابله الفارس بالرمح في قفاه بقوة قد
تدفع الثور الى الوراء فتقفه عن الهجوم ، وهنا تظهر كفاية الفارس ،
ومقدرته ، وقد اصدق هجمة الثور فيدخل رأسه تحت بطن الفرس ويرفعه
على قرنيه فيخر الفارس وفرسه جميعاً على الأرض . وعندها تظهر أحشاء
الفرس الذي يفارق الحياة لوقته . هنالك يشغل أحد المصارعين الثور
بملاءته عن الفارس الذي يقصده طائفة من الخدم لاقامته من تحت
حصانه . وقد يؤتى اليه بحصان آخر فيكون نصيبه نصيب الأول :
وقد رأيت في هذا اليوم ثوراً بقر بطن خمسة من الخيل في نحو ٢٠ دقيقة .
وفي هذه الحالة قد يكون الثور في أشد هيجانه فيقصده فارس الحلبة راجلاً

وفى يده سهمان ، فاذا رآه الثور هجم عليه بشدة فيزوغ الرجل منه واضعاً سهميه بين كتفيه ، وهكذا يكرر هذه الفعلة حتى اذا تعب الثور هجم عليه بإلأته الحمراء من تحتها سيفه ولا يزال يفرى الثور بنفسه بحركات مختلفة غاية فى الدقة والخفة ثم يهجم عليه ويدخل سيفه فى وريد العنق ، فان صدقت الضربة سقط الثور وربما يتضرج فى دمه وهنالك تنتهى الموقعة بين التصفيق الحاد من كل جهة مع عزف الموسيقى تحية المنتصر . وقد ترى القوم فى أثناء هذا الصراع متحمسين للفتصر من الخصمين نافرين على المنخزل ، فيصفقون للثور أحياناً ويصفرون لخصمه كلما جبن فى كراته أو أثنى بحركة غير قانونية . وكثيراً ماتصدر منهم كلمات الازدراء أو عدم الاستحسان موجهة لأحد الخصمين .

والذى يدهشنى فى تلك الحلقة منظر السيدات وهن باشات مسرورات بروية الحصان يمشى خطوات وهو يحرق أحشاه : هذا المنظر الذى قد ترتاع له نفس الرأى من غير الاسبانين لأول وهلة . ولا شك أن هذه العادة قد ألفتها حتى أصبح منظرها لا يؤثر فىهن الا بحال متناقضة مع أثرها الطبيعى . ولهذا السبب يحظرون هذا الصراع فى فرنسا الا فى مدينتين اثنتين الأولى نيم لان أهلها ألقوه من زمن الرومان ومسرحه فيها من زمنهم . والثانية بورردو لمحاورتها لاسبانيا . وقد يقيمون صورة مصغرة منه فى بلاد أخرى مثل (فيشى) وغيرها . وقد كان الصراع فى هذه الحلقة مع ثمانية من الثيران قتلت جميعاً بعد أن قتلت أكثر من خمسة عشر حصاناً .

والذى لاحظته هنا أن الملك حضر من أول الصراع الى آخره من

الساعة الخامسة تماماً الى منتصف الساعة الثامنة بعد الظهر . ولا أدري
أكان هذا ناشئاً عن شوقه لرؤية هذا النزال ، أو أنه يحترم ميول شعبه
فيظهر لهم أنه معهم في عواطفهم وشعورهم من البداية الى النهاية . وهي
سياسة رشيدة ربما كانت السبب في حفظ عرشه في الأزمات الحربية
والسياسية التي مرت بالبلاد لعده^(١) . وعلى كل حال ترى الشعب الاسباني
يحب ملكه لانه كان يؤاسيه كثيراً مدة الحرب فيعود مرضاهم ويمطفئ
على المنكوبين منهم . لذلك كثيراً ما كنت تراه يتنزه وحده على طوار^(٢)
هذا المرفأ عن غير ما حرس أو رقيب اللهم الا قلوب شعبه ومهجم . وهل
للملوك سعادة في الأرض غير هذه العاطفة ؟

(١) كتبت هذه الرسالة قبل الحركة الثورية التي ظهرت في البلاد ضد السلطان الحاكمة

(٢) رصف

الرسالة الثانية

ركبت القطار السريع الى مجريط (مدريد) في واد لانيات فيه ولا زرع بين سلسلتى جبال (نوفامورينا) في واد جميع الاراضى عن يمينه وعن شماله قفر حتى كأننا كنا نسير في تلك الصحراء التى وهبها أبو دلامة الشاعر للخليفة المنصور العباسى : (١)

ويتخلل هذه الصحراء بمض أراض كانت مزروعة قحاً بعد المطر وقد حصدوه إذ ذاك وهم يشتغلون بدرسه كحاله عندنا : فترى النورج يدور على الكدس (الرمية) الآن حيلانه (فلكانه) أقل ارتفاعاً . وقد ترى بجوار هذا الجرن آخر قد تم درسه فيه المذرى بمذراة كحاله عندنا تماماً . وترى بجواره التبن وقد كدسوا بعضه على بعض مثل تكديسه فى الصعيد كأنه مقطوع من جهاته الأربع بمستوى أفقى

ويتخلل هذا الوادى بمض أشجار من الجوز والبقس وبعض حقول من العنب والزيتون . وكلما اقتربنا من مدريد قلت فيه المزارع ووحش منظره . وفى هذه الجهة ينزل الثلج مبكراً فيقصدها أهل مدريد للرياضة الشتوية والألعاب الثلجية (اسكيتنج) . ومتوسط سير القطار السريع فى هذا الوادى ٤٢ كيلو مترا لأن المسافة بين سان سباستيان ومدريد ٦٣٠ كيلو قطعها هذا القطار فى ١٥ ساعة

(١) ذلك انه دخل عليه يوماً مع الشراء فأعجبته قصيدته فأمر أن يعطى مائة جريب غامرة ومائة جريب غامرة ، فقال وما هى الغامرة ياأمير المؤمنين ؟ قال هى التى لانيات بها ولا زرع . قال اذا كان الامر كذلك فأنى أعطيك ياأمير المؤمنين مائة الف الف جريب غامرة من صحراء كذا وان شئت زدتك منها .

مديريد

مديريد (والعرب يسمونها مجريط وبعضهم يسميها مشريط) هي عاصمة اسبانيا الآن وعدد سكانها ٥٥٠ ألف نفس . ولقد كانت الى القرن العاشر بعد الميلاد قرية صغيرة غير مهمة ، وكانت حصناً يقع حيناً في يد الفشتالين وآخر في يد العرب . وأول شهرة هذه المدينة التاريخية من سنة ١٣٩٤ م إذ توج فيها الملك هنرى الثالث ملك القوط . وفي النصف الثاني من القرن السادس عشر جعلها فليپ الثاني عاصمة ملكه ، ومن ثم أخذ عمرانها يتزايد وخاصة بعد أن هدم سورها القديم . وجو هذه المدينة حار جداً في الصيف بارد جداً في الشتاء وخير الأوقات لزيارتها فصل الخريف . وكانت درجة حرارتها في أواخر أغسطس ٤٥ سنتجراد وقد كنت أظن قبل زيارتي لها أنها مدينة غير عظيمة لبس فيها شيء من مظاهر المدنية الحديثة له قيمة ، ولكنني وجدت أحياءها الحديثة كأحسن مدائن أوروبا في مبانيها ومحالها التجارية وفنادقها الكبرى ومتنزهاتها وقهواتها البديعة ، وأنفخ أبنيتها قصر الملك ويمكن السائح مشاهدته بتوصية من السفارة التي ينتسب إليها ولم أستطع زيارته كما حرمت مشاهدة كثير من آثار هذه المدينة ، وتكثر في شوارعها المراكب الكهربائية والقطر السريعة (المترو) التي تسير تحت الأرض وهي أحسن منها شكلاً في ممالك أخرى ، وفي وسط المدينة ميدان يسمى ميدان الشمس تنفرع منه شوارعها الكبيرة ، وينتهي شارع القلعة (ALACALA) وهي تسمية عربية بشارع عظيم عمودي عليه اسمه (البرادو) وهو على نظام شارع (شانزليزيه) بباريس إلا أنه أوسع ، ويسير من جانبه شارعان،

أما أوسطه فكله رياض وأشجار صفت تحتها كراسى كثيرة للجلوس الناس وخاصة وقت المساء ، وهذا المكان هو محل رياضة القوم في مدة الصيف فتجده غاماً بالناس من جميع الطبقات إلى فترة من الليل وعلى حافتي هذا الشارع المباني الفخمة .

وهذه المدينة مشهورة بصناعة الصيني والسجاد والدخان ، ولقد أعجبنى فيها منظر مساحى الأحذية لأنهم غاية في النظافة وكل واحد منهم يحمل صندوقاً ومعه سادة (مخدة) يجعلها تحت ركبتيه لمزاولة مهنته التي يؤديها بكل دقة . ولشدة حر مدريد لم أتمكن من زيارة شيء غير متحف الصور وهو آية في بابه ومع صغره تراه من أحسن المتاحف التي من نوعه . والذي أعجبنى فيه سيدات ورجال وشبان وشابات منهمكون في تصوير بعض الأنواع المحفوظة بالمتحف . وكثير منهم يجيد صناعته ولا عجب فأوروبا جميعها تعنى بالفنون الجميلة . وفي مدريد دار للكتب جميلة وفيها كثير من الكتب العريضة القيمة وليس فيها شيء من آثار العرب إلا ما كان مجموعاً في دور الآثار بها من التحف الثمينة التي هي من عملهم والنقود التي ضربوها سواء أكانت هذه المتاحف للحكومة أم كانت للأهالي ، وخير ما للخاصة من ذلك متحف السيور^(١) أو سما الذي أقام له داراً خاصة به وقف عليها من ماسكه ما تقوم غلته بنفقتها . وقد يلفت نظرك في هذه المدينة استعمال القلل الفخار ويسمونها كرازا وهي كلمة عربية^(٢) . فإذا لاحت منك التفاتة إلى موائد قهوة من القهوات أو مطعم من المطاعم وجدت

(١) البد (٢) جاء في القاموس كرازا كغراب ورمال الفارورة أو كوز ضيق الرأس

على كل واحدة قلة . فاذا جلست أنك الخادم بكوب وانتظر ما تأمر به من مشروب أو مأكل .

وعلى كل حال ان جو المدينة غير صحي في الصيف لشدة حرارتها وكثرة ذبابها وأتربتها التي تؤثر في الصدر ، ولشدة جفاف هوائها الذي يؤثر في المزاج العصبي .

ويسير في وسطها نهر (ماندانا) وكان أحد سفراء ألمانيا يصفه من باب الفكاهة بأنه أحسن أنهار الدنيا : لأن الانسان يقطعه ماشياً أو راكباً عربة أو دابة . وهو يشير بذلك إلى أن هناك نهراً ولا ماء . ومن أطف الاشارات التي من هذا القبيل أن مدريد أكثر عواصم أوروبا ارتفاعاً لأنها بنيت على جبل ، وقد خرج القسوس من ذلك أن عرش ملوك أسبانيا بعد عرش الله (أعني في الارتفاع) . وبهذا أثروا في عقيدة الشعب حتى أنه إلى الآن يعتقد أن عرش أسبانيا هو خير العروش بعد عرش السماء . وتكثر في هذه المدينة المراوح : فترى واجهات الدكاكين ممتلئة بها على أشكال مختلفة وقد تراها في أيدي الناس عامة ويندر ألاً ترى سيدة جالسة أو ماشية أو راكبة إلا وفي يدها مروحة تحركها بلطف أخف من النسيم الذي تنشده . وعلى ذكر هذا الجنس اللطيف أقول إنه في هذه البلاد أكثر كمالاً منه في غيرها من مدن أوروبا . فمن يتجملن غالباً بالحشمة ويدنين عليهن من جلابيبهن (فساتينهن) إلى مادون نصف الساق وكثيراً ما يضعن على رءوسهن وخاصة أهل الاندلس الشقة وهي أشبه شيء بما يسمونه عندنا (الطرحة) وهي إما أن تكون خفيفة من المخرم الأسود أو من نسيج من الشاش السميك ، وبعضهن يشتملن

بعلاء كبيرة قد تصل الى الركبة وهؤلاء في الغالب من الراهبات .
ونساء أسبانيا أقل صلة بالرجال الغرباء ومع أنهم جميلات الوجه جداً قد
تنقصهن رشاقة الجسم وخفة الحركة وذلك لكثرة ملازمتهم منازلهن .
وقد يكون ذلك لشدة حرارة الأقليم ، أو أن هذا النوع من الحجاب
موروث عن العرب . ويقال إن أحسن الجمال الاسباني في جهة بلنسية
ثم في غرناطة ثم في برشلونة ، ذلك لأن جمال طبيعة هذه البلاد أثر في
أهلها فأكسبهم من محاسن الخلقة ما لم يتيسر لغيرهم وهو تعليل معقول .
وبالجملة إن نساء الاسبان في الغالب يكتفين بجمالهن الطبيعي الذي
خص بهذه السمرة التي جعلتها يد الطبيعة بما ترى أثره الصناعي في وجوه
الغانيات في كل جهة من جهات العالم المتدين . ولكن هل يبلغ الظالم
شأو الضليع ؟؟ ومما يعجبني أن نساء الاسبان في الغالب لا يستعملن
الأدهنة البيضاء في وجوههن ولا الحمر في شفاههن . ومن يستعملنها
منهن فبخفة لا تظهر معها كلفة الصناعة . وبذلك أصبحن بعيدات عن
التسم الذي يحصل من كثرة استعمال هذه المحسنات الوقتية لأنها كلها
مركبات زرنيخية تؤثر على مر الأيام في بشرة الوجه بالذبول وعضلة
الشفة بالتقلص . وعلى كل حال إن هذا الجمال الصناعي وإن أكسب المرأة
رواء مزيفاً في وقته يتقدم بها الى الشيخوخة قبل أوانها بما لا تنفع معه
عناية الطبيب ولا استعمال العقاقير .

حسن الحضارة محبوب بتطرية وفي البداوة حسن غير محبوب

الاسكوريال

هو البناء الذي أقامه فليپ الثاني ملك أسبانيا في النصف الأخير

من القرن السادس عشر على قمة ترتفع عن البحر ألف متر وتبعد عن مدريد بواحد وخمسين كيلومترا وهو يشمل الكنيسة والقصر والمقبرة الملكية والدير ومدرسته . واذا عرفت أنه يحتوى على ١٦ حوشا و ١٧١٠ نافذة . و ١٢٠٠ باب . و ٨٦ سلما توصل الى أمكنة مختلفة — عرفت مقدار أهمية هذا البناء العظيم الذى بنى جميعه من الجرانيت الأزرق الذى أتوا به من جبال وادى رامة باسبانيا .

وبناء الكنيسة على النظام القوطى وهى على خلوها من التأنق تشعر فيها بعظمة فى النفس لا يصل اليها ذلك التأنق الذى تراه عادة فى الكنائس الكاثوليكية الكبرى . وشكلها من الداخل مربع طول كل ضلع منه خمسون متراً وفى وسطها أربعة أعمدة من البناء المربع عرض كل ضلع من أضلاعها ثمانية أمتار وعليها أقواس ترتفع عليها قبة الكنيسة التى قطرها ١٧ متراً وفى دائرة الكنيسة ٤٢ مصلى . ويرتفع على سطحها منارتان ارتفاع كل واحدة نحو ثلاثة وسبعين متراً . ويعلم القبة صليب تبعد قته عن أرض الكنيسة بخمسة وتسعين متراً — ويجوار الكنيسة حوش مربع يحيط به بهو عظيم رسمت على حوائطه بالزيت صور كثيرة كنسية مكبرة . وفى وسط هذا البهو من كل جهة أبواب الى غرف فى بعضها ألواح ثمانية من رسم أشهر المصورين فى القرنين السادس عشر والسابع عشر . وبعضها يصعد منه الى الدير وهو محل مسكن القسوس القاعين بحركة العبادة فى الكنيسة . وفيه مكتبة عظيمة فيها خمسة وأربعون ألف كتاب منها مجموعة من الكتب الدينية والأغاني الكنسية من القطع

الكبير جداً وقد وشيت كتاباتها وجلودها بالذهب ، وبعضها مكتوب على رق الغزال ومزين بالرسوم الجميلة والنقوش القيمة ومنها مجموعة ثمينة من المخطوطات العربية لا تقل عن ألفي مجلد .

وفي الدير تبقى جثة الملك خمس سنين قبل دفنها (بالبنتيون) وهو المقبرة الملكية المتصلة بالكنيسة . وينزل إليها بإسلام هي وحوائها من المرمر الوردى الثمين تنتهى إلى غرفة مشمعة قطرها عشرة أمتار ، وحوائها وأرضها من المرمر ، وفي كل ضلع منها ردهة وضع فيها ستة توابيت فيها جثث ملوك إسبانيا بعضها فوق بعض . وفي القاعة دهايز يوصل إلى عدة غرف فيها قبور بعض أعضاء الأسرة الملكية وبالجملة هذه المقبرة مع عدم أناقتها وخلوها من الزينة الكاثوليكية تتناسب عظمها مع عظمة المدفونين فيها . .

وهنا مر بخیالی مقبرة جنوه العامة وكنت زرتها منذ سنتين ، وكيف وصل بالقوم تأنيقهم وتطاولهم في نخامة مقابرهم بها إلى درجة لا يماثلها شيء آخر من نوعها ، فترى القبور بعضها بجوار بعض وكلها أو جلها من المرمر ، وقد رسمت أو نقشت أو مثل عليها صورة الميت ومن حوله الملائكة ترفرف بأجنحتها وتمد يدها إليه لتقوده إلى جنات النعيم أو بعبارة أصح إلى الجهة التي ينتظره عمله فيها ، وبعض القبور تجدها قد جمعت إلى هذا مختصر تاريخ الميت ، ومصابيحها مسرجة على الدوام ، وبالجملة قد وصل فيها الابداع ونخامة المنظر وجمال الصناعة إلى حد لم أره في غيرها ، ويحيط بهذه المقبرة رياض نضرة فيها كراسي خشبية ورخامية يجلس عليها زوار المقبرة ، وهنا ذكرت (قطع الره) وما إليه من جبانة

المجاورين والعفيفين وغيرهما مما أرجو أن يعيره أصحاب الشأن وأولو الأمر بعض عنايتهم حرمة للأموال ورحمة بالأحياء .

قصر الملك

وهنا أرجو القارىء عفووا اذا رجعت به معنى بعد أن شط بي القلم الى قصر الملك ، وهو يتصل بالكنيسة اتصالاً تاماً ، فإذا ترى ؟ ترى بهواً طويلاً عريضاً مرتفعاً ارتفاعاً عظيماً وفيه باب القصر ، ويدخل منه الى طابق أرضى فيه حجرة نوم الملك وحجرة نوم ابنته وليس بهما شئ من المبالغة فى التأنيق . ترك هذا وما اليه الى الطابق الثانى وتدخل الى قاعة المائدة ثم الى قاعة السفراء ثم الى المكتب الخصوصى فنجد بها من حسن الرونق وجمال الشكل وبديع الصور التى نسجت على قطع كبيرة من الحرير يتكون منها لوح على قدر كل حائط من حوائط هذه الغرف . فترى الحائط كله مشتملاً على لوح واحد رسمت فيه بالنسيج صورة مكبرة من أصل معروف لأحد المشهورين فى فن التصوير . نرى هذه الصورة فى بروزها وظلالها وألوانها ودقة صنعها وكمال صوغها وتتمام إبداعها تمثل لك واقعة حربية أو حادثة تاريخية ويكاد لسان حالها يقول (ليس فى الإمكان أبدع مما كان) ، ولقد أعجبني من ذلك صورة محاصرة بنى مرين مع الدون جوبان لمدينة طريف ، وقائدها إذ ذاك غوزمان ، فأتى جوبان بأحد أبناء هذا القائد وهدده بقتله إن لم يفتح له أبواب هذه المدينة ، فكان جوابه أن رمى له غوزمان بسيفه ليقتله به . وهذه شجاعة وأمانة يضرب بها المثل كما ضرب بشجاعة السموه وأمانته من قبل .

وقد فرشت هذه القاعات كلها بالحصير المصنوع حديثاً على مثال ما كان عليه في وقته . وهو أشبه شيء بما يعمل الآن في منوف والقازيق من ذات الخطوط الضيقة المستقيمة . نترك هذا أيضاً الى قاعة الصور الحربية ، وهى بهو كبير طوله نحو أربعين متراً ، وقد رسمت على حوائطها بالزيت واقعات حربية مختلفة لفتت نظرى واحدة منها بما اغرورقت له عينائى وجمد له قلبي . تلك هى الواقعة المشثومة التى حصلت بين القوط والعرب ^(١) فى سهول غرناطة ، نرى فيها الجيشين يسير كلاهما نحو الآخر بحال منتظمة ثم لا يلبث أن يلتحم أحدهما بالآخر ، ثم لانعم أن نرى هزيمة العرب تلك الهزيمة التى كانت نتيجةها أن قذف بهم إلى ماوراء البحر الأبيض المتوسط تاركين قصورهم وديارهم فى الأندلس تمنى من بناها !! تاركين وراءهم ملكاً مجيداً دام أكثر من ثمانية قرون كانت كلها عظمة ونخامة !! تاركين وراءهم الخراب بعد العمران ، والوحشية بعد المدنية ، والفقر بعد الرفاهية . والملك لله وحده سبحانه يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء

قصر الأمراء

هو على بعد ثلثمائة متر من قصر الملك ، وهو بناء صغير فى حديقة كبيرة معتنى بها كل الاعتناء . دخلت هذا القصر مع الداخلين وكان

(١) شكل العرب الحاربين فى هذه الصورة على انتظام تام فى هجومهم ولباسهم وهو أشبه شيء بلباس الأتراك سروال (بطلون) واسع وعليه شبه معطف (جاكيت) عليه حزام وعلى الرأس عمامة أفت على قلنسوة مخروطية الشكل . وربما كان هذا اللباس شائعاً عندهم بين حربيين وغيرهم . على أنهم كان منهم كثيرون يتربون بلباس الأسبانيين حتى بعض الخاصة ومنهم محمد بن مردنيش : صاحب شرق الأندلس .

الحارس يرشد القوم بلغته الى ما فيه من أثر بما لم أفهم منه لا كثيراً ولا قليلاً . ولكنى ماذا رأيت ؟ رأيت صوراً من أبدع ما يرى الراءون الواحاً صغيرة من رسوم مختلفة وأشكال متغايرة غاية فى الجمال تمثل لك وقائع تاريخية شهيرة يعرفها أربابها . ويجوار هذه هنا وهناك قطع أثرية صنعت من نحاس أو فضة أو عاج أو صدف وهى تمثل مناظر بديعة جداً تراها مع صغر حجمها كأنها واسعة شاسعة بما فيها من أشجار وأطيار وحيوان وإنسان وكلها من قطعة واحدة ، ولا يمكن أى واصف أن يصفها لأنه إذا رآها وقف أمامها فى حيرة عظيمة فى حكمه عليها أمن عمل الإنسان هى أم من عمل الشيطان ؟ ومن بين هذه الصور صورة للعدراء وقد اشتمت بعلاء من المخرم (الدنتلا) تتصل حيناً بجسمها وتفصل عنه أحياناً كالوضع الطبيعى للجسم ، وكل هذا من قطعة واحدة من العاج صنعت مع سابقتها فى القرن الرابع عشر .

والآن نترك (الاسكوريال) الى روما ونشاهد كنيسة القديس بطرس ، ثم الى باريس ونزور كنيسة نوتردام . ثم الى لندره ونزور كنيسة القديس بولس . ثم نرجع الى ما وراء التاريخ العصرى ونزور (الاكروبول) فى أثينا . ثم نعود الى مصر ونذهب الى أبعد من ذلك كله : وبعد مشاهدتنا أهرام الجيزة نزور هيكل الكرنك فى الاقصر . ثم نتساءل هل هذا كله من عمل الملوك من بنى الانسان ؟ فى زمن هو أبعد الأزمان عن العلوم والفنون ، فى وقت ليس فيه شئ من هذه الاختراعات الحديثة التى سهلت الصعاب ، وقتحت من مختلف العلوم كل باب ، وجعلت هذه الطبيعة القوية فى يد الانسان يحركها كيف يشاء ؟ الجواب على كل حال ايجابى .

ثم اذا تساءلنا وهل في قدرة الملوك في هذا الوقت اقامة هيكل من هذه خصوصاً مع هذه الآلات الحديثة التي يعمل الانسان الواحد بها في لحظة ما كان يعملها ألف شخص في أيام؟ فالجواب على كل حال سلبى . واذا نحن بحثنا عن السبب عرفنا أن الأمم كانت مستعبدة لارادة أقيالها في الماضى البعيد ، ومسخرة لرغبات ملوكها ورؤسائها في الماضى القريب . حتى اذا قامت الثورة الفرنسية بعد منتصف القرن الثامن عشر ، وعلى أثرها انتشرت الحرية بين الأمم الأوربية ، ووقف الملوك في الدائرة التي رسمتها لهم دساتير بلادهم وسارت الأمم في حدودها الشرعية ، أصبح الملك يعمل لبلادهم ، والناس يعملون لأنفسهم وحدائنا ولبلائهم مجتمعين . واذا كانت الملوك قد فقدت في هذا الطريق أيدي رعاياها فقد كسبت قلوبهم ، وهذه الحال ولا شك من أجل نعم الله على الراعى والرعية .

للعبرة والتاريخ

مدريد هي عاصمة أسبانيا الآن والبيثة الوحيدة التي يعيش في جوها علماء الأسبان وتطلع في سمائه شمس عرفانهم وعلومهم وفنونهم . وهي مظهر مدنيتهن ومحلى حضارتهم التي لا شك أنها أثر مما تركه العرب في بلادهم : من علم جم ، وفن راق ، ومدنية صادقة ، وحضارة فائقة . ولقد كانت الفائدة منها تكون أغم ، والنفع بها أتم ، لو لم يكن في الاسبانيين ذلك التعصب الدينى الشنيع وبخاصة بعد أن وصلتهم بالعرب لحة النسب وامتزج دم الفاتحين بدم المغلوبين : فقد كانت فتوحاتهم

بالأندلس موجبة لوقوع كثير من أسيرات الأسبان في أيديهم مما كان موجبا لزواجهم منهن أو التمسرى بهن ، حيث كن في حكم الفاتحين ملك عيين . وهى شرعة من شرائع الحروب البائدة . وفى هذه الحالة كانوا يسمونهن « أمهات أولاد » ..

ولقد كثرت زواج ولاية الاندلس من العرب وأمرائهم بالاسبانيات . وأول من تزوج منهم عبد العزيز بن موسى بن نصير ، فقد تزوج بالسيدة ايلونا أرملة لذريق ملك القوط بعد أن مات أثر جروحه فى واقعة شريش التى تغلب عليه فيها طازق بن زياد . وتزوج الأمير محمد ابن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط باسبانية اسمها مارية ورزق منها بولده عبد الرحمن الناصر . وتزوج الحكم بن الناصر بالسيدة صبح البشكنسية ، وأعقب له هشاما المؤيد . وتزوج المنصور بن أبى عامر بنت سانكو ملك نافاريا ، وولدت له ابنة عبد الرحمن ، وكانوا يسمونه سانكو الصغير لميله الى ملاذه وجرأته على الدين فى سيرته الشخصية . وتزوج المأمون بن الناصر سلطان الموحدين اسبانية اسمها حباب وخلف منها ابنه الرشيد . وتزوج السلطان محمد بن أبى الحسن بن الأحمر بالسيدة ثريا الاسبانية وولدت له ابنة أبا عبد الله . وكانت أم عبيد الحق بن أبى سعيد سلطان بنى مرين اسبانية .

وقد فشا الزواج والتسرى بالاسبانيات من القوط وغيرهم بين الأمراء والرؤساء من العرب ، وكان لهذا العنصر الجميل شىء من التأثير فيهم لم تكن تظهر نتائجه الخبيثة إلا عند ضعف الدولة ، كما كان سبباً فى استكانة هشام المؤيد الى حاجبه بن أبى عامر تلك الاستكانة التى

ساعدت عليها في أول الأمر أمه ، فلما اختلفت مع المنصور بعد أن قويت شوكته وظهرت عبقريته وتوطدت دهائم سلطوته ، وقبض على مقاليد الحكم بيد من حديد ، أخذت تضرم في قلب ولدها النار التي ألقاها ، وتثير في نفسه شيئا من الحياة التي أماتها ، ولكنه كان في سن الأربعين : بحيث أصبح والجبن ملء جسمانه . لا يهتم بشيء من أعمال الدولة إلا ما كان يقوم بملاذه وشهواته !!!

وقد قضى في حياته على الدولة الأموية وبموته غفا أثرها ، وانحى وجودها ولا شك أن هذا أثر تلك التربية الأجنبية^(١) التي ظهرت في المؤيد بالقضاء على الأموية : كما ظهرت في عبد الرحمن بن أبي عامر بالقضاء على الدولة العمارية ، وفي الرشيد بن المأمون بضعف الموحدين ، وفي عبد الحق بن سعيد المريني ملك المغرب بضياغ الملك من بني مرين ، وفي أبي عبد الله بن الأحمر بالقضاء على حكم العرب في الأندلس .

ولم يقف الزواج أو التسرى بالاسبانيات عند الولاة والأمراء في الأندلس بل تعداهم إلى عامة العرب وقد ذكر أبناءهم منهم بالإضافة إلى أمهاتهم مما لم يكن في طبيعة العرب . فقالوا . ابن الرومية . وابن القوطية . وهكذا .

ويظهر أن هذا التلقيح الطبيعي قد أثر في طبيعة العرب ولا سيما البربر فرقق من أخلاقهم وقلل من حدتهم ، وكان فيهم سبباً للتسامح

(١) وقد بدأ ضعف الدولة الإسلامية الشرقية بالهزات الخلفاء الاجنبيات وتدخلهن في أعمال الدولة : فكانت أم المستعين العباسي صقلية ، وأم المهدي رومية ، وأم المعتز تركية ، وكانت كثيرة التدخل في أمور الخلافة مدة ولدها وكانت تجتمع بالوزراء والقواد في مجلسها وتصدر اليهم أوامرها من غير علم من ولدها . ومن هذا الوقت أخذت أمور الدولة في الضعف واستبد الاتراك بها .

الذى أحسنوا به عشرتهم مع من بقى في وسطهم من القوط وغيرهم سواء أسلموا أم بقوا على ديانتهم فتركوا لهم كنائسهم وبيعهم وحرّيتهم في مزاوله شرائعهم، هذا التسامح الذى أثر بسرعة في طباعهم بما جعلها مستعدة لهذا الرقى السريع الذى ظهرت به ثقافتهم في كل مرافق مدنيّتهم الجديدة . وانا إذا تركنا جانباً ذلك الأثر السياسى الذى أَرْضَعَهُ الأُمَمَاتُ الأسبانيات أبناءهن وخصوصاً في الطبقة العالية مما جرأ كثيراً منهم على التهاون في القواعد الدينية ، والعصية ، فانا نراهن من جهة أخرى قد أُرِنَ بلطافة أخلاقهن ، وجمال عشرتهن ، وليونة ملمسهن في نساء العرب اللواتى ظهر منهن كثرات في عالم الأدب ، وكان ظهورهن في أفق هذه البلاد من الأسباب التى جرت بالرجال الى ميادين العرفان في كل نوع من أنواع العلوم وخاصة الأدب الذى كان لهم فيه القدح المعلى ، حتى لقد كانت لهم في عواصم البلاد أندية كثيرة تجمع بين الجنسين لمذاكرة العلم والأدب والنظم من شعر وثر ، وهذا لعمري آية الآيات ، ونهاية البراهين على علو القوم في مدنيّتهم . ولا نزال نجد البرهان الوحيد على رقى الأم نبوغ الجنس اللطيف فيها . فان النساء خير موصل لحقائق الكون ودقائقه الى أبنائهن وهم في نعومة أظفارهم . فينشأون بمقول سليمة وأفئدة ذكية وبداهة فائقة . وهى الأسس التى ينبنى عليها مجد الأم وعظمتها .

ويحسن بنا هنا أن نذكر لك بعض من نبغن بالأندلس من الجنس اللطيف في عالم الأدب وتبريزهن في الشعر والنثر بحيث أصبحن في مقدمة أهله لطفاً وظرفاً وبدية ومثانة حتى تكون عندك فكرة مما كان عليه هذا الجنس اللطيف فيها .

فمنهن أم العلاء الحجازية وقد كانت شاعرة أدبية ومن قولها :

كل ما يصدر منكم حسن ويعلمياكم تحلى الزمن
تعطف العين على منظركم وبذكراكم تلذ الأذن
من يعيش دونكم في عمره فهو في نيل الأمانى يغبن
ومنهن أمة العزيز ومن قولها :

لحاظكم تبحرنا في الحشا ولحظنا يجرحكم في الخدود
جرح يجرح فاجعلوا إذا بدا فما الذى أوجب جرح الصدود
ومنهن أم الكرام بنت المعتصم بن صامح ملك المرية ويقال إنها
كانت تحب فتى من عامة الناس ومن قولها في ذلك :

يا معشر الناس ألا فاعجبوا مما جنته لوعة الحب
لولاه لم ينزل بيد الدجى من أفقه العلوى للترب
حسبي عن أهواه لو أنه فارقتى تابعه قلبي

ومنهن حفصة الركونية وقد كتبت الى عبد المؤمن بن علي سلطان
الموحدين وكان من عادتهم ان يبدؤوا كتابتهم بقولهم « الحمد لله وحده ».

يا سيد الناس يا من يؤمل الناس رفده
امنن على بطرس يكون للدهر عده
تحط عنك فيه الحمد لله وحده

ومن قولها في نفسها

عيونها الصريم فداء عيني وأجياذ الظباء فداء جيدي
أزين بالعقود وإن نحري لأزين للعقود من العقود
ولا أشكومن الأوصاب ثقلا وتشكو قامتي ثقل النهود

وبلغت هذه الآيات المقتنى أمير المؤمنين فقال أسألو أهل تصديق صفتها
قولها؟ فقالوا ما يكون أجل منها، فقال أسألو عن عفافها؟ فقالوا هي أعف
الناس، فأرسل اليها مالا جزيلا لتستعين به على صيانة جملها ورونق بهجتها:
ومنهن العبادية جارية المعتضد بن عباد وكان المعتضد يحبها وقد سهر
ليلة بجوارها وهي نائمة فقال .

تنام ومدنقها يسهر وتصبر عنه ولا يصبر
فأجابته بديهة بقولها :

لئن دام هذا وهذا له سيهلك وجداً ولا يشعر

ومنهن حمدونة ويلقبونها بخنساء المغرب ومن شعرها :

ولما أبى الواشون الا فراقنا وما لهم عندي وعندك من نار
وشنوا على أسماعنا كل غارة وقل حماتي عند ذاك وأنصاري
غزوتهم من مقلتيك وأدمعي ومن نفسى بالسيف والسيل والنار

ومنهن عائشة بنت أحمد القرطبية وكانت من عجائب زمانها وكانت
تحسن الخط وتكتب المصاحف ، ودخات على المظفر بن المنصور بن
أبي عامر وبين يديه ولده فارتجلت :

أراك الله فيه ما تريد ولا برحت معاليه تزيد
فقد دلت مخاليه على ما تؤمله وطالعه السعيد
تشوقت الجياد له وهز الـ حسام هوى وأشرفت البنود
وكيف يخيب شبل قد نغته الى المليا ضراغمة أسود
فسوف تراه بدرا في سماء من العليا كواكبه الجنود
فأنتم آل عامر خير آل زكا الأبناء منكم والحدود

وليدكم لدى رأى كشيخ وشيخكم لدى حرب وليد
ومنهن مريم بنت يعقوب الأنصارى ومن شعرها وقد كبرت :
وما يرتجى من بنت سبعين حجة وسبع كنسج العنكبوت المهمل
تدب ديب الطفل تسعى إلى العصا وتمشى بها مشى الأسير المكبل
ومنهن تزهون الغرناطية وكانت تقرأ على أبى بكر الخزومى الأعمى
فدخل عليهما أبو بكر الكندى فقال يخاطب الخزومى مستجيزا :
لو كنت تبصر من تجالسه —

فأخم وأطال الفكر وما وجد شيئا يميز به . فقالت تزهون :
لغدوت أخرس من خلاخله
البدر يطلع من أزرته والنصن يرح فى غلاله
ومنهن ولادة بنت الخليفة المستكفى حفيد الناصر الأموى ، قال
ابن بشكوال : كانت ولادة أديبة شاعرة جزلة القول حسنة الشعر ،
وكانت تناضل الشعراء ، وتساجل الأدباء ، وكانت فى نهاية من الأدب
والظرف إلى أن قال — وكان مجلسها فى قرطبة منتدى لأحرار المصر ،
وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر ، يمشو أهل الأدب الى ضوء غرتها ،
ويتهافت أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة عثرتها ، وعلى سهولة
حجابها ، وكثرة متابها ، تخط ذلك بعلو نصاب ، وكرم أنساب ، وطهارة
أثواب ، ولها مع ابن زيدون أخبار كثيرة (ومن قوله وقت فراقه إياها)

ودع الصبر محب ودعك ذائع من سره ما استودعك
يقرع السن على أن لم يكن زاد فى تلك الخطا إذ شيعك
يا أخوا البدر سناء وسنا حفظ الله زماننا أطلعك

ان يطل بعدك ليلي فلكم بت أشكو قصر الليل معك
 وكان منهم من تكتب للأمرء مثل لبني كاتبة الحكم بن عبد الرحمن،
 ومزينة كاتبة الأمير الناصر، وقد ذكر ابن فياض في تاريخه « انه كان
 بالربض الشرقي في قرطبة مائة وسبعون امرأة كلهن يكتبن المصاحف
 بالخط الكوفي » فكم كان إذن في كل أرباضها التي بلغت ٢٨ ربضاً ممن
 كان لهن مثل هذه الصفة من هذا الجنس اللطيف ؟
 هذا ما اقتصرنا عليه من ذكر أديبات الأندلس .

والآن نذكر لك بعض من نبغ من رجاله الذين لا يحصيهم العد .
 ففي علوم الدين ظهر كثيرون منهم : عبد الملك بن حبيب السلمي
 الذي توفي سنة ٢٣٨ بلغت مؤلفاته نحو ألف كتاب . ثم عيسى بن دينار
 فقيه الأندلس . ثم يحيى بن يحيى الليثي أكبر علمائه في مذهب مالك
 ثم منذر بن سعيد البلوطي قاضي القضاة بقرطبة توفي سنة ٣٣٥ . ثم أبو
 القاسم الشاطبي أمام القراء . ثم أبو بكر بن العربي . ثم ابن شبطون فقيه
 الأندلس . ثم بقى^(١) بن مخلد . وأبو الوليد الباجي . والوزير الفقيه أبو محمد
 علي بن حزم الذي بلغت تأليفه ٤٠٠ كتاب . وعثمان بن سعيد . والقاضي
 عياض . ومحيي الدين بن عربي الذي مات بالقاهرة . وأبو العباس المرسى
 الذي مات بالأسكندرية ، وابن مالك الجياني صاحب الألفية والذي
 هاجر في النصف الثاني من القرن السابع الى دمشق ومات بها سنة ٦٧٢ .
 أما من ظهوروا في عالم الأدب فيكادون لا يحصون عدداً . ويمكنك
 أن تطلع على بعضهم في قلائد العقيان وغيره من كتب الأدب والسير

(١) بقى (بالباء) بن مخلد بن يزيد حافظ الأندلس في عصر بني أمية

والطبقات والتاريخ كالأحاطة ونفع الطيب ، وإن كنت أرى أنهما إلى
الأدب أقرب منهما إلى التاريخ . وقد برز من هؤلاء كثيرون في مقدمتهم
الوزير لسان الدين بن الخطيب . وابن عبد ربه صاحب العقد الفريد . والفتح
ابن خاقان صاحب قلائد العقيان . والشريشي شارح المقامات . والمنصور
ابن أبي عامر . وابن خفاجة . وابن هانيء . وابن زيدون . وابن عمار .
والمظفر الأفطس ملك بطايوس الذي ألف كتاباً في الأدب في نحو
مائة مجلد . والوزير بن زمر . وابن سيده الذي ظهرت مواهبه في اللغة
وهو صاحب كتاب الخصاص . وغيرهم وغيرهم ممن تحلت الطروس
بسطورهم ، والنفس برائع كلماتهم وبديع آياتهم ، من شعر يأخذ بالألباب
ونثر يصل برقته إلى سويداء القلوب

وكان عبد المجيد بن عبدون يحفظ جملة من كتب الأدب ومنها
كتاب الأغاني . وكان الخلفاء والأمراء يقترحون على الناس حفظ الكتاب
الفلاني ويقدرون لذلك جائزة لها قيمة وكان هذا سبباً لشيوع الحفظ فيهم .
وكان الأمراء الأمويون أنفسهم في مقدمة رعيّتهم فضلاً وعلماء وأدبا
ومنهم من كان له قدم عالية في الشعر ، ومن قول الأمير عبد الله بن محمد
وهو غاية في الرقة وأظن أنه لم يسبقه غيره إلى هذا المعنى .

يا منهجة المشتاق ما أوجعك ويا أسير الحب ما أخشعك

ويا رسول العين من لحظها بالرد والتبليغ ما أسرعك

تذهب بالسر فتأتي به في مجلس يخفى على من معك

كم حاجة أنجزت إرادها تبارك الرحمن ما أطوعك

ومنهم كثيرون اشتغلوا بالعلوم الرياضية ، والفلكية ، والكيمياء ،

والنباتية ، والزراعية بما ظهرت نتائج القيمة في أواخر القرن الرابع الهجرى . وقد نبغ من هؤلاء كثيرون أفادوا كثيراً في رقى المدينة الإسلامية التي كانت مادة لشيء كثير من المدينة الاوربية الحالية . كابن الصفار^(١) . وابن السمع^(٢) وأبى القاسم مسلمة بن أحمد توفى سنة ٣٩٨ والكرمانى^(٣) ومحمد بن اسماعيل^(٤) وعبد الغافر بن محمد . وعبد الله بن محمد المعروف بالسرى . وعبد الرحمن بن اسماعيل بن بدر المعروف بإفليدس كان في أيام المنصور بن أبى عامر . وسعيد بن فتحون السرقطى . وابن شهر^(٥) وابن الليث^(٦) وعلى بن خلف بن أحمد . وابن الخياط^(٧) وأحمد بن جوشن . وموسى بن ميمون توفى سنة ٦٥٠ ، وابن البيطار المالقى . وابن مفرج^(٨) النباتى ، وأبو زكريا الأشبيلي . وابن باجة أبو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ القرناطى استوزره أبو بكر يحيى بن تاشفين مدة عشرين سنة وتوفى سنة ٥٣٣) وابن جابر ، وينسب اليه اختراع الجبر^(٩)

(١) أحمد بن عبد الله بن عمر (٢) أبو القاسم أصبغ بن محمد بن السمع توفى سنة ٤٢٦
(٣) عمر بن عبد الرحمن الفرطى توفى سنة ٤٥٨ (٤) المعروف بالحكيم توفى سنة ٣٣١
(٥) هو أبو الحسن مختار بن شهر الرعنى كان بصيراً باهندسة والنجوم متقدماً فى اللغة والحديث والتاريخ شاعراً أديباً (٦) محمد بن أحمد بن الليث توفى سنة ٤٠٥ (٧) أبو بكر يحيى بن أحمد أحد تلاميذ أبى القاسم مسلمة بن أحمد توفى بطليطلة سنة ٤٤٧ (٨) ابن مفرج النباتى (هو أبو العباس أحمد بن محمد ويعرف بابن الرومية من أهل أشبيلية ومن أعيان علمائها وأكابر فضلائها وصل سنة ٦١٣ الى ديار مصر وأقام بها وبالشام والعراق زمناً - ولما وصل من المغرب الى الاسكندرية سمع به السلطان الملك العادل أبو بكر بن أيوب وبلغه فضله فاستدعاه الى القاهرة وأكرمه وعرض عليه الاقامة عنده فأبى ولكن أقام لديه مدة ثم قصد الحجاز حاجاً وعاد الى المغرب فأقام بأشبيلية

(٩) (وبعضهم ينسب الى جابر بن حيان الطومى أمام المشرق فى علم الكيمياء الذى مات سنة ١٦٠ هـ)

ومن الذين اشتغلوا في الرياضيات عباس بن فرناس الذي اخترع آلة المتقال لمعرفة الزمن ورسم في بيته هيئة السماء بما فيها من النجوم والغيوم والبروق وهو أول من استنبط بالأندلس صناعة استخراج الزجاج من الحجارة وفكر في إمكان الطيران^(١) وكان قبله لا تتسع له غير خرافات اليونان ، فعمل له جناحين من ريش طار بهما مسافة في الهواء ولكنه لم يحسن الوقوع لعدم تفكيره في عمل الذيل الذي ينظم حركة النزول ويمنع السقوط المروع - فسقط سقطة كان فيها حتفه سنة ٧٥٥

أما الذين اشتغلوا بالمسائل الطبية ونبغوا فيها فكثيرون جداً . وقد

(١) ذاع أمر الطيران في الفرنجة فحذا حذو ابن فرناس دانت DANTE في أواخر القرن الخامس عشر ثم أوليفيه OLIVIER في القرن السادس عشر وعملهما أجنحة من الريش ولكن كان حظهما مثل حظ في سقوطهما وإصابتهما بمرض و كسور . وأتى من بعدهما كثيرون فكروا في الطيران بواسطة آلات مدار حركتها على قوة ساعدى الشخص الطائر ولكنها لم تنتج نتيجة صالحة . وفي سنة ١٨٩٣ اخترع الألماني للباتال آلة طار بها يضع مئات من الأمتار وانتهت تجاربه بموته سنة ١٨٩٦ . وفي نهاية القرن التاسع عشر وصل العالم الرياضى لانجلي الأمريكانى الى اختراع طائرة من الالومنيوم يحركها جهاز خفيف فطارت تسعائة متر بسرعة ١١ مترا في الثانية . ثم وصل تانان ورشيه الى اختراع طائرة صغيرة وزنها ٣٣ كيلو جرام فكانت تطير بسرعة ١٨ مترا في الثانية .

ومن ثم اخذ هذا الاختراع العجيب يزيد في صلاحته حتى وصل الى ما نراه الآن من نقل الركاب بين انكارتا وفرنسا وبين هذه وبلاد المغرب ونقل البريد بين مصر وبغداد بطريقة منتظمة ثم في قطع المسافات الشاسعة بين أوروبا وأمريكا وبينها وبين مصر واخذت واستراليا . ولا بد أن يأتى يوم تكون فيه حركة الطائرات في الهواء كحركة العربات على وجه الأرض . وقد صنع الألمان أخيراً منطادا كبيرا اسمه (جراف زبلن) تزيد مساحته عن مائة ألف قدم مكعب وقد جهز بخمس محركات قوة كل واحد منها ٥٥٠ حصانا وقطع المسافة بين ألمانيا ونيويورك ببضائع كثيرة وبثلاثين راكبا بسرعة ١٣٥ كيلو متر في الساعة .

والآن يعمل الانكيزر بالونا يسع اكثر من مائة راكب اسمه (ر ١٠٠) طوله ٧٢٤ قدما وبه قاعات لنوم المسافرين وفيه قاعة تسع خمسين نفسا يجلسون فيها للطعام ولتضية الوقت فيما يسلمهم في سفرهم من قراءة وغيرها وهو يقطع ١٨٠ ميلا في الساعة

وصل الطب في الأندلس إلى درجة لم يصل إليها في الشرق ولا في الغرب نذكر منهم : ابن الجزار ^(١) ، واسحاق بن سليمان توفي سنة ٣٢٠ وابن خلدون ^(٢) (غير المؤرخ) ، وابن غلندو ^(٣) والحرائي ^(٤) وإسحاق ^(٥) ابن عمران ، ومحمد بن قنح ، واحمد بن يونس ، ^(٦) واسحاق ^(٧) الطيب ، ويحيى ^(٨) بن اسحاق ، وابن جاجل ^(٩) وابن باجه ، وبني زهر ، وابن رشد وابن حفصون ^(١٠) وابن المدور ، والزهرى ^(١١) وابن خاتمة الطيب وقد ألف كتابا في الوباء ذهب فيه إلى وجود الجراثيم (الميكروبات) وتأثيرها في العدوى وقد سبق في العثور عليها باستور العالم الفرنسى الذى مات سنة ١٨٩٥ م

(١) هو أحمد بن ابراهيم من أهل القيروان وهو من لى اسحق بن سليمان وصحبه وأخذ عنه
(٢) هو أبو مسلم عمر بن أحمد بن خلدون المصرى من أشراف أهل أشبيلية توفي سنة ٤٤٩

(٣) أبو الحكم بن غلندو الطيب ولد بأشبيلية ونشأ بها وكان أديبا شاعرا توفي بمراكش حوالي سنة ٥٩٠

(٤) يونس الحرائي هذا ورد من المشرق وكان في أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن الأموى واشتهر بقرطبة

(٥) كان بغدادى الأصل ودخل أفريقية في دولة زيادة الله بن الأغلب التميمي
(٦) رحل الى المشرق في دولة الناصر سنة ٣٣٠ وأقام به زمانا لدراسة الطب ثم انصرف الى الأندلس في دولة المستنصر بالله سنة ٣٥١ فأسكنه مدينة الزهراء واستخلصه لنفسه

(٧) والد الوزير ابن اسحق وهو مسيحى النحلة وكان مقما بقرطبة في أيام الأمير عبد الله الأموى

(٨) كان في صدر دولة عبد الرحمن الناصر لدين الله واستوزره وولى الولايات والعمالات

(٩) سليمان بن حسان كان في أيام هشام المؤيد بالله وتوفى مدة المستنصر

(١٠) ابن حفصون (أحمد بن حكم) كان طبيبا فيلسوفا حاذقا اتصل بالحكم المستنصر بالله وتوفى في مدته

(١١) له الزهراوى وهو أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوى المتوفى سنة ٥٠٠ كان أشهر أطباء زمانه وهو أول من ألف في فن الولادة ورسم في كتابه آلات الجراحة (الزهرى) أيضا هو الفقيه الطيب أبو بكر بن أبى الحسن الزهرى الاشبيلي وخدم بالطب للسيد أبى على بن عبد المؤمن صاحب أشبيلية وهو في أيام المستنصر

ومن الذين نبغوا في الجغرافية ولهم مؤلفات فيها: الادريسي
والبكري صاحب المعجم ، وابن جبير ، والحجازي صاحب المسهب . أما
الذين ظهروا في التاريخ فهم كثيرون منهم ابن خلدون (أصله من أشبيلية)
وابن حيان ، وابن بشكوال ، وابن سعيد ، وابن الخطيب

ولم يظهر الذين نبغوا في الفلسفة إلا في أواخر القرن الرابع لأن
الناس (وخاصة أهل الأندلس) كانوا إلى منتصف هذا القرن يهتمونهم
بالتدقة بل بالكفر .^(١) ويتناولون عليهم بكل أنواع الأذى بما كان
يضطرمهم إلى الاختفاء وانكار الاشتغال بها ، وكثيراً ما كان الخلفاء من
المرابطين والموحدين يتألونهم بالأذى تقريباً للعامة ، ومن ذلك أن المنصور
يعقوب ملك الموحدين مع علو كعبه في العلوم والآداب سجن ابن رشد
لنسبة بعض كتب الفلسفة إليه على الرغم من إنكاره لها ، وكانت الفلسفة
سبباً في فرار ابن هاني الشاعر من أشبيلية خوف إيقاع الناس به ،
والذين ظهر منهم في سماء النبوغ فيها ، ابن رشد ، وابن الطفيل ، والوقشي
وابن الصائغ المعروف بابن باجه ، وابن حيان والمقتدر بن هود صاحب
سر قسطة .

وقد برز في علم الموسيقى ابن فتحون ، وابن باجه ، ويحيى الخديج ،
ولهم فيها مؤلفات كانت أصلاً لترتيب النغمات الأفرنكية وتقييدها في
مذكرتها الحاضرة (نوتها)

(١) ومن ذلك قيامه الأزهر على السيد جمال الدين الأفغاني عند حضوره إلى مصر في النصف
ثاني من القرن المنصرم وتدريبه به أصول المنطق والفلسفة ، فأنهم رموه بالتدقة وقصدوه
أنواع الإهانة بما اضطروا معه إلى ترك الأزهر والافتقار على التدريس في بيته لمن أراد من
تلاميذه الذين كان منهم قادة الإصلاح الفكري والسياسي في القصر ، ومنهم الامام الشيخ محمد عبده

ومما مر ذكره ترى ان الذى كان ينبغ منهم فى مادة لا يمنع نبوغه فيها
تبريزه فى مادة أو مواد أخرى كابن رشد مثلاً فانه كان عالماً دينياً وأديباً
وشاعراً وطبيباً وكاتباً وفيلسوفاً ، وكذلك ابن باجه فانه كان مع هذا
كله موسيقياً .

ولولا التطويل الذى لا تتسع له هذه الكلمة لأكثرنا لك من
هذه الأمثلة التى تحجل أمامها هؤلاء الذين يدعون جلال العلم من غير
ماعلم ، وقد أصبح هذا من علل الشرق بعد أن كان فيه من علمائه من
ينحنى رأس التاريخ أمام أسمائهم اعظاماً واكباراً

وبالجملة لقد أنجبت الأندلس من رجال العلم ^(١) من لا يقولون فى
كفائتهم وعلومهم عن أنجبهم الشرق الاسلامى ممن قامت بتأليفهم
هياكل المدنية فى كل علم من العلوم المختلفة . وقد كانوا يفاضلون بين ابن
رشد والطوسى ، وبين ابن زهر وابن سينا ، وبين ابن فرناس والفارابى
وبين يحيى الخلدج وأبى الفرج الأصبهائى ، وبين ابن هانئ والمتنبى ، وبين
ابن زيدون والبحترى ، وبين ابن عبدون والأصمعى ، وبين ابن ضمضم
والخوارزمى ، وبين أبى مروان البصير والمعرى ، لوجود الشبه بين كل
فى كثرة علومهم وعرفانهم ، وفى معارفهم الخاصة التى برزوا فيها ، وكانوا
يفاضلون بين عبدالرحمن الداخل والمنصور العباسى ، وبين الناصر والرشد
وبين الحكم بن الناصر والمأمون العباسى لكثرة الشبه بينهم فى سياستهم ،
وبعد نظرهم ، وكما لرياستهم ، وغزارة معارفهم ، كما كانوا يفاضلون بين

(١) لابن الفرضى كتاب لتاريخ علماء الاندلس الى آخر القرن الرابع فى مجلة مجلدات نشر
الاستاذ كوديرا منها الجزأين السابع والثامن فى مدريد سنة ١٨٩٢ .

قرطبة وبغداد، وبين اشبيلية وحمص، وبين غرناطة ودمشق، لكثرة الشبه بينها في ضخامة البنيان وواسع العمران وكثرة الزروع والأنهار، ورواج أسواق العلوم والآداب

الرسالة الثالثة

من مدريد إلى قرطبة

يسير القطار بين هاتين المدينتين في مسافة طولها ٤٤٠ كيلو متر يقطعها في عشر ساعات في صحراء (تقريباً) كالتي بين مدريد وسان سباستيان . وترى على القطار لوحاً مكتوباً عليه (الأندلس) يعنى انه يتجه إلى جهة الجنوب، وهو أشبه شيء بقطر الفروع الصغيرة عندنا قبل أن يدخل عليها الاصلاح، ومن ذلك تعرف أن السفر إلى هذه الجهة ليس فيه أى ضمان لراحة الركاب وليست فيه بطبيعة الحال عربات للنوم ولا للأكل . وكنا كلما سرنا إلى الجنوب رأينا الأراضى الزراعية تكثر في هذا الوادى كما تكثر الأبنية التى هى أشبه شيء بالساكن والقرى الصغيرة . وبعض هذه الأبنية باللبن النىء . وكذلك تكثر حول المباني الآبار وعليها دلاؤها بشكائها المعروف وقد ترى بعض السواقى المعينة تدور بحصان وعصاميرها (قواديسها) من الزنك ومن حولها بعض مزارع الخضر . وقد ترى بجوار القرى أثن الآجر (قائن الطوب الأحمر) المحروق بالفحم . ولشدة الحرارة في هذه الجهات ترى في كل محطة من محطات الأندلس بعض الرجال أو البنات أو الصبيان يحملون قلا وينادون

(اغوا . اغوا) وهم أشبه شيء بتلك الصبية التي تراها في بعض المحطات عندنا مدة الصيف وهم يصرخون (ماياه) أو ماتراه في صحراء الحجاز من العرب الذين يحملون القرب الصغيرة وهم ينادون (الما الما) وفي الساعة السابعة مساء وصلنا إلى قرطبة .

قرطبة

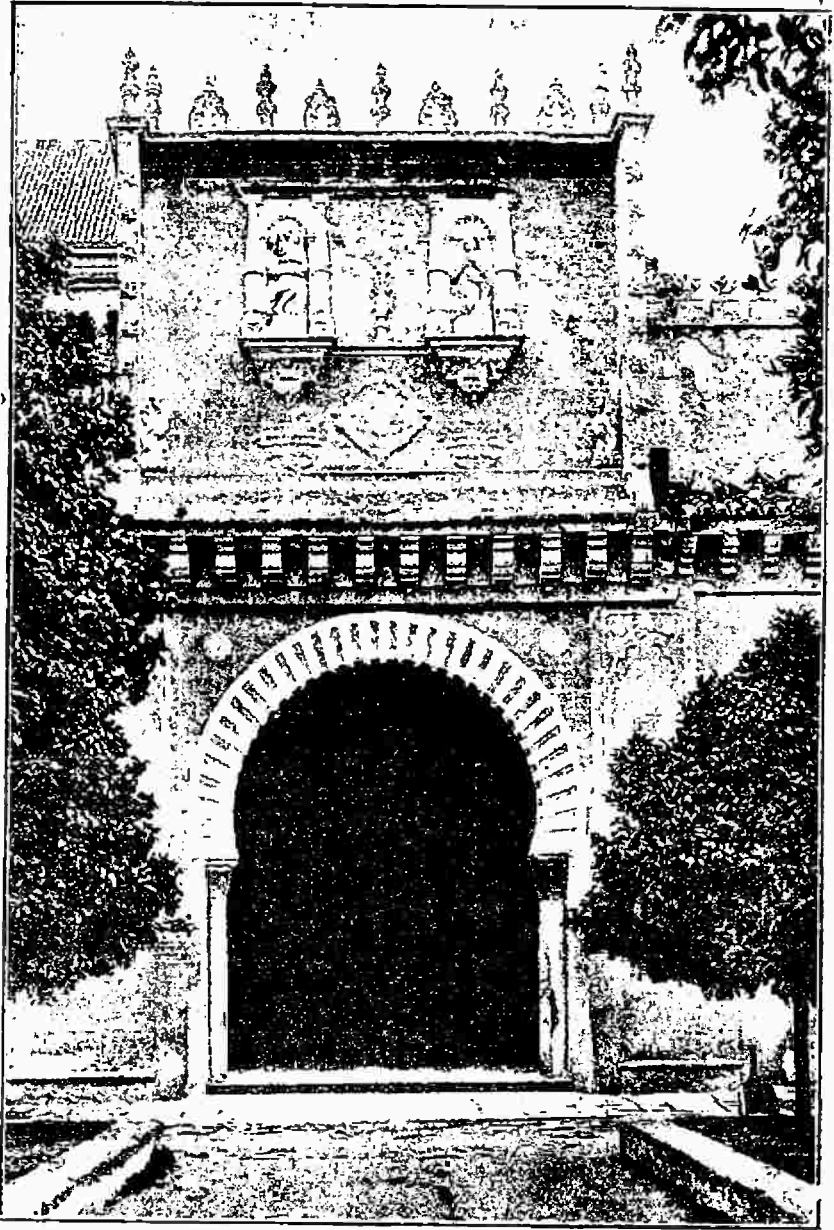
كانت قرطبة قبل العرب عاصمة الأندلس مدة القوط . فلما لحق موسى ابن نصير بمولاه طارق بن زياد بعد الفتح أقام بها ودعا فيها للوليد بن عبد الملك الخليفة بدمشق . وما زالت حتى استولى عليها عبد الرحمن الداخل الأموي في مبدأ الخلافة العباسية بالمشرق وجعلها عاصمة ملكه وأصبحت منذ زمن عبد الرحمن الناصر مقر الخلافة العربية بإسبانيا . وكانت مدة الأمويين على أكبر ما تكون من العظمة ، وكان قصر الخلافة في مبدأ أمره جنوبي المسجد الجامع الذي بناه عبد الرحمن الداخل ، وهو باق إلى الآن في مكانه لا في روايته ونظامته . وهو مقر البطريرك الكاثوليكي في هذه الجهة . وقد بنى الخلفاء الأمويون قصور الزهراء خارج المدينة وكانت أشبه شيء (بفرساي) بجوار باريس لكل خليفة منهم زيادة فيها إلا أن تعسف المرابطين وأيدى السلب من جهة ويد الغاصب وحدة التعصب الديني في محو كل أثر للمسلمين بعد استيلائهم على المدينة من جهة أخرى ، وكونها كانت بعيدة عن حصون قرطبة وقد تحصن فيها المسلمون إذا هجموا على قرطبة من جهة ثالثة ، كل ذلك قضى على هذه القصور التي وصلت من فخامة الملك وأبهة الخلافة العربية إلى ما لم يصل

إليه شيء في بابها . وقد كانت تبلغ في طولها ثلاثين كيلو مترا برياضها ورياضها مما وصفه مؤرخو العرب بما لم تبلغه قصور الخلافة الشرقية في دمشق وبغداد .

وقد بلغت هذه المدينة من العظمة ما سبقت به بغداد في ثروتها وحضارتها وعلومها وفنونها ولم يبق لنا من آثارها غير تلك الذكرى المؤلمة وذلك الجامع البديع الذي لا يبلغ تخالفيه شيء آخر في بابها .

المسجد الجامع بقرطبة

دخلنا المسجد من باب المنارة وهو باب العمومي الكبير النحاسي ويبلغ طوله نحو ثمانية أمتار وارتفاعه نحو عشرين متراً . ووجهة البناء من الرخام المنقوش بنقوش عربية عجيبة أشبه شيء بالخزم (الدتلا) . وفي وسطها وأعلاها كتابة عربية لم أستطع قراءتها . ويتكون هذا الباب من ظاهره من قطع نحاسية طولها ١٥ سنتيمتراً في عرض نصفها تقريباً . وهي مثمثة الشكل بعضها عمودي على الآخر . وقد رسم القوم في وسط القطعة القاعدة صليباً بعد استيلائهم على المدينة وتحويلهم المسجد إلى كنيسة . والمنارة في الزاوية القبليّة الجنوبيّة من المسجد وهي مربعة الشكل وطول كل ضلع منها ١٢ متراً وارتفاعها ٩٣ متراً وهي خمس طبقات في كل طبقة عدد كبير من الأجراس . وقد استوجب هذا التغيير الجديد بعض تغيير في نظامها القديم ومن دون باب المنارة صحن المسجد وهو فناء واسع ، في وسطه إلى الآن ثلاث برك واحدة في الوسط وهي الكبرى واثنان صغيرتان واحدة عن يمينها ، وأخرى عن يسارها ،



أحد أبواب مسجد قرطبة

وكانت ثلاثتها للوضوء . ومن دون الصحن المسجد .

وقد كان مكان هذا المسجد كنيسة فأراد عبد الرحمن الداخل أن يبنى مكانها مسجداً لحسن موقعها ، فعوض النصارى عنها أرضاً واسعة وأموالاً جمة (وذلك بشهادة مؤرخى الافرنج) . ثم بنى مكانها مسجده هذا على نظام المسجد النبوى الذى بناه الوليد بن عبد الملك بالمدينة المنورة (وهذا ما تدلنى عليه مشاهدتى الشخصية) .

وقد وصل خلط بعض الناس فى أفكارهم وأقوالهم الى الحد الذى لا يتفق مع الحقائق البديهية ، فان بعضهم نسب إلى عبد الرحمن الداخل أنه إنما بنى مسجده بقرطبة بهذه الفخامة حتى يستغنى الناس بحجهم اليه عن حجهم الى الكعبة المكرمة بمكة . وهذه تهمة أقل ما فيها أن الرجل بعمله هذا يهيم ركناً من أركان الإسلام الخمسة وحاشا لله أن يهيم مثله بذلك فما علمنا عليه من سوء

ولو علمت أنهم ذكروا أن مالكا رضى الله عنه سأل بعض حجاج الأندلس عن عبد الرحمن الداخل فقالوا له « يأكل الشعير ويلبس الصوف ويجاهد فى سبيل الله فقال ليت عندنا فى حرم الله مثله » . وكانت هذه القولة سبب محنة مالك من العباسيين لعرفت أن مثل عبد الرحمن الداخل لا يأتى بما اتهم به هؤلاء الذين لا يعون ما يقولون :

وقد اتهموا فى ذلك الوقت وبهذه التهمة نفسها المنصور العباسى حينما بنى القبة الخضراء ببغداد .

وقد كان المنصور وعبد الرحمن الداخل فى زمن واحد ، وهما تهمتان كاذبتان لا تنطبقان على صفتى هذين الرجلين العظيمين اللذين إنما كانا

يستمدان سلطانهما من قوة الاسلام ومن شرائع الاسلام فى وقت كان منار الاسلام فيه أصله ثابت فى الأرض وفرعه فى السماء وفيه كان أمراء المسلمين وخلفاؤهم يأتون الى مكة سعيًا على الأقدام من بلادهم لحج بيت الله تقربا اليه وزلفى .

وقد زاد فى المسجد الحرام بن الداخل والخلفاء من بعده . ولكن الزيادة الكبرى التى بنيت فى الجهة الشمالية بناها المنصور بن أبى عامر الذى توفى سنة ٣٩٣ وزير الخليفة هشام المؤيد . وهذه الزيادة تبلغ ثلثي المسجد الأصيل وتتميز عنه بأن ميول خطوط أعمدتها تتجه من الجنوب الغربى الى الشمال الشرقى . أما ميول أعمدة المسجد الأصيل فتتجه من الشمال الغربى الى الجنوب الشرقى . وعلى كل حال ان الذى ينظر الى الأصل والزيادة يرى الفارق بينهما عظيما : لأن الأصل بنى على نظام واف وفيه من الأعمال الفنية ما يقف أمامه الإنسان مبهورا معجبا ولا سيما أعمال القبلة والمحراب والمقصورة التى كانت من المسجد الأصيل مكان مقصورة الرسول صلى الله عليه وسلم من مسجده . ولا بد أنها كانت مكان صلاة الخلفاء لأن بابها تجاه الباب الذى كان يدخل منه الخليفة الى المسجد قبالة باب القصر ، وهى بناء مربع مرتفع مزين بنقوش جصية بديعة جدا وعليها كتابات قرآنية وأحاديث نبوية ، وقد وشيت من داخلها بالأدهنة الذهبية ولها فتحات على المسجد . وقد كان القسوس بنوا حولها حائطا تحجبها عن الأنظار بعد أخذهم المدينة ولكنهم فطنوا الى هذه الأغلاط التى ارتكبوها فجنوا بها على التاريخ وهم الآن يزيلونها ويرجعونها الى أصلها .



منارة مسجد قرطبة وقد وضعوا فيها النواويس بعد تحويله إلى كنيسة

أما القبلة فهي شيء لا يصل اليه وصف الواصف ولا مبالغة الناعت :
ويحيط بها الآن (درازين) من الحديد لمنع الناس عنها . وقد قدرتها
بسبعة أمتار طولاً في ١٢ متراً ارتفاعاً ، وفي وسطها المحراب ، وكل هذه
الوجهة صنعت من الفسيفساء ^(١) الصغيرة جداً والدقيقة في صناعتها :
فهي من قطع رخامية من ألوان كثيرة يدخلها قطع صدفية وزهية . وقد
صيفت بشكل ينشأ عنه صورة فذة في بابها : اذا نظرت اليها من جهة
اليمين رأيت مناظر غير التي تراها من جهة الشمال وذلك بسبب انعكاس
الضوء فيها بحال تستهوي الأبواب وتسلب العقول بجلال هذه الصناعة
العربية . وفي دائرة القبلة والمحراب كتابات كوفية قرآنية كثيرة مما تراه
عادة على أمثالها . وعن عین القبلة ويسارها بابان لغرفتين صغيرتين
أحدهما لتعبد الامام والثانية لوضع لوازم المنبر الذي لا يوجد له الآن أثر .
والمحراب واسع من داخله وتعلوه قطعة واحدة من الرخام المقعر تكون
سقفه وكانوا يضعون فيه المصحف العثماني الكريم ^(٢) حتى اذا ما استولى

(١) أصلها كلمة يونانية فيسيفسيس PSEPHOSIS وأصل كلمة موازيك MOSAIQUE

أصلها عربي « مزوق » فاستعمل العرب الاولى واستعمل الافرنج الثانية .

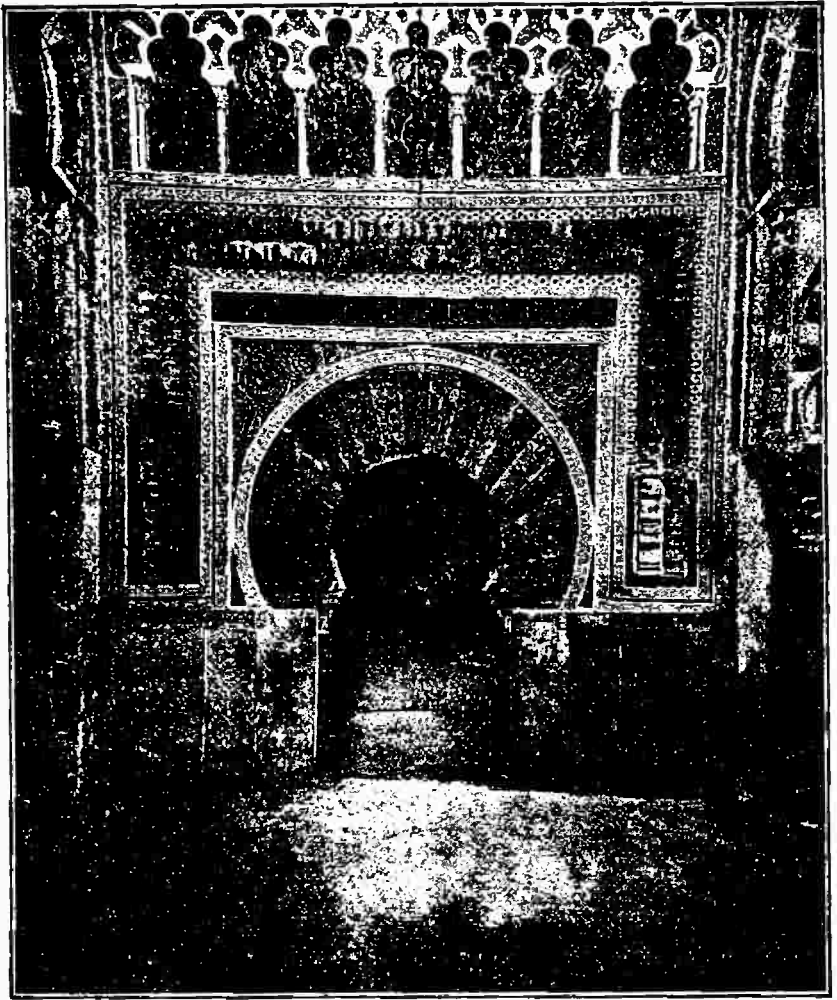
(٢) خلط الناس كثيراً في نسبة بعض المصاحف الى عثمان رضي الله عنه . وادعى بعضهم أن المصحف الذي في جهته هو مصحف عثمان وأضاف الى هذه الدعوى دعوى أخرى وهي أنه هو الذي على بعض صفحاته دم هذا الشهيد : فن يتكلم عن مصحف قرطبة يقول أنه هو الذي كان يتلو فيه عثمان وقت أن قتل التاترون . والذي بالشام يدعى هذه الدعوى والذي بالاستانة أو العراق لا تقل دعواه عن ذلك . ولا نعدم مصر من يقول بهذا القول . والحاصل أن عثمان رضي الله عنه لما جمع القرآن كتب منه ستة مصاحف (أو عشرة) وأرسلها الى الجهات الاسلامية فكتبوا منها كثيراً من المصاحف التي أذاعوها في بلادهم وهذه كتب عنها غيرها وهكذا : ويمكن أن تحب كل مصحف منها مصحفاً لثمان : لا أنه نفسه المصحف الذي كان يقرأ فيه وقت أن اعتدت عليه تلك اليد الاثيمة وسال دمه على صفحاته في سنة ٣٥ هـ ، ولا أنه هو المصحف الذي أرسل به الى بعض الجهات ، على أنه لا يقل أن ينتقل مصحف عثمان الأصلي من المدينة الى الاندلس لبعد الشقة وعدم تيسر الطريق لنقله : لان مصر في مدة الامويين بالمغرب كانت تابعة للخليفة

الموحدون على الأندلس نقله عبد المؤمن بن علي الى مراكش في سنة ٥٥٢ هـ واحتفل بدخوله الى المغرب أياما احتفال .

وما زال هذا المصحف الشريف بخزائن ملوك المغرب في مركز إجلال وإعظام وكانوا يستصحبونه في غزواتهم حتى ذهب أبو الحسن المريني ملك فاس الى افريقية (تونس) . وبينما كان عائدا في سنة ٧٥٠ هـ من طريق البحر غرقت مراكبه ومن جملة ما غرق فيها هذا المصحف الشريف وهذا آخر العهد به .

وقد كان القوم أيضا أقاموا على القبلة حائطا ليحجبوها عن أنظار الناس الى أن أزيلت في القرن الثامن عشر . وطول المسجد من الشمال الى الجنوب ١٧٥ متر ومن الشرق الى الغرب ١٣٤ متر وارتفاعه يصل الى ٢٠ مترا . وقد كان بالمسجد ١٢٩٣ عمود كلها من الرخام وتيجانها منقوشة بنقوش مختلفة وكانت قبته قائمة على ٣٦٥ عمود من المرمر ، ولما أراد القوم بناء كنيستهم من داخله أزالوا القبلة وأزالوا معها ١٦٣ عمود من وسط الجامع وأزالوا ما كان عليها من الخنايا وبنوا فيها كنيستهم التي تراها الآن وسط المسجد الى جهة الشمال الغربي وامتدادها من الشمال الى الجنوب . وهي منه كالنقطة السوداء في وجه الحساء لا أدري أتجملها أم تخملها . وقد كانوا أزالوا بعض سقف المسجد الجميل المنقوش بالأطلية

العباسي ، ولا يعقل أن كتابا عظيما كهذا يقول بعضهم عنه إن نقله بنوء بحمله رجلان يخرج من مصر التي هي الطريق الوحيد الى الاندلس ولا يعلم به عاملها الذي لم يكن يسمح بخروج أثر كريم مثل هذا من بلاده ، على أنه لا يبعد أن بعض تجار الكتب يستنسخ مصحفا كبيرا ويلون بعض صفحاته بدم وببويه بهذه الدعوى الفاسدة إكبارا له حتى يضاعف له في غته كما يفعل تجار الآثار في هذا العصر .



قبلة المسجد الجامع بقرطبة وهي آية الآيات في الصناعة العربية

الجميلة والليقة الذهبية. ولا يزال موجوداً منه جزء عظيم جهة القبلة. ووضعوا بدله حنايا أقاموا عليها عقود كنيستهم. وقد عولوا الآن على رفعها وإعادة باقى السقف الى ما كان عليه مع إزالة جميع المصليات الصغيرة التى أقاموها فى محيط المسجد . وهم الآن يزيلون البناء الذى كان يحجب الأبواب الخارجية ، وقد ظهرت منها ثلاثة أبواب مما يقابل القصر وهى غاية فى كمال نقشها ونخامة منظرها . وكان بالمسجد مصابيح من الفضة الخالصة بقى الى أوائل القرن الثامن عشر منها أربع مائة مصباح أخذها الفرنسيون عند دخولهم قرطبة فى زمن نابليون الأول .

وقد رأيت بين أعمدة الجامع عموداً الى الغرب يكاد يكون بين المسجد الأصلى وزيادة ابن أبى عامر . وقد حفرت فى جانبه الخلقى صورة صغيرة للمسيح مصلوباً . ومن دونها فى الحائط مثال رأس انسان وضعه القسوس ويقولون إنه مثال هذا الرجل الذى رسم تلك الصورة بظفره وكان ينافق بإظهار إسلامه . وقد خطر ببالى أن هذا وأمثاله كانوا من أسباب هزائم المسلمين فى حروبهم مع القوط وغيرهم ، لأنهم كانوا يرشدون العدو الى مواضع الضعف فيهم (١)

(١) وبمسبك الحكاية الآتية برهاناً على ذلك :

قال القرئى : قال ابن جيان « انه كان جالسا مع المنصور بن أبى عامر فى بعض الليالى ، وكانت شديدة البرد والريح والمطر . فدعا بأحد الفرسان وقال له انهض الآن الى فنج طالس وأقم فيه ، فأول خاطر يخطر عليك سه الى . قال فهض الفارس وبقى فى الفنج فى البرد والريح والمطر واقفا على فرسه ، اذ وقف عليه قرب الفجر شيخ هرم على حمار له ومعه آلة الخطب . فقال له الفارس الى اين تريد يا شيخ ؟ فقال ورام خطب . فقال الفارس فى نفسه هذا شيخ مسكين نهض الى الجبل يريد خطبا فاعسى ان يريد المنصور منه ؟ ؟ قال فتركته فسار عني قليلا ثم فكرت فى قول المنصور وخفت سطوته فهضت الى الشيخ وقلت له ارجع الى مولانا المنصور . فقال له وماذا عسى أن يريد المنصور من شيخ مثلى ؟ سألتك بالله ان تتركنى اذهب لطلب معيشتى . فقال له الفارس لا

وإذا ذهبنا الى أبعد من هذا وجدنا أمثال هذا الرجل سبب مصائب الإسلام حتى في صدره الأول : لأن اليهود الذين أسلموا ولم يحسن إسلامهم كانوا من المنافقين الذين كانوا أشراً على الإسلام من أعدائه . وقد حاربوا الإسلام بمادة الإسلام وهو في قوته : فأخذوا يبتدعون الأحاديث المكذوبة ويتقولون على النبي ما لم يقله حتى اختلط الصحيح بالفساد ، وما زال الامر كذلك حتى قام رجال الدين في العصر الثاني^(١) وطهروا الأحاديث من الدخيل والموضوع وأباتوا صحيحها من ضعيفها بالسند الصحيح الذي لم تحم حوله أية شبهة . ثم انظر الى من لم يحسن إسلامهم من الفرس ثم حاربوا الدين بمادة الدين من جهة أخرى فابتدعوا التشيع ، وغالوا في بعض مذاهبه حتى أخرجوها عن الإسلامية . ثم حكموا أهواءهم في فهم أصول العقائد وغالوا في ذلك حتى أخرجوا به الدين عن جوهره . وإذا تركنا الدين الى جانب ونظرنا في أعمال هؤلاء الدخلاء السياسيين في الدولة العثمانية مثلاً ، وليس عهداً بعيد ، نرى أن هؤلاء الذين كانوا من دم صرني أو بلغاري أو روسي أو رومي وبيعوا في الاستانة ممالك وأسلموا

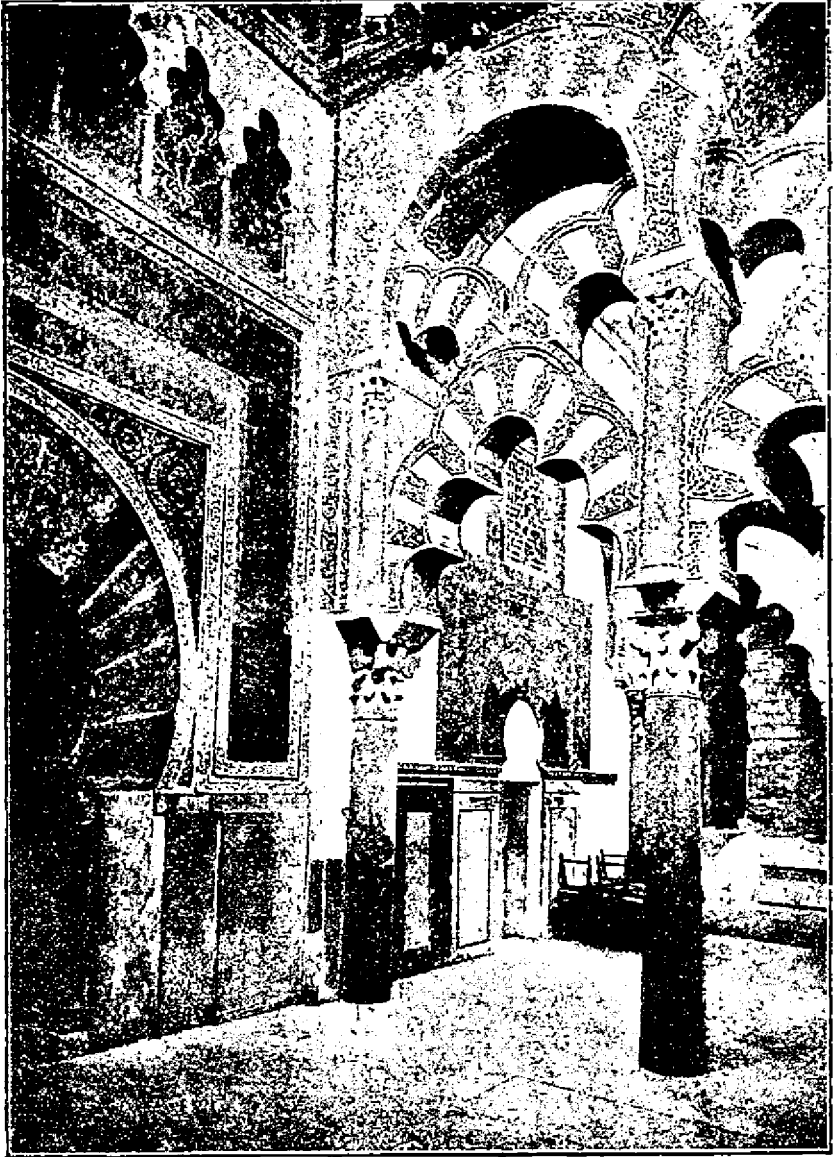
أصل . ثم قدم به على المنصور ، ومثل بين يديه وهو جالس لم يتم ليته تلك . فقال المنصور للصقالبه فنشوه . ففتشوه فلم يجدوا معه شيئاً . فقال فتشوا برذعة حمارة . فوجدوا داخلها كتاباً من نصارى كانوا قد نزعوا الى المنصور يخدمون عنده الى أصحابهم من النصارى ليضربوا ويقتلوا في احدى التواحي المستوطنة فلما ابلج الصبح أمر باخراج أولئك النصارى فضربت أعناقهم وضربت عنق الشيخ معهم . ؟

(١) أول من دون الحديث الامام مالك المتوفى سنة ١٧١ هـ في موطة باقتراح وإرشاد الخليفة المنصور . وقيل ابن جريج المتوفى سنة ١٥٠ هـ . ثم توالى بعد ذلك المجموعات الشهيرة بالكتب السنة الصحيحة وهي : مجموعة البخاري التي جمع فيها ٩٢٠٠ حديث وكان يحفظ مائة ألف حديث صحيحة ومائتي ألف غير صحيحة وتوفى سنة ٢٥٦ هـ . ومجموعة مسلم المتوفى سنة ٢٦١ هـ . ومجموعة ابى داود المتوفى سنة ٢٧٥ هـ . ومجموعة ابن ماجه المتوفى سنة ٢٨٢ هـ . ومجموعة النسائي المتوفى سنة ٣٢٣ هـ . ومجموعة الدارقطني المتوفى سنة ٣٨٥ هـ . واليهم ينتهي أمر الاجتهاد في الحديث .

وتربوا في حضانة كبار القوم حتى وصلوا الى مكانة عالية وأصبح منهم الوزراء والرؤساء والقواد يميلون بطبيعتهم الى خدمة جنسيتهم الأولى . وقد تسمم لهم دولهم الأصلية لمساعدتها ضد هذه الدولة التي نشأوا في عزتها وكانوا لا يزالون يعيشون في نعمتها : هؤلاء كانوا سبب هزائم الدولة في كثير من حروبها وكانوا علة فساد سياستها وضعف ثروتها ، حتى كاد يتلاشى أمرها لولا أن أسعفها الله بالكاملين أعانهم الله على ما فيه خير بلادهم .

ولو عرفنا أنه قد كان بقرطبة غير هذا المسجد الجامع العظيم ما يقرب من ألفي مسجد ، وعرفنا أن المساجد كانت ولا تزال في الدول الإسلامية تستعمل مدارس للعلوم المختلفة كما هو الشأن الى الآن في الحرمين الشريفين بمكة والمدينة والأزهر بمصر والمسجد الجامع ببغداد والمسجد الأموي بدمشق وجامع الزيتون بتونس ومسجد الكتبية بمراكش وجامعي السلطان أحمد والسلطان محمد بالاستانة ومسجد عمر بالقدس أمكننا أن نتخيل ما كانت عليه قرطبة زمن العرب من تبريزها في العلم والعرفان الى ما لم تلحقها فيه مدينة أخرى إسلامية أو غير إسلامية في عصرها . وأمكننا من جهة ثانية أن نقدر عدد سكانها في ذلك الوقت بما كان يزيد كثيرا على نصف مليون نفس .

أما قرطبة الحالية فشكل مبانيها يكاد يكون عربيا صرفا . فقد تری الباب الخارجی من بیوتها ومن دونه دهليز یوصل الى حوش یفصل بینها باب من حديد فی الغالب ، وفي الحوش ترى روضة جميلة زرع فيها شيء من نخل الارىكا أو الكنسا (من أنواع النخل الفرنجی) يتخللها



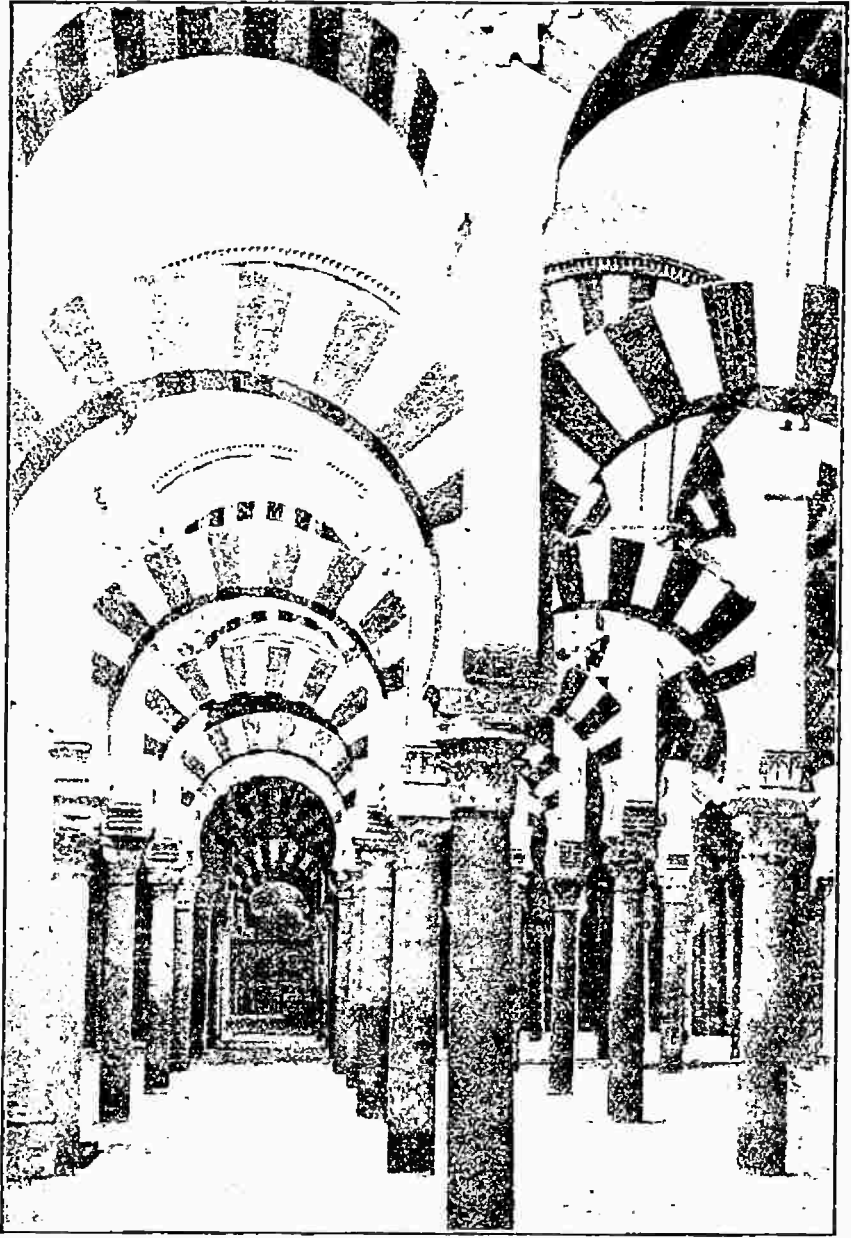
منظر من الحنايا والمعقود الفنية البديعة بمسجد قرطبة

شئ من الأزهار والورود . وترى في وسط هذه الروضة بركة من الرخام عالية أو واطئة عن أرض الحوش صغيرة أو كبيرة بنسبة سمته أو ضيقه ، وقد ذكرنى هذا الحوش بالقاعات الحورانية التي كانت بمصر وقضى عليها النظام البنائى الفرنجى الجديد ولا يزال شئ منها فى البيوت القديمة بمجة سوق السلاح .

وعلى عين الداخل من الحوش ترى قاعة الاستقبال وهى أشبه شئ بالمنظرة (المندرة) فى ديارنا القديمة ، وفى ناحية منها السلم الى الطبقة الثانية والنساء يجلسن فى هذا الحوش فى شئ من الحجاب ، وحيطان الطبقة الأرضية على الخصوص فى دائرها القماشى المختلف الألوان والأشكال الى ارتفاع مترين . ولا شك أن هذه الرسوم بقيت فى المدينة من مدة العرب . وقد بقى فيها بيت واحد قديم يقرب من المسجد الجامع لم أتمكن من زيارته لعدم وجود أصحابه فيه . ونساء المدينة محتشمت يغلبن عليهن الحياء وغض البصر فإذا أبصرت واحدة منهن ترى عينها متجهة الى الأرض ولا تحديق بنظرها فيك مطلقا ومع أن بلادهم حارة جدا لا تكاد ترى صدورهن عارية ، ومن غريب ما رأيت فى هذه المدينة أن سيدة كانت تتوارى وراء باب منزلها الخارجى وتنظر الى الخارج من فرجة صغيرة بين مصراعى الباب كما كنت تشاهد فى الأحياء الوطنية عندنا الى عهد قريب .

وقرطبة على الشاطئ الغربى من نهر الوادى الكبير وهو فى زمن شرقه لا ترى فيه غير مياه راكدة هنا وهناك على هيئة برك صغيرة تحيط بها أراض جافة الى الشاطئ الاخر . وفى قبالة المسجد قنطرة





منظر داخلي مسجد قرطبة الجامع

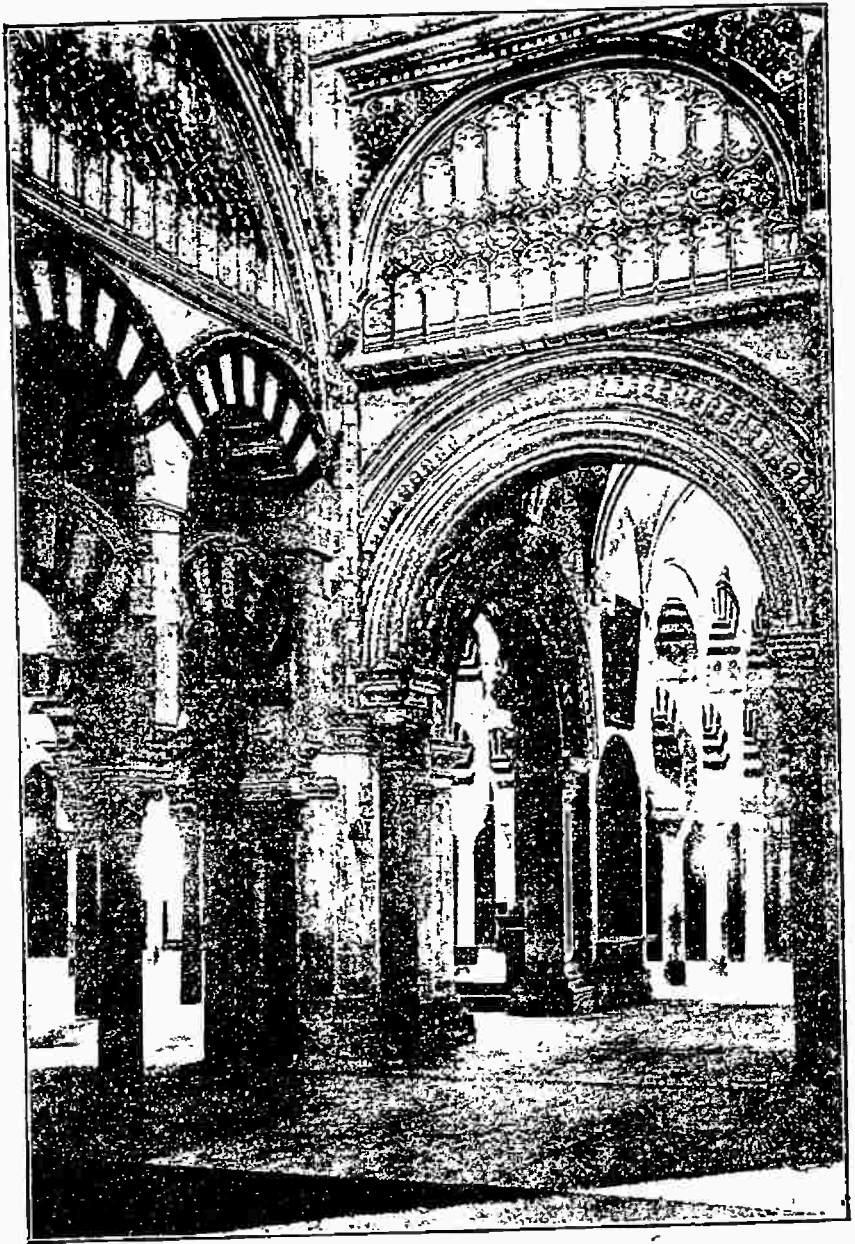
طولها ٢٤ متر بناها يوليوس قيصر قبل الميلاد بخمسين سنة وقد جددتها
السمح بن مالك عامل عمر بن عبد العزيز على الاندلس ، ورمها
الاسبانيون ، وهى تنتهى من الطرف الشرقى بقلعة من بناء العرب لها
برجان عظيمان تسمى الى الآن بالقامة الحرة . وفيها نقطة للشرطة وفى
وسط النهر قريبا من القنطرة أربعة أبنية كانت طواحين مائية مدة
العرب . وقريبا منها أبنية قديمة على الشاطئ . كانت فى مدتهم حمامات
نهرية . وقد بنى القوم بين المسجد والقنطرة عمودا عالياً عليه تمثال القديس
روفايل حامي المدينة . لذلك تجمد المدينة وسكانها ثمانون ألف نفس
أكثر من نصف رجالها اسمهم روفائيل كما هو الحال فى طنطا وما اليها من
البلاد فى كثرة اسم السيد . وشوارع المدينة ضيقة والشارع الذى به القهوات
والمحال التجارية واسع بعض السعة ينشرون فى أعلاه خيمة تظله من
شمس النهار ذكرتنى بالخان الخليلي والصاغة عندنا لولا أنها هنا أوسع
وأنظف . وأكبر شوارعها هو شارع السكروية . وأترك لك الحرية
فى قراءته بالتحريف الذى تريده . وعرضه على ما أرى ٢٠ متراً منها
عشرة لافريزه من كل جهة . وفيه بعض الفنادق والمقاهى ، ومبانيه فى
الغالب على الطراز الفرنجى . أما الأبنية التى هى خارج المدينة
فليست بهذا ولا بذاك ويكثر حولها التراب ممتدا الى مسافة بعيدة مما
يدل على أنها قد كان فيها أبنية قديمة محتايا يد الأيام .

ويظهر أن رجال المدينة عملهم قليل ، لذلك ترى القهوات على كثرتها
عامرة غاصة بهم طول النهار وأظن أن لشدة الحرارة أثراً فى ذلك . ويكنى
أن أقول لك لى كنت أدخل الحمام ثلاث مرات فى اليوم فى هذه المدينة ،

وكننت أجلس في الماء البارد أكثر من ساعتين وقت الظهر . وفي هذه الأثناء تذكرت المرحوم داود باشا مدير قنا لعهد اسماعيل وكان يقضى غالب يومه في فنتاس ممتلىء بالماء . ومن دونه الختم : فاذا كانت أوراق هامة أتى رئيس الكتاب (الباشكاتب) وختمها وانصرف الى سبيله . ولكن أين قرطبة من قنا وفيها أشجارها ونيلها يلطفان من شدة حرارتها كثيراً ولو بعد غروب الشمس .

ولقد كانت قرطبة مدة العرب جنة زاهرة وروضة ناضرة لنظام الري الذي أحدثه العرب فيها فلما استولى الفرنجة عليها سنة ١٢٣٦ م طردوا أهلها وجعلوها حصناً على حدود مملكتهم وأهملوا ترعها وخلصانها وكذلك الماء الذي سيره العرب الى قصورها من الجبل . وبذلك أصبحت هذه المروج النضرة قفاراً لا يسكنها الا البوم ولا تسير فيها الا لفحات السموم . وكان حالها كحال العراق الذي بعد أن كان جنة الأرض مدة العباسيين أصبح بعد أن دلت درلتهم صحراء لا نبات فيها ولا زرع ، ولا يسكنه الآن غير قوم من العرب الرحل الذين ينتقلون وراء السكلا : ولا شك أن البلاد تسعد أو تشقى بأهلها

وإذا نظرت الى البلاد وجدتها تشقى كما تشقى الرجال وتسعد وقد كانت الدولة العلية في أواخر أيامها فكرت في وضع نظام للري في العراق واستقدمت المستر ويلكو كس المهندس الشهير بمصر فذهب إلى العراق ومعه نخبة من المهندسين المصريين وبعد أن وضعوا له النظام الوافى بالغرض أهملته الدولة لكثرة النفقات التي تلزمه ، ولا تزال رسومه على ما أظن في خزانة وزارة النافعة التركية (الاشغال) الى الآن .



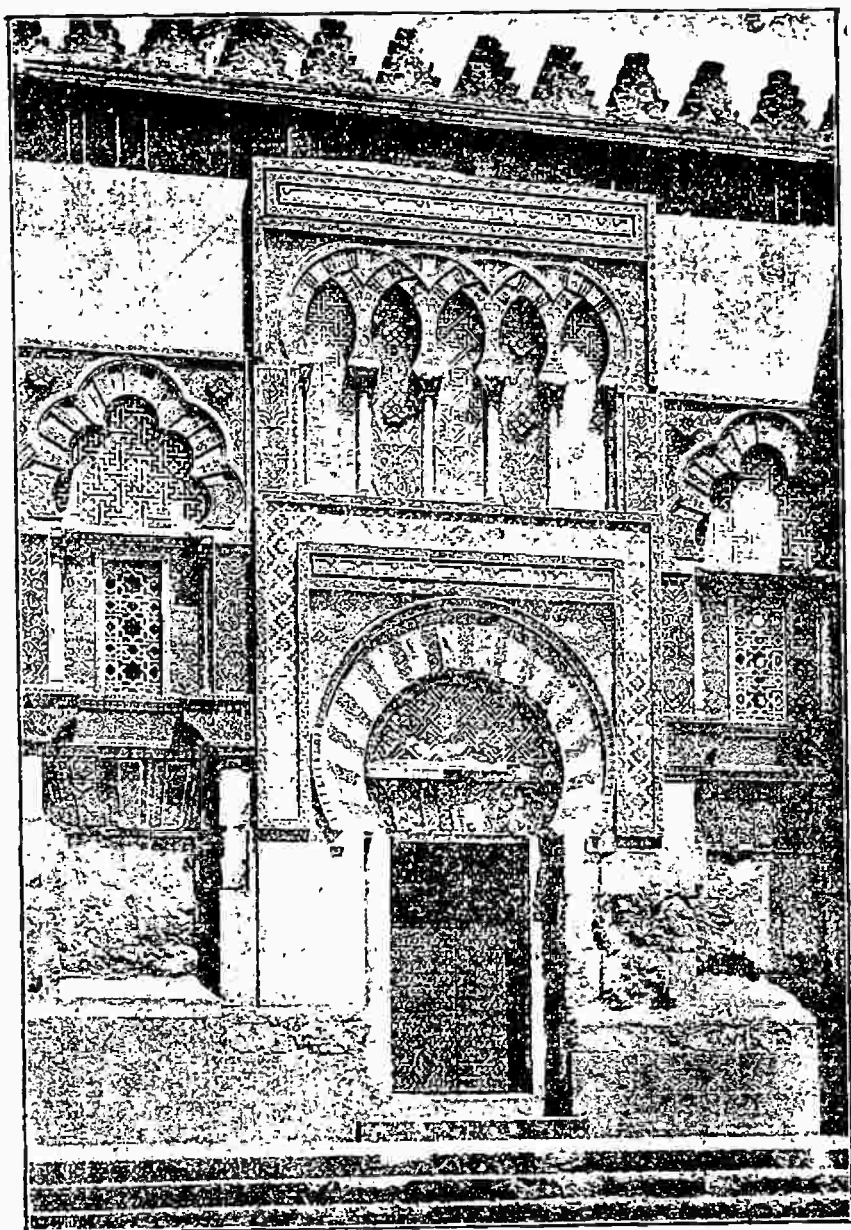
منظر داخلي للمسجد الجامع بقرطبة

ولعل الانكليز وقد اصطالحوا مع الترك على الموصل وصار العراق
بحدوده الجديدة في أمن من الأتراك ومناوآتهم يعملون على تنفيذ هذا
المشروع فيرجعوا الى العراق شبابه الأول ورفاهيته المنصرمة وأن
كانت هذه الأمنية مما يهدد مصر في كيانها الزراعى (وهو كل شىء فيها)،
وخاصة بعد المكوار، ومشروع جبل الأولياء، ونظام الرى الذى يراد
عمله في سواكن والأريتره، وهو المتفق عليه بين الانكليز وإيطاليا على
حساب الحبشة ومصر، فلا يعلم الا الله ما يكون محبوء وراء هذا كله
لبلادنا . وعلى كل حال ليس للفلاح المصرى مخلص من كل هذه
المهددات لحياته غير اهتمامه وعنايته بترقية زراعته حتى ترجع إليها شهرتها
الأولى، ويرتفع القطن المصرى الى رتبته التى كانت له منذ عشرين سنة
بحيث لا يعدله قطن أية بلاد أخرى

وبهذا وحده تخلص مصر من جميع المهددات التى تكتنفها من
الشرق والغرب والشمال والجنوب، ولا سيما اذا لاحظنا أن الأتراك
يفكرون في تعمير زراعة القطن في بلادهم وأظنهم قد تفرغوا الآن للعمل
في أمورهم الداخلية بعد أن صفوا كل مسائلهم الخارجية أو جلّوها . وأن
الأسبان من جهة أخرى يزاولون التجارب الجديدة لزراعة القطن في بلادهم
وقد استقدموا فعلا بعض المصريين لهذه الغاية ومكان هذه التجارب
الآن بلنسية واشبيلية ولكنهم لم ينجحوا فيها لشدة حرارة أسبانيا
صيفاً وللتغيرات الجوية الفجائية التى قد تنتقل بالجو من حار الى بارد من
غير وسط بينهما في جنوب هذه البلاد وخاصة أيام شهر سبتمبر

للعبرة والتاريخ

في زمن الوليد بن عبد الملك دخل العرب أرض اسبانيا فاتحين سنة ٩٢ هـ تحت امرة طارق بن زياد ثم موسى بن نصير . ولما انتهوا بالفتح إلى برشلونة عاد موسى ومعه طارق إلى المغرب ومنها إلى المشرق بعد أن ولي عليها ابنه عبد العزيز بن موسى بن نصير . وما زالت تختلف عليها الولاة من قبل بني أمية ويخطب لهم فيها إلى أن انتهى حكمهم في المشرق سنة ١٣٢ هـ . ومن خيرة ولائهم عبد العزيز بن موسى وخير ما يذكر به أنه أمر بإنشاء ديوان للتوفيق بين الشريعة السمحة ومصالح البلاد المفتوحة ، وتشجيعه أمر الهجرة إلى الأندلس فوفد عليه الناس من الشام والعراق ومصر وغيرها . وكان يقطع كل قبيل جهة من الجهات فكان ذلك سبباً في انتشار علوم المشرق وصناعاته في البلاد التي وفدوا إليها . ومن خيرة عمالهم أيضاً السمع بن مالك الذي نهض بالفتح إلى جنوب فرنسا ومات في حصاره لمدينة طولوشه (تولوز) . ثم عنبسة ابن سحيم الذي غزا قرقشونة ونينا وغيرها من جنوب فرنسا . ومات عنبسة في كمين عمل له في جبال (البرينات) ومنهم عبد الرحمن الغافقي الذي بدأ باصلاح ما فسد من داخلية البلاد ثم سار إلى (أرل) وبعد استيلائه عليها سار إلى (بوردو) فاستولى عليها ثم قصد (ليون) (ويزانسون) فأخذهما عنوة . ثم قصد (تور) فدخلها فاتحاً . وهنالك قابله جيوش النصرانية تحت أسرة قارلة (شارل مارتل) . فارتد عبد الرحمن بجيشه إلى السهول التي كانت بين تور وبواتيه . وفيها حصلت بينهم



الواجهة الخارجية لأحد أبواب مسجد قرطبة

وقائع يشيب منها الولدان كاد النصر يكون فيها للعرب لولا أن صرخ صارخ في جيوشهم بأن الافرنج قصدوا الى معسكراتهم وفيها غنائمهم. وقد يكون شارل لبعده نظره ومعرفة بالوتر الحساس في أصحاب هذه الغنائم التي كانت تملأ السهل والوعر، أرسل الى معسكرهم فرقة من عسكره لازعاجهم على ما ملكت أيديهم من الغنائم والأسلاب، أو ان (البشكنس) قاموا بهذه الخدعة حتى إذا انهزمت العرب خلصوا من سلطاتهم عليهم، وعلى كل حال قد حصل الاضطراب في صفوفهم لهذه الفكرة، وبينما كان أميرهم عبد الرحمن يحاول تثبيتهم وتشجيعهم على القتال أصابه سهم نغم منه قتيلا، وهناك وقع الخلل في صفوفهم واختلف أمراؤهم فكانت النتيجة أن صمموا على العودة إلى اسبانيا مكتفين بما في أيديهم من الغنائم وفي أثناء الليل تركوا معسكرهم الى الجنوب مثقلين بما كان في أيديهم من الأموال، والعدو يضرب في أقفيتهم إلى أن أجلاهم عن أرض فرنسا

وعندى أن العاقبة رحمة الله مع شجاعته الخارقة للمادة واقدامه الذي لا مثيل له ومعرفة بأساليب الحرب في جميع أبرابها — كان يجب عليه قبل أن يتغلغل بجيوشه في فرنسا أن ينفذ رأى ابن زياد في تطهير جزيرة اسبانيا وجبال (البرينات) الى منحدراتها الشمالية من القوط (والنفارين) وغيرهم من العناصر التي كانت لا تزال تسكن شمال الجزيرة، حتى كان يخلص بلاده من هذا العدو الذي كان يسكن منه بين البشرية والأدمة، هذا العدو الذي كان في حال ضعفه يعمل لكل هيجان في داخلية البلاد ينتهي غالباً باضرام نار الثورة بين قبيل وآخر من العرب، بل كان يصل تدخله الى بيت الأمانة نفسه فكان يفسد بين الأخ وأخيه والابن

وأبيه ، وكانت أيام العرب كلها في الأندلس جذوة نار لا تطفأ (وبركان)
اضطرابات لا يهدأ ، حتى إذا صلب ريشه وقوى ساعده أخذ يحارب العرب
إلى أن أخرجهم من ديارهم بحال من القسوة لا تزال تبكي لها الإنسانية
نعم كان يجب على العاقبة بعد دخوله بلاد فرنسا أن يجعل حداً
لسيل هجومه قبل أن يقف الضعف الطبيعي لهذا السيل عند الحد الذي
انقلب به الفتح خذلاً نائماً والنصر هزيمة ، نعم كان يجب أن يكون لتيار
انتصارات هذا الفتح العظيم حداً في بلاد قد اتسعت سهولها وتشعبت
حزونها وانفسحت أماءه فيها دائرة الفتح وامتد فيها خط هجومه إلى حد
لم يمكنه مع قلة أساليب المواصلات في ذلك العهد أن يحكم أمره فيه أو
يدل برأيه إلى طرفيه : ومسافة ما بينهما لا تقل عن مائتي كيلو متر
(بين ليون والأطلانطى) . وكان خيراً له ألا يتعدى نهر (الدور دونى
DORDOGNE) بل يجعله حده الشمالى من جهة الغرب وهو على الدوام
فياض بمائه لعظم المد الذى يأتیه من الاقيانوس ، وأن يجعل جبال
(الأوفرني AUVERGNE) حداً آخر إلى مدينة ليون ، ويكون نهر
الرون حده الشرقى إلى خليج مرسليليا التى كانت في يده ، وهناك كان
يقف في خط دفاع أوله من الشرق مدينة ليون وآخره من الغرب مدينة
رويان ROYAN . وبذلك كان يتفرغ لتنظيم البلاد التى افتتحها ويقسمها
بين الفاتحين فيشغل كل قبيل منهم بالدفاع عن ملكه ، وربما كان عدوه
يحسن سكوتهم على وقف هذا الهجوم الذى كاد يطير بألباب أوروبا هلعاً
ويفتت من أحشائها جزعاً . وكان شارل مارتيل يرضى بأن يقبع في بيته
ولا يلقى بنفسه في لهيب تلك المخاطر التى كانت تتجسم أمامه هاويتها

وبذلك كانت تصبح في يد العرب مملكة تبلغ ألفاً ومائتي كيلو متر طولاً في نحو نصفها عرضاً، ليس فيها دخيل ينقص عليهم حياتهم بسماياته أو عدو يهدم كياناتهم بخياناته .

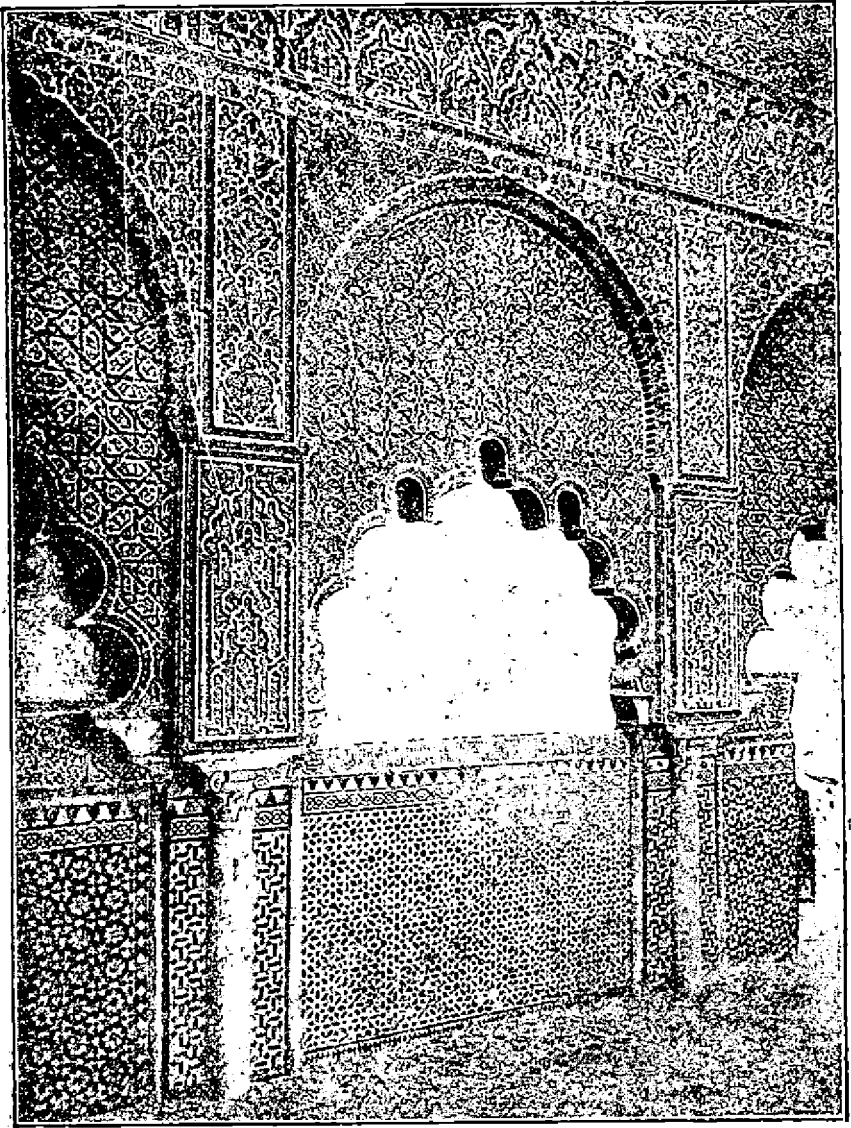
ولقد أحدث انكسار العرب في فرنسا قيام الثورات الداخلية في أسبانيا الإسلامية فكانت الحروب الأهلية مستمرة أحياناً بين المضرية واليمنية ، أو بين الشامية والمضرية أو بين البربر والمولدين أو بين جملة عناصر منهم ضد آخرين مما كان سبباً في الاضطراب العام في الاندلس قتل فيه آلاف من المسلمين وغير واحد من أمراءهم .

وقد ساعد على تأجج نيران هذه الثورات ضعف الخلافة الأموية في الشرق ثم سقوطها بين يدي العباسيين بعد واقعة الزاب التي انتصرت فيها المسوودة شيعة بنى العباس على جيوش مروان الثاني سنة ١٣٢ هـ . وهناك أمعن السفاح أول خلفائهم في تقتيل الأمويين فهرب منهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك حتى دخل الأندلس في سنة ١٣٨ وكان عاملها من قبل العباسيين عبد الرحمن الفهري وكان من المضرية ، وهو الأمير العشرون من يوم دخل العرب أسبانيا ، وفي أول ولايته اختلفت اليمنية مع المضرية على الولاية ثم اتفقوا على أن يكون من المضرية أمير لسنة ومن اليمنية أمير لسنة أخرى ، فلما انتهت سنة المضرية لم يقبل الفهري النزول عن الولاية ، وصادف ذلك ظهور عبد الرحمن الأموي فانتصرت له شيعة الأمويين مع اليمنية وانضم اليهم البربر مع زنانة لأنهم أخوه وسار الى قرطبة واستولى عليها ، ومن ثم أخذت أطراف البلاد تبايعه واحداً بعد الآخر ، وكان يشور عليه بعضها بتحريض

الاسبانيين فكان يقضى على الثورة بهمة لا تعرف الملل ، ثم انتصر على جيوش شارلمان التي حاربتة مساعدة للعباسيين كما انتصر على الجيوش التي كانت تأتي لحربه من المغرب ، وانتهى أمر البلاد كلها لطاعته فشيّد بها ملكاً أموياً جديداً وصل من أبهة السلطان وجلال المجد الى أرق ما وصلت اليه العظمة الاسلامية ثروة وجاهاً وعلماً وصناعة وزراعة وتجارة . ومن آثاره بقرطبة مسجدُها العظيم وقصرها الفخم الذي لا يزال قائماً تجاه المسجد . وكان يدعو أولاً للنصور العباسي الذي كان يسميه بصقر قریش ، حتى اذا توطد سلطاناه قطع ذكره من الخطبة واستمر له الحكم المطلق في البلاد حتى توفي رحمه الله سنة ١٧٣ بعد أن عهد بالأمانة الى ولده هشام .

وكان هشام أميراً جليلاً عادلاً ذهب مذهب العمرين في سيرته فكان يسير في الطرقات ليسمع بنفسه مظالم الناس ويرسل بمن يثق به الى البلاد ليتعرف أحوال عماله . وكان يأخذهم بما يقع منهم من ظلم أو حيف ، وهو الذي أدخل مذهب مالك الى الأندلس وكانوا على مذهب الأوزاعي^(١) وكان يفسح لعلماء الدين في مجلسه ، وزاد في المسجد الذي بناه أبوه ، وجدد بناء قنطرة الوادي الكبير ، وكان رحمه الله ورعاً تقياً رقيقاً على الناس رحيماً بهم شديداً على أعدائه ، ومات في سنة ١٨٨ هـ بعد أن أوصى بالخلافة الى ولده الحكم ، وكان يحب الصيد ويعيل الى شيء من اللهو ويجالس الشعراء والأدباء والمغنين ويعمل لأبهة

(١) أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو بن محمد الأوزاعي امام أهل الشام وكان يكن



المقصورة بجامع قرطبة

الملك بكل وسائل البذخ فأكثر من الممالك الصقلية ومن ربط الخيل الطهمة ، ومنع تدخل علماء الدين في حكمته ، فشنعوا عليه سيرته وكثرت الثورات بتحريضهم ، ووصل بغضهم له الى أن ساعدوا الاسبان على قيامهم ضده ، وأثاروا عليه أهل قرطبة ، ولكنه شمر عن ساعد الجند وقبض على كل ثورة بيد من حديد ، وما زال في عزة الملك ونخامة السلطان حتى مات سنة ٢٠٦ هـ . وخلفه ابنه عبد الرحمن الأوسط بعهد منه ، وكان لطيف الجانب عظيم الخلق ميالا للعلم والعلماء على اختلاف مذاهبهم وكانت أيامه خيراً على البلاد هدأت فيها الثورات الداخلية وزادت الموارد المالية ، غير أن النورماندين هاجموا أسبانيا في أواخر حكمه ونهبوا بعض البلاد التي في الشمال الغربي وقامت بعض الثورات من النفاريين وزادت فتنهم في مدة ولده محمد ثم الظافر بن محمد وعبد الله بن محمد الذين حكموا من سنة ٢٣٨ الى سنة ٣٠٠ هـ . وكان يزيد في خطر ذلك كله تلك الاضطرابات الداخلية : وبالجملية قد كانت البلاد في مدتهم كلها شعلة نار فكلما أطفأوها في جهة تأجج لهيبها في جهة أخرى حتى نهكت الحرب قوى الجند وأنقادت ثروة البلاد .

ولما مات عبد الله تولى بعده حفيده عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط وكان الناس يرقبون مقوط الأموية لقيام الثورة في كل جهة واشتداد سعيها خصوصاً في جهة الشمال . فأخذ الناصر يعمل ليله ونهاره في تجهيز الجيوش وإرسالها غرباً وجنوباً لإطفاء فتنة العرب ، وشمالاً لمحاربة النفاريين وهو في أثناء ذلك يدبر أمور مملكته بعقل راجح وفكر ثاقب . وقد أقام في إطفاء نيران هذه

الثورات والوقوف في وجه أعدائه من القشتاليين والبشكنس (البسك) وغيرهم نحو خمس عشرة سنة.

وهناك أسعفته المقادير باختلاف ملوك الأسبان وإعلانهم الحرب بعضهم على بعض ، وأقاموا في تيار هذه القطيعة مدة طويلة انطفاًت فيها جميع الثورات الداخلية في الأندلس بحسن سياسة الناصر وتمشت الطمأنينة بين جميع العناصر الإسلامية وحينئذ أخذ الناصر في ترتيب داخلية بلاده وفي تنظيم جيوشه البرية والبحرية وما يقتضيه ذلك من زيادة الأسطول وتقويته ، ومن ابتداء الأنظمة التي ترقى بها مملكته في جميع مرافقها وظهرت بها مواهبه للناس من أقصى البلاد الى أدناها فثبتت محبة الناس له لعدله وفضله وكرمه وعلمه وشجاعته وسياسته ، ووقعت هيئته من قلوبهم ليقظته وحزمه ، ولما كان فيه من المزايا التي اتصف بها حكمه بأن الحكم الذهبي للعرب في الأندلس .

ولما بلغ الناصر في سنة ٣١٧ هـ أن مؤنساً الخادم قتل الخليفة المقتدر بالله العباسي بالمشرق لم يضع هذه الفرصة : فأعلن خلافته في الأندلس بمنشور أرسله الى جميع الجهات ^(١) وتسمى بأمر المؤمنين وضربت السكة

(١) منشور الخلافة

أما بعد فانا أحق من استوفى حقه ، وأجدر من استكمل حظه ، ولبس من كرامة الله ما ألبسه ، والذي فضلنا به ، وأظهر أثرنا فيه ، ورفع سلطاتنا اليه ، ويسر على أيدينا دركه ، وسهل لدولتنا مرامه ، والذي أشاد في الآفاق من ذكرنا ، وعلو أمرنا ، وأعلن من رجاء العالمين بنا ، وأعان من اغراقهم إلينا ، واستبشارهم بدولتنا ، والحمد لله ولي الانعام بما أنعم به ، وأهل الفضل بما تفضل علينا فيه ، وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمر المؤمنين ، وخروج الكتب عنا وورودها علينا بذلك ، إذ كل مدعو بهذا الاسم متمتع له ودخيل فيه ، ومتسم بما لا يستحقه ، وعلمنا أن التماذي على ترك الواجب لنا من ذلك حق أضعناه ، واسم ثابت أسقطناه ، فأمر الخطيب بموضعك أن يقول به ، وأجر مخاطبتك إنا عليه ان شاء الله ، والله للسمان . |

باسمه وخطب له على منابر البلاد بهذا اللقب الجديد الذي بقى في خلفائه الى سقوط الأموية في الأندلس

وفي سنة ٣٢٥ ابتدأ في بناية الزهراء ولما تمت جعلها مركزا للخلافة (١) وجر إليها الماء من جبال قرطبة في أقنية من البناء مرفوعة على حنايا تختلف ارتفاعا وانخفاضاً حسب طبيعة الأرض (وترى شكلها بالقاهرة بين النيل والقلة من عمل محمد على ويسمونها العيون) .

وكان لعبد الرحمن من جلال الملك وعظيم السلطان وهيبة الذات وسامى الصفات ما زاد في أبهة الخلافة ونخامتها: فامتدت إليه أيدي الملوك شرقا وغربا طلبا للتقرب منه. ووفدت عليه ملوك قشتالة واربغون وليون التماسا لرضاه وقدموا اليه طاعتهم وتبعيةهم وهاداه ملوك القسطنطينية ومصر وأرسلوا اليه وفودهم ليوثقوا له دعائم محبتهم ومتين صلهم وأرسل اليه قسطنطين كتابا رقيقا يوثق به علاقته معه ويستغفره فيه إلى حرب العباسيين حتى يسترد منهم ملك آبائهم: وغرضه بذلك أن يضرب

(١) ابتدأ الفرنجة يعترفون بفضل الخلافة العربية بالأندلس فقد ورد بتلغراف الاهرام الخصوصية في ٢٤ يناير سنة ١٩٢٩ ما نصه :

لإحياء ذكرى الخلافة في قرطبة. باريس في ٢٣ يناير سنة ١٩٢٩ ورد من مدريد أن جامعة قرطبة نظمت حفلات تقام بين ٢١ و٢٦ يناير بمناسبة ذكرى مرور الف سنة على عهد الخلافة في قرطبة وأن لجنة تنظيم هذه الحفلات مؤلفة من مستشرقين مشاهير في مقدمتهم جوليان ريبيرا والاستاذ المستعرب ميجل آزين بلاكيوس الذى نشر منذ بضع سنين كتابا عن الرواية الآلهية التى هى تأليف دانتي الجيبرى اثار جدالا شديداً اذ أن الموضوع الذى كتب فيه دانتي كان قد سبقه اليه احد كتاب العرب قبل بضعة قرون

ويقام في اسبوع هذه الحفلات في قرطبة معرض للفن العربى من عهد عبد الرحمن الثالث الى عهد المنصور، واقامة هذا المعرض تدل على تطور الافكار في أسبانيا وتوسمها في الحرية والتسامح. وقد نشرت جريدة «صوت مدريد» مقالة افتتاحية قالت فيها أن أسبوع هذه الحفلات لا يتناول ذكرى تنحصر في قرطبة فان عهد الخلافة لم يكن ازهر وازهى عهد في تاريخ قرطبة وحدها بل أن اسبانيا كلها كانت في ذلك الزمن في مقدمة المدينة

المسلمين بعضهم ببعض حتى يضعفهم بسلاحهم ويقوى هو يضعفهم ويكون في أمن منهم جميعاً ، ولكن ديسسته لم تجز على الناصر بل أرسل اليه هدية نظير هديته مع سفير خاص . وبعد ثلاثين سنة من حكمه ظهرت معالم الثروة في جميع طبقات البلاد ، وكان دخل المملكة في هذه الآونة بحسب ما أجمعت عليه التواريخ العربية المعتبرة ما نكتفى منه بذكر ما جاء في تاريخ ابن خلدون قال :

« خلف الناصر في بيوت الأموال خمسة آلاف ألف ألف ألف —

مكررة ثلاث مرات ^(١) . ثم قال : وقال غير واحد أنه كان يقسم الجباية

(١) لم يذكر ابن خلدون أكان ما تركه الناصر من الدنانير أم من الدراهم (وإن كان غيره قيدها بالدينار) ، فإذا كان من الدنانير (وقد يقدرون الدينار بنصف الجنيه المصرى الحالى) فيكون ما تركه الناصر في خزائن الاموال الفين وخمسة مئليار من الجنيهات المصرية . وإذا كان من الدراهم وكان الدينار في القرن الرابع الهجرى يساوى تقريباً ١٧ درهما فيكون ما تركه الناصر نحو ثلثمائة مئليار من الجنيهات . وهو في كلتا الحالتين لا يتصوره العقل وأظن أن هناك ألفاً مكررة وأن ما أراد ابن خلدون أن يقول هو :

..... ٥٠٠٠٠٠٠٠ . فإذا كانت من الدنانير يكون ما خلفه الناصر مئليارين ونصف مئليار من الجنيهات المصرية وإن كانت من الدراهم يكون ما تركه ثلثمائة مليون جنيه وهو ما يمكن أن يتصوره العقل . غير أن من يطلع على ما ذكره ابن خلدون وغيره من وصف هدية ابن شيد الى الناصر وكان من وزرائه مما يدل على عظيم ثروة الرجل يرى أن ثروة الدولة على هذا القياس ربما بلغت الحد الذى ذكره المؤرخون من العرب ونحن نتخيل أنهم مبالغون فيها . واليك بعض ما جاء في هذه الهدية :

٥٠٠ ألف مثقال من الذهب ، وما قيمته خمسمائة ألف دينار من سبائك الفضة ، و ٤٠٠ رطل من التبر ، و ٤٠٠ رطل من العود العالى (لعلى الفاقل) ، ومائة أوقية من المسك ، ومائتا أوقية من الصندل ، وثلثمائة أوقية من الكافور ، وثلثون شقة من الحرير المرقوم بالذهب كلباس الخلفاء ، ومائة جلد سمور ، و ٤٨ من الملاحف لكسوة الخليل من الحرير والذهب ، وقرية قفل آلافا من امداد الزرع ، ومن الصخر للبناء ما انفق عليه في عام واحد ثمانون ألف دينار (ولعل ذلك أيام اشتغال الناصر ببناء الزهراء) . وعشرون ألف عود من الخشب قيمتها خمسون ألف دينار وغير ذلك من الرادقات والبسط المختلفة الالوان والسلاح والنبال والحبل المطهية والنبال والوصائف والماليك والجوارى الى آخر ما قالوا ؟ وكانت هذه الهدية سبباً لا لبلاغ الناصر رزق ابن شيد الى ٨٠ ألف دينار في السنة ؟

وقد قدر المؤرخ نيكلسون إيرادات الإندلس مدة الناصر بمبلغ ٦٢٤٥٠٠٠ وقدر ما كان في بيت المال سنة ٩٥١ م بعشرين مليون جنيه .

أثلاثاً : ثلثاً للجند وثلثاً للبناء وثلثاً مذكراً . وكانت جباية الأندلس يومئذ من الكور والقرى ثمانية وأربعمائة ألف وخمسة آلاف ألف دينار ومن السوق والمستخلص خمسة وستين وسبعمائة ألف دينار وأما الأتخاس والغنائم العظيمة فلا يحصيها ديوان »

وكان الناصر عالماً فاضلاً عاقلاً بعيد النظر فى السياسة والرياسة شجاعاً ناهضاً برقى أمته ساهراً على شؤون دولته وكان كاتباً شاعراً كبير الهممة عظيماً فى نفسه كبيراً فى كرمه ومن قوله :

ما كل شىء فقدت إلا عوضنى الله عنه شياً
إنى اذا ما منعت خيرى تباعد الخير من يدياً
من لى نعمة عليه فانها نعمة علياً

وهذا لعمري أرقى درجات الكرم والشجاعة ، وقد وجد بخطه أن أيام سروره كانت أربعة عشر يوماً وهى يوم كذا من سنة كذا ويوم كذا من سنة كذا . الخ وتوفى الناصر رحمه الله سنة ٣٥٠ هـ بعد أن حكم خمسين سنة وولد فيها دعائم الخلافة لولده الحكيم الذى تولى بعده بعده اليه فثارت عليه ملوك النصرانية لأول حكمه فخار بهم بنفسه واستولى على بعض بلادهم ، فطلبوا صلحه على ما كانوا عليه مدة والده . ثم أرسل جيوشه الى نواح كثيرة شمالاً وغرباً ففتحوا مدناً كثيرة منها قلعة من بلاد (البشكنس) وأرسل أسطوله بقيادة أمير البحر عبدالرحمن بن رماحس الى مياه البرتغال فطرد النورمان الذين كانوا يهددون السواحل . وأجاز لجيوشه الى العدو فنزله الى الادارة عن ملكهم فيها وفى الويف وكان الحكم يميل إلى السلم حتى يتفرغ لنشر المعارف والعلوم المختلفة

بين أمة . وكان يرسل إلى جميع البلاد شرقا وغربا لشراء الكتب النادرة بأثمان عالية حتى جمع منها مبلغا عظيما ، وكون دار كتبه الشهيرة التي كان بها ٤٠٠ ألف مجلد من نخب الكتب ، وكانت على أغلبها تعليقات بخطه . ورتب لها الخدم والمعينين تحت أمرة مولاة تليد الخصى ، وكانت لخزانة دواوينه وحدها أربعة وأربعون فهرسا . وفي كل فهرس عشرون ورقة ليس فيها إلا أسماء الدواوين . وأقام الحكم للعلم والعلماء سوقا نافقة جلبت اليها بضاعته من كل قطر . واستمرت هذه المكتبة ينتفع بها الناس عامة إلى أن تبددت وييمت بأرخص الأثمان مدة الفتنة زمن هشام المؤيد بأمر الحاجب واضح مولى المنصور بن أبي عامر .

وكان الحكم عالما فاضلا بل كان أعلم بنى أمية على الإطلاق لأن والده استحضر لتثقيفه جلة العلماء من الشرق والغرب ومنهم أبو علي القالى . وكانت كل لذته في مطالعته ومذاكراته مع العلماء في مختلف العلوم . وفي مدته نفقت سوق العلم والعلماء الذين أصبحوا مشمولين باحسانه وفي حمايته ونحت رعايته ، فظهرت آثارهم في كل علم ، وترجمت كتبهم إلى الاسبانية أو اللاتينية : وكان كثير من أهل البلاد المسلمين واليهود على علم تام بهما ، فينقلون العلوم الأجنبية إلى العربية ، كما كان كثير من القوط وغيرهم يعرفون لغة العرب لضرورة علاقتهم بالدولة العربية في محراتهم ومعامداتهم وسفاراتهم وغير ذلك ، فكانوا يترجمون الكتب العربية إلى لغاتهم . ومن هنا انتشرت مدينة المسلمين وعلومهم في ممالك الفرنجة فاستفادوا منها كل الفائدة ، وجعلوها مصدرا أخذوا عنه علومهم المختلفة من رياضية وفلسفية وزراعية وفلكية وطبية

وكيمياوية . وبالجملة أنَّ الدولة الأندلسية العربية كانت واسطة في نقل علوم العرب من شرقية وغربية إلى أوروبا فبنوا من مادتها شيئا كثيراً من علومهم ومدنيتهم الحالية . ولولا ذلك لكانت أوروبا متأخرة بمئات من السنين عن الدرجة العلمية التي وصلت إليها الآن .

وما زال الحكم في أبهة الخلافة وجلالها تنقرب الملوك اليه بالهدايا والسفارة من كل جهة حتى مات سنة ٣٦٦ بعلة الفالج . وكان الأمر من بعده لأخيه المغيرة فعمل وزيره المصحفي بتدبير الحاجب بن أبي عامر على الفتك به من ليلته ، وبذلك خلا الجو لهشام بن الحكم من السيدة صبح البشكنسية التي كان لها الفضل في ترقية ابن أبي عامر وحظوته عند الحكم حتى وصل إلى درجة الوزارة . واجتهد ابن أبي عامر في أخذ البيعة له وهو لم يتجاوز سن العاشرة . وأصبح يعمل باسمه في رسوم الخلافة . وباستشارة والدته قضى على جميع مناوريه وحاسديه من رجال الدولة . وكان بدهائه يقتل بعضهم بسلاح بعض ، حتى أصبح صاحب الحول والطول والكلمة النافذة ، وهنالك استبد بالسلطة وحجر على المؤيد في قصره بحيث لا يراه أحد ، وأخذ يكون لنفسه عصبية من جند البربر والصقالبة وغيرهم . وكان يقطع الألسنة عنه بكرمه وحسن إدارته وجميل سياسته ، وتسمى بالمنصور وأمر بأن يحيا بتحية الملوك . وقد كثرت غزواته بحيث بلغت سبعا وخمسين غزوة ، وكان يقودها بنفسه ، ويعود منها منتصراً غانماً فيفيض على الناس مما أفاء الله عليه فيأسرهم بإحسانه . وكان المنصور نصيراً للعلم محباً للعلماء ، وكان يفسح لهم في مجلسه ، وكان له يوم في الأسبوع للاجتماع بهم للمذاكرة في مختلف

العلوم، بل كان يستصحب الكثيرين منهم في غزواته ويستأنس برأيهم، فكانوا يذيعون عنه دينه وورعه وعدله وفيضه وبره ويتحدثون عنه بكل محمداً. ومن دهائه أنه أمر سامحه الله بحرق بعض كتب الفلسفة تقرباً للامة، وكان ذلك يزيد في سلطانه ويؤكد من محبته في قلوب الناس وبنى المنصور الجهة الشمالية من الجامع الأموي بقرطبة. ثم قنطرة على الوادي الكبير وأخرى على نهر (شنيل) وبنى قصر الزاهرة وجعله محل سلطانه وحكمه بعد أن جعله من الفخامة والجلالة لا نظير له. ووصلت جيوشه الى قلب المغرب الأقصى بقيادة ولده عبد الملك وخطب له على منابرہ. وعلى الجملة قد كان المنصور بن أبي عامر من أكبر ملوك الأندلس سلطاناً وعلماً وفضلاً وأحساناً وله في سياسته القدر المعلى وفي إدارته المثل الأعلى. وكان الناس يتحدثون في جميع الجهات بما كان له من جميل النعوت وعظيم الصفات وبعد النظر وثاقب الفكر، وكان كاتباً شاعراً بليغاً ومن قوله.

رميت بنفسى هول كل عظيمة وخاطرت والحر الكريم بخاطر
وما صاحبي الا جنان مشيع وأسر خطى وأبيض باتر
فسدت بنفسى أهل كل سيادة وفاخرت حتى لم أجد من يفاخر
وما زال المنصور في أبهة الملك وعظيم السلطان حتى مات رحمه الله في غزوة من غزواته سنة ٣٩٢ هـ ودفن في مدينة سالم: وهي مدينة على الطريق الحديدى بين مجريط وسرقطة وكتب على قبره:

آثاره تنبيك عن عزماته حتى كأنك بالعيان تراه
تالله لا يأتى الزمان بمثله أبداً ولا يحصى الثغور سواه

وقام بأمر الحجابة بعده ولده عبد الملك بعده اليه فسار على سيرة أبيه من الحجر على المؤيد واستبداده بأمر الملك ، وكان شهياً كبير الهمة عظيم الهيبة ومات بعد سبع سنين من حكمه ، كانت كلها خيراً وبركة وغزوات موفقة .

وخلقه أخوه عبد الرحمن بن محمد بن أبي عامر ، فشدد في الحجر على المؤيد ، وأرسل اليه من هده في حياته حتى كتب اليه عهده بالخلافة من بعده ، وأشهد على ذلك رجال الدولة فأغضب ذلك بقية الأمويين من أحفاد الناصر ، وأثار عوامل الحقد في قلوب المضريّة ومن كان من شيعتهم . فقاموا بالثورة وبايموا محمد بن عبد الحبار بن الناصر ولقبوه بالمهدي ، وكان عبد الرحمن بن أبي عامر في غزوة له فلما سمع الخبر عاد أذواجه فانصرف عنه الناس لسوء سيرته وقتله بعضهم وذهب برأسه إلى المهدي : وبه طويت صحيفة آل بني عامر . ومن هذا الوقت اشتعلت نار الفتنة في الأندلس ، وأصبحت الخلافة محل وثوب كل من استأنس بحق فيها من بقية الأمويين وبني حمود حتى انتهى أمرها إلى هشام بن محمد الملقب بالعمد وكان ضعيفاً نخله الجند في سنة ٤٢٢ ، ففر إلى لاردة وهلك فيها سنة ٤٢٨ وبه انقضى أمر الأموية من الغرب كما قضى عليها في الشرق . وبالجملة قد كانت بلاد الأندلس كلها فوضى من سنة ٤٠٠ إلى سنة ٤٢٣ هـ .

ولقد تولى الخلافة في هذه المدة البسيرة من الأمويين ستة هم : المهدي ، والمستعين ، والمرضى ، والمستظهر ، والمستكني ، والمعتمد . وتولاها من بني حمود في هذه المدة ثلاثة : علي ، والقاسم ، ويحيى . وانتهى أمر البلاد إلى تفرق الجماعة وانقسامها إلى ملوك الطوائف . وكان نفر من بني

حمود لا يزالون يتقاتلون على الخلافة الى سنة ٤٦٠ . وربما كان منهم أربعة يحكمون في منطقة صغيرة لا تزيد على ثلاثين فرسخاً كلهم يحمل لقب الخلافة ومنهم الواثق ، والمتايد ، والمهدي ، والمستعلي ، حتى قال في ذلك ابن شرف القيرواني أبياته المشهورة :

مما يزهدني في أرض أندلس ألقاب معتصم فيها ومعتضد
ألقاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكي اتقاخصورة الأسد

وفي أثناء هذه الفتنة هدم الثائرون قصور الخلافة بما فيها الزهراء والزهرة ، ونهبوا ما فيها من الأموال والتحف التي لا يتيسر تقديرها بل ولا تصورها الا لمن قرأ . وقال مؤرخو العرب عنها إنها من الحقائق التي هي أشبه شيء بالقصص منها بالتاريخ . وانتهت هذه الفتنة بنحو الخلافة وبتقسيم البلاد بين ملوك الطوائف .

وكانت قرطبة كالكرة يتلفها كل غالب ثم آلت الى حكم ابن جهور حينما انقسمت الاندلس الى ملوك الطوائف وما زالوا بها ولم يتعدوا لقب الوزارة حتى غلبهم عليها المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية . وآل أمر ملوك الطوائف الى أن كانوا يدفعون الجزية لملوك الاسبان خوفاً منهم على ما في أيديهم . وكلهم كان يخاطب ود ابن عباد ويطلب مرضاته لقوته ومنعته . ولم يطل ملكهم حتى تغلب عليه المرابطون في سنة ٤٨١ ثم الموحدون سنة ٥٣٩ . وفي أواخر حكمهم أخذ ملوك الاسبان يستولون على أطراف البلاد ونواحيها ، حتى لم يبق للعرب غير غرناطة التي بقيت في يد بني الأحمر الى آخر القرن التاسع الهجري ، ثم آل أمرهم الى أن طردهم الاسبان من الأندلس مما تراه مفصلاً في مكان آخر

الرسالة الرابعة

من قرطبة الى اشبيلية

المسافة بين هاتين المدينتين ١٣١ كيلو متر يقطعها القطار في أكثر من أربع ساعات في طريق عامرة بالمزارع الواسعة يتخللها بعض خلجان الماء ويسمونها مما يلي قرطبة بالمرج . وتكثر في هذه الطريق القرى الكبيرة . على الرغم من كل هذا ترى الحر شديدا ، حتى اذا وصلت الى اشبيلية وجدته أشد ولا يكاد يحتمل خصوصا من الظهر الى ما بعد غروب الشمس .

اشبيلية

والعرب تسميها حمص تشبها لها بحمص الشرقية في عمرانها وحضارتها وكانت في مدتهم أحسن مدنها عمراناً وثروة وعلماً وصناعة وخاصة في مدة المعتمد بن عباد : فقد كانت في زمنه عروس المدائن الاندلسية والشمس التي تنبعث منها أشعة العظمة والثروة والفخامة الى جزيرتها . وبالجملة كانت اشبيلية مدة ملوك الطوائف أوسع بلادهم ملكاً وأكبرها قوة . وهي الآن مدينة عظيمة جداً بل هي أحسن مدينة في جنوب اسبانيا بعد مجريط ، وعدد سكانها ١٥٠ ألف نفس ، وهو أقل من نصف عددهم مدة العرب . ويغلب الشكل العربي في كثير من مبانيها الا أنها خالية في الغالب من الرياض الصغيرة التي تجدها بحالة عامة في بيوت قرطبة . وقد دخل على شكل بعض أبنيتها شيء كثير أو قليل من الرسوم الافرنكية . وعلى كل حال هي مدينة لا تزال عربية الى الآن وإلى الغد .

لأنهم لو كانوا رأوا أن هذا الشكل غير مناسب لوضع المدينة ولكثرة
 حرارتها لاستبدلوا به غيره من زمن بعيد كما ترى في مدريد وبرشلونة .
 وهناك قسم من أقسام اشبيلية لا يزال على ما كان عليه مدة العرب ،
 وشوارعه ضيقة جداً لا تسع غير عربية واحدة تسير فيه وإن قابلتها عربية
 أخرى فلا بد لأحدهما أن تقهقر حتى تجد الثانية مخلصاً للمرور . وقد
 قررت بلدية المدينة الاحتفاظ بهذا القسم على حاله والامتناع عن ادخال
 أى اصلاح عليه ابقاء على صورة أصلية للنظام العربى القديم . وفى هذا
 القسم دار بنائها الجمعية الاسبانية الامريكانية على النظام العربى وجعلوها
 مزاراً للسائحين : والحق انها جميلة جداً فى نظامها وإن لم يكن فيها شئ
 من الفن .

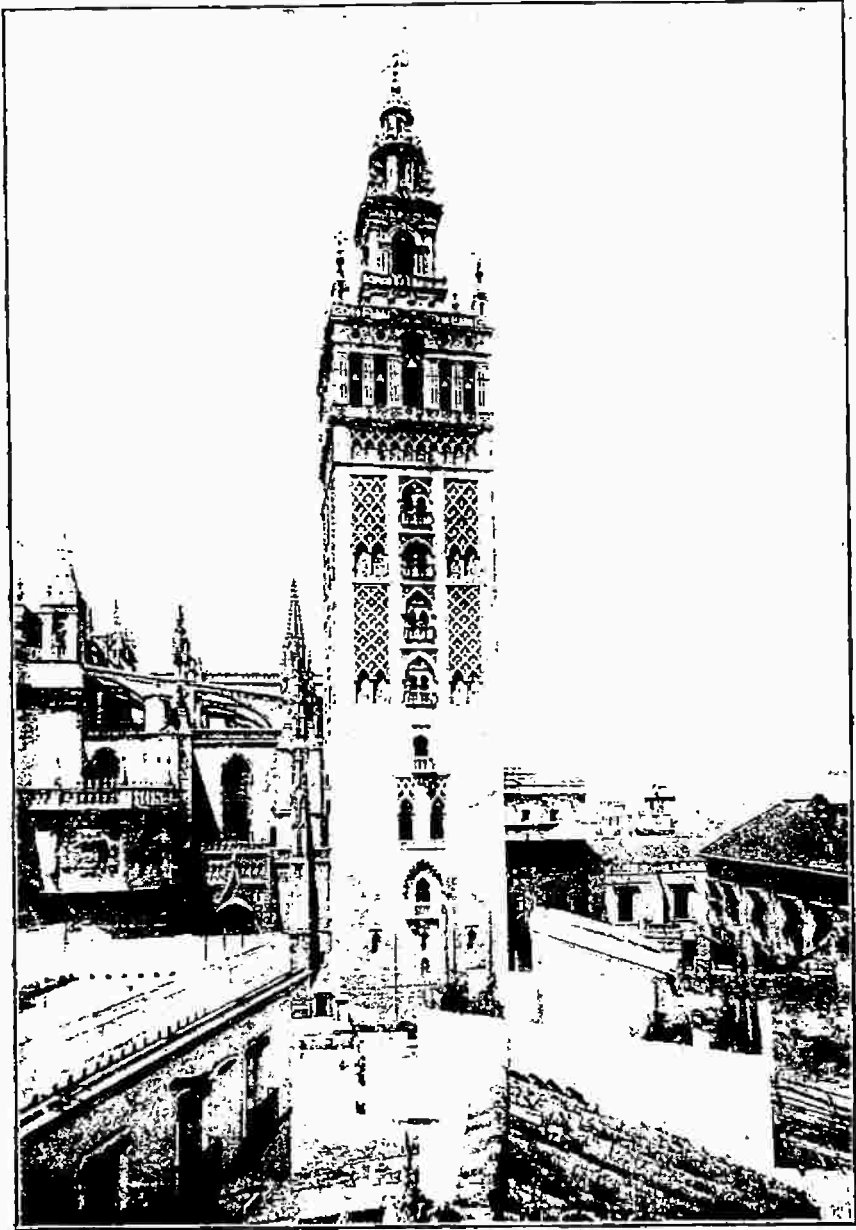
وشوارع المدينة بوجه عام ضيقة وكثيراً ما ترى فى أعلاها مظلات
 من نسيج القلاع لتجنب الشمس عن أرض الشارع وعن الدكاكين التى
 فيه . وترى المحال التجارية منتشرة هنا وهناك فى شوارع المدينة ، وبعضها
 منعت العربات من المرور فيه كما هو الحال فى الخان الخليلى بالقاهرة .
 وأحسن هذه الشوارع وأكثرها حركة هى التى تتصل بميدان القديس
 فرديناند : وهو ميدان لا بأس به زرعت على محيطه الأشجار وفيه أكبر
 فنادق المدينة . ويقرب من هذا الميدان (الكاتدرائية) وهى الكنيسة
 الجامعة التى بنيت مكان المسجد الجامع الذى كان بهذه المدينة قبل استيلاء
 سان فرديناند عليها فى سنة ١٢٤٨ م . ويقرب من هذه الكنيسة القصر
 (الكازار) وهو من أنعم ما يرى الراعون ، وبطبيعة الحال كان المسجد
 يتناسب معه نخامةً ورواءً . ولم يبق منه غير صحنه ومناره .

وقد لجأت الى هذه الكنيسة من شدة الحر. وقدما كان الناس يلجأون الى بيوت العبادة. فدخلت من بابها الغربى الى صحن واسع فى وسط بركة من الرخام كانت للوضوء. وهذا الباب على شكل باب مسجد قرطبة النحاسى الكبير لولا أن قطعه النحاسية القائمة مكتوب فيها بالعربى لفظ الجلالة بأوضاع مختلفة.

وفى زاوية الصحن الشرقية مما يتصل بالكنيسة تلك المنارة العظيمة التى يسمونها الآن (La Tour de Giralda) وترجمتها منارة لعبة الهواء. وهذه المنارة بنيت على شكل منارة مسجد الكتبية بمراكش (أو أن منارة مسجد الكتبية بنيت على شكلها وهو الأصح). وأمر بينهما السلطان المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن من الموحدين (وهو الرابع من ملوكهم) فى أواخر القرن الثانى عشر الميلادى وكان فى أعلاها أربع تفافيح كبيرة من النحاس غلفت بطبقة من الذهب بلغت نفقاتها وحدها أكثر من مائة الف دينار فأزال القوم هذه التفافيح بعد استيلائهم على المدينة وبنوا مكانها على الدائرة التى كان يدور عليها المؤذن أبراجا للنواقيس وضعوا فوقها تماثالا ارتفاعه أربعة أمتار وزنته ١٢٨٨ كيلو جرام، بحال يتحرك فيها مع الرياح حيث سارت ومنها أتت تسميتها بلفظ جيرالدا. (لعبة الهواء) وهذه المنارة مربعة الشكل وكل ضلع من أضلاعها من جهة القاعدة طوله ١٣ر٦٠ مترا وبنائها من الطوب الأحمر وسمك حوائطها متران ونصف متر. وفيها إلى أعلى كثير من الفتحات التى تسمح بنفاذ الهواء والنور الى داخلها. وارتفاعها ٧٠ مترا، وهو ما بقى من عمل العرب فيها. ويضعد إلى قمة المنارة بطريق مائل فى

محيطها من الداخل يسع فارسين يسيران أحدهما بجانب الآخر ، وترى من أعلاها منظراً جميلاً جداً للمدينة . وقد تثبت في سقف دائرة الصحن مما يلي المنارة قبالة باب الكنيسة الداخلى تمساح (يقال أنه هدية من ملوك مصر) ، وسن فيل كبير ، وعصا ، ولجام : ويقولون أن التمساح رمز للتروى ؟ والسن للقوة . والعصا للعدالة . واللجام للوازع النفسانى الذى يقف بصاحبه عند حده : وهى وان كانت ذات مغزى جميل لم أفهم معنى لوضعها هنا .

دخلت الكنيسة الجامعة التى بنيت مكان الجامع الذى يمكنك تقدير نفامته من شكل منارته ومما كانت عليه فى أول وضعها . وأول ما صادفتنى مصلى الى جانب المنارة فى صدره نائوس القديس فرديناند ، وهو من الفضه الخالصة وفيه نقوش جميلة جداً ، وفى وسطه من جانبه الظاهر دائرة من الذهب شكلها بيضى نقشت فيها صورة فرديناند على حصانه وأمامه ملك العرب يقدم اليه مفاتيح المدينة !! وإلى جانب هذا المصلى من اليمين قبر زوجه وإلى اليسار قبر ابنته التى ينسب اليها هدم المسجد وبناء هذه الكنيسة مكانه . ويجوار هذا المصلى غرفة وضعت فيها جواهر الملك وتاجه وسيفه . وفى جانب آخر من هذه الكنيسة قبر كرسstof كولومب الذى كان مصدر حياة اسبانيا التجارية وعظمتها الاستعمارية : وعلى قبره الرخامى أربعة تماثيل كبيرة من المرمر تحمل نعشه الرخامى على قدره الطبيعى : وهى تماثيل ملوك الممالك الأربعة التى تألفت منها الوحدة الاسبانية وم : ملك قشتالة وملك اراغون وملك ليون وملك نافاريا . ولم يدهشنى أن هؤلاء الملوك يحملون نعش هذا الرجل الذى كان على



« لاجير الدا » وهى منارة المسجد الجامع باشبيلية الذى جعلوه كنيسة

يده ظهور هذا العالم الجديد (أمريكا) ، وأصبحت إحدى دوله المتحدة وبين شفتيها كلمة اسماء دول العالم واشقاقها وقد تم لها الآن دور الظهور على جميع الامم بما لها من ثروة واسعة وجاه عريض وقوة هي قوة المال والعلم والاختراع : وذلك ببركة ما في بلادها من المواد الأولية من ذهب وفضة وحديد ونحاس وقصدير وخم وبترول وغير ذلك ولا أدري هل تقدر أمريكا هذا الرجل العظيم قدره وتخلد ذكره .

وعلى كل حال هذه الكنيسة غاية في الفخامة ولا بد أن يكون القوم قد أزالوا المسجد مع جلالته وعظيم نفامته ، حتى يقضوا على كل فكرة تحوم حول رجوع المدينة الى المسامين : مما ترى فيه التعصب الدينى ممثلا كل التمثيل . على أن مسجداً نفخا كهذا لو بقي لكان فيه فائدة كبيرة للعلم والفن والتاريخ : كما هو شأن مسجد قرطبة الذى رجعوا فيه الآن الى غسل الأغلاط التى ارتكبوها فى ستر نقوشه وتغيير بعض معالمه .

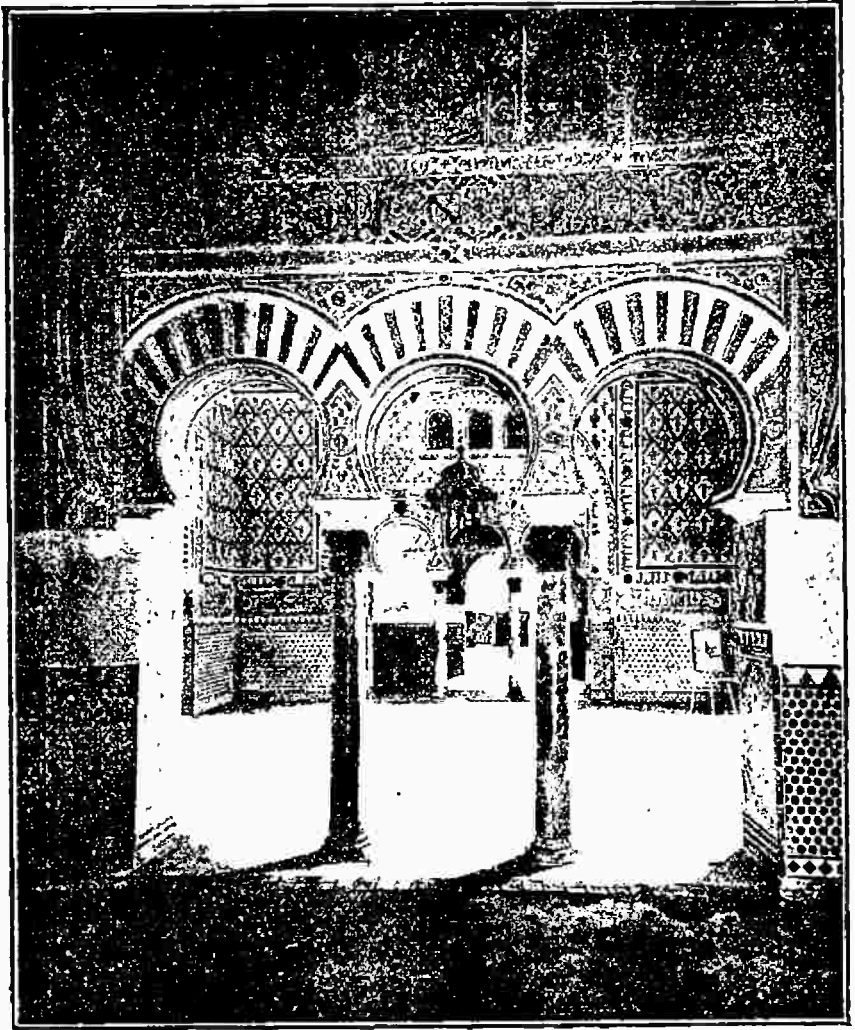
وهنا أقول ان تحويل الكنائس الى مساجد أو المساجد الى كنائس يجرح قلوب المغلوبين بما تبقى ندية التحامه طول الدهر ، وتفتقل من الآباء الى الأبناء ومن الأجداد الى الأحفاد . وأصل مصائب الدولة العثمانية وتحرش نصارى أوربا بها هو تحويلها كنيسة أيا صوفيا إلى مسجد . واذا كانت المساجد كلها لله والدين كله لله نفير للناس أن يتركوا للناس حريتهم فى تعبدهم . والانكابر لم ينجحوا فى استعمارهم إلا باتباعهم هذه الطريقة واحترامهم لمقائد المستعمرين ، على أن لهم فى مصر زلة لا يريد الشعب أن ينساها وهى اطلاقهم الرصاص على الأزهر وقت

الفتنة كما أنه لا يريد أن ينسى لنا بليون بونابرت ربطه الخيل في صحن
الأزهر على أثر ثورتهم على الفرنسيين أيام احتلالهم لمصر .

الطراز (القصر)

الكازار أو القصر هو بناء كبير يدخل اليه من بهو واسع مسقوف
في وسطه صفان من أعمدة الرخام وليس فيه شيء من الزخرفة ولا من
الفن ، وتنتهى من المين الى دهليز يوصل الى باب في يمينه ، له حوش فيه
بحيرة صغيرة من الرخام تحيط بها زهرية جميلة . ومن دونها قاعة عالية
مربعة الشكل كل ضلع منها عشرة أمتار وارتفاعها نحو ١٥ متراً قامت
عليها قبة من الخشب الجميل الصنع وحوائطها منقوشة من أعلاها بنقوش
جصية ، فيها (مقرنصات) جميلة مختلفة الشكل وفي أعلاها مناوور متصلة
بالجو مباشرة للنور والهواء ، وفي كل جهة ثلاثة مناوور . وفي ظنى أن
هذه القاعة كانت مكان انتظار الزوار .

وينتهى ذلك الدهليز بباب إلى حوش كبير ، ومن جهته اليسرى
باب عظيم من الخشب البديع الصنع يبلغ ارتفاعه نحو ٨ أمتار . ووجهة
هذا المدخل تبلغ ١٥ متراً طولاً في ٢٥ متراً ارتفاعاً وكلها بالنقوش الجصية
الجميلة ، تخللها الأذهنة المختلفة وقد وشيت بالذهب مما جعل لها منظراً
هو نهاية الفخامة . وربما كانت هذه الوجهة فذة في بابها نادرة في مثالها .
ومن وراء هذا الباب بهو بديع جداً فيه كثير من النقوش المختلفة
وهو يقضى إلى حوش يكتنفه ممشى يحيط به أربعون عموداً من الرخام
تحمل حنايا يقوم عليها سقف المشى . وهنا ترى النقوش الغريبة في السقف
وحوائط الحوش ، وتجد في أسفلها (وزرة) من القاشاني الجميل على



قاعة السفراء باشبيلية

ارتفاع نحو مترين . وفي هذا الحوش باب يؤدي إلى قاعة الاستقبال .
 وقاعة الاستقبال ويسمونها قاعة السفراء مربعة الشكل وارتفاعها
 نحو ٢٠ متراً وكل ضلع منها لا يقل عن ١٢ متراً قامت عليها قبة من
 الخشب البديع الصنع من تحتها مناوور في كل جهاتها ، ومن دونها ثلاثة
 أطباق متصلة بالدور العلوى من القصر ، وفي كل جهة من جهاتها ماعدا
 جهة الباب عمودان من المرمر يحملان مع الحائط الذى يليها مقصورة
 جميلة . ويحيط بهذه القاعة خلف هذه المقاصير بهو عظيم : والقاعة والقبة
 والأبهاء الثلاثة آيات من آيات الله فى جلالها ونفامتها وبديع صنعها
 وجميل نقوشها الذهبية التى تغلظها الأدهنة الحمراء والزرقاء والخضراء :
 بما يقف أمامها الأنسان مبهوراً : فيبنا يدهشك هذا الجدار بعظمته
 يجذبك الجدار الآخر بفخامته ، فيستهويك الثالث بكمال جماله ،
 فيستلفتك السقف ببديع مثاله . وبالجملة ليس فى الامكان أن يتخيل الجنان
 أو يصور البيان مقدار ما فى هذا المكان من العظمة والفخامة .

وهذا القصر على الشكل الذى بناه عليه العرب خصوصاً فى زمن
 ابن عباد ، لولا أن مساحته الآن على نصف ما كان عليه فى مدتهم ، لانه
 كان يتصل بمنارة الذهب الموجودة على نهر الوادى الكبير مما يلى
 (الجرك) المكس وينتهي الآن مبان واسعة . وينسبون شيئاً من أبنيته
 الحالية إلى الملك (بتر) الأول الملقب بالقاسى . ولكنهم لم يحددوها
 لنا . وعلى كل حال أن هذا الملك استقدم عمالاً من العرب بنوا القسم
 الذى بناه فى القصر أو قاموا بالاصلاح الذى أتمه فيه وذلك من سنة
 ١٣٥٠ الى سنة ١٣٧٠ م

وقد حدث فيه اصلاح وترميم أيضاً في زمن فرديناند وايزابيلا .
وفي سنة ١٦٢٤ أصلحه جميعه فليب السادس بوساطة فنانين من البقية التي
بقيت في البلاد من العرب وكان نصيبهم بعد ذلك أن طردهم من أرض
أسبانيا بحال شنيعة حتى تخلو البلاد من شيء اسمه عرب : وكان جزاؤهم
جزاء ستمار بعد أن بنى للنعمان قصر الخورنق ، فلما رآه من العظمة بمكان
أمر بيده فقطعت حتى لا يبني مثله غيره ، ولكنه عوضه عنها بأموال
حجة حفظت حياته وحياة أسرته : وهذا العمل وأن كان قاسياً عمل فردى
وفيه شيء من العوض : أما عمل الأسبان فهو ضد أمة بتمامها دعا اليه
التعصب الديني الذي لا يعرف شفقة ولا رحمة !!

والجهة الأخرى من مدخل القصر تنتهي الى بستان عظيم جداً في
نظامه وترتيبه ، وبعضه عال وهو للأزهار وفيه بحيرة واسعة من الرخام
طولها ٢٠ متراً ، وعرضها ١٥ متراً ، وعمقها ٣ أمتار . وكانت حمام الملك
الخصوصى ويسمونها البركة .

أما البستان الواطى فتنزّل اليه بعدة درجات رخامية وفيه من كل
فاكهة زوجان . وبه باب في بناء القصر يوصل الى بحيرة بالخافق (الفافق)
في داخله طولها نحو ٥٠ متراً وعرضها نحو ٨ أمتار : وهى حمام النساء .
وقد أخبرنى مرشدى أنها كانت تستحم فيها مائة غانية مرة واحدة مدة
ملوك العرب ، ولكنه لم يقل كم عادة كانت تستحم فيها من هذا الجنس
اللطيف مدة ملوك الأسبان .

قصر بيلاونس

بدأ بناء هذا القصر الدهر . بدو سنة ١٤٩٢ وأتمته ورثته في أزمان

مختلفة وهو الآن يملكه واحد من هذه الأسرة الشريفة ويدخل اليه بأجر زهيد .

ولقد كنت أود أن أكتب كلمة عن هذا القصر الفخم الذى وشيت جميع حوائطه الداخلية بالنقوش العربية ، وبرزت سقوفه فى حلتها المختلفة الألوان والأدهنة بحسن صناعتها التى تدهش الأبصار ، لولا سبق زيارتى للقصر (الكازار) الذى لم يبق بعده كلمة لقائل ولا وصف لواصف . على أنى زرت فى هذا القصر جملة قاعات وأبهاء فيها من النقوش المختلفة ما يدهش الأبصار ، ولا سيما المكتب الخصوصى وقاعة الحكم : ولعلمهم كانوا يقضون فيها على الناس ، أيام كانت الأحكام على الشعوب البائسة بين شفاه الأمراء والرؤساء . وباجملة هذا القصر آية من آيات الصناعة والفن سواء أكان ذلك فى نقوش حوائطه وسقوفه أم فى القاشانى الثمين الذى يكسو حوائطه إلى ارتفاع مترين تقريباً . هذا كله فى طبقته الأرضية أما الطبقة العلوية فهى خاصة برب المنزل ولا يسمح بزيارتها لأحد .

وأهم شوارع المدينة من خارجها شارع البرادو وهو على نظام البرادو فى مدريد تقريباً ، ترى فيه كثيراً من القهوات والمتنزهات التى يقصدها الناس فى المساء أيام الصيف على الخصوص لقضاء شطر من الليل هناك فى الهواء الخالص ، وكثيراً ما ترى الأسرة منهم تجلس الى ناحية من المتنزه وتتناول عشاءها البسيط الذى أتت به معها . ومما أعجبنى جداً انى أردت أن أدخل فيه قهوة جميلة مفتحة المنافذ من كل جهة وبها تمثيل (بالخيالة) فاعترضنى الحارس بما فهمت منه أنها خاصة بالأسرات ولا يدخلها رجل بمفرده . فعدت وأنا معجب بهذا النوع من الحجاب الذى

يحفظ به كيان الأسرات من جميع آفات المدينة المطلقة والتي لا حد لها . وقد وجدت في هذه الجهة التين الشوكي يباع مقشورا وهو ما انتقدته . تعرضه للتراب والذباب . ويظهر أن المسائل الصحية غير معتنى بها في هذه البلاد . فقد رأيتهم يبيعون الفاكهة وكثيراً ما تكون عاطبة وعفنه . وقد شاهدت غير مرة الخيل تجر العربات مع ظلمها وهزلها من غير شفقة ولا رحمة كما رأيت في الصحراء أكثر من مرة رجلين يركبان حمارا مهزولا يكاد ينوء بحملها !!

وشارع البرادو ينتهى إلى (البارك) وهو بستان عظيم كبير جميل التنسيق والتحديث . وفيه أشجار الفلفل والبرتقال والتارنج والنخل المختلف الأنواع مما لا يشر بهذه البلاد وان أثر فلا يتم نضجه . ويكثر الرش في هذه المدينة وخصوصاً خارجها لانهامة التراب وقتل الحر الذي لا يزال مستمراً إلى الساعة العاشرة مساء .

وأهل هذه المدينة بصفة خاصة والأندلس بصفة عامة يستسلمون إلى التساؤم والتفاؤل وأظنهما من ميراث العرب . وقد ترى في أغلب الطنوف الجميلة جريدة من النخل على طولها لمنع تأثير العين . وهم يهتمون كثيراً بأوراق اللوتوريات (النصيب) .

واشبهيلية لها عيد في الاسبوع المقدس من كل سنة في (أبريل) ، فتجد سكان جميع الجهات المحيطة بها يقصدونها زرافات بلباس مخصوصة . يضاء في الغالب ومزركشة بالمقصبات وغيرها من التطايرز الحريرية . الكثيرة الألوان ، ويسرون في الطريق بهيئة مواكب كبيرة حاملين صورة العذراء مجلدة مذهبة وهم يرقصون ويتغنون ويلعبون حتى يصلوا الى

الكاتدرائية (الكنيسة الكبرى) ، وتستمر هذه الحركة ثلاثة أيام .
وفي هذه الأثناء ترى لهم أسواقاً يقيمونها في هذا الفضاء الواسع الذي
يكتنف (البرادو) من جميع أطرافه . وترى لهم في كل نقطة من هذه
الجهة مساكن من خشب أو خيم مختلفة الأشكال والأوضاع . وترى
في هذه المنطقة هنا وهناك مغاني ومراقص وأمكنة لمصارعة الثيران
وملاعب وملاهي مختلفة . والبراد هو المركز العمومي للمراكب
الكهربائية في المدينة

ويقصد اشبيلية في ذلك الوقت آلاف الآلاف من سياح أوروبا
وأريكا فتكتظ بهم المدينة الى درجة لا يتيسر معها للانسان المشى في
شوارعها الا بكل مشقة . وهم يحجزون مكان مبيتهم أو محل اقامتهم في
الفنادق أو المساكن قبل هذا الوقت بشهرين أو أكثر . وهناك شركات
تقوم بتجهيز كل ما فيه راحة السياح لهذه الزيارة في كل جهة من
جهات أوروبا

وبلدية المدينة تعد الآن معرضاً خارجها لسنة ١٩٢٨ ، وبينه وبين
(البارك) خليج من نهر الوادي الكبير . وهذا المعرض على قسمين :
قسم اسباني وهو آية في فخامته ، وشكله من جهة البستان نصف دائرة
واسعة الأطراف آية في الجمال . ووجهتها كلها من الصناعة العربية
البديعة المنقوشة بالذهب والألوان المختلفة والتي أخذوها من الأشكال
العربية الموجودة في (القصر) الكازار وغيره . وتكثر الأعمدة الرخامية
في مداخل المعرض من هذه الوجهة ، كما تكثر صناعة الفسيفساء فيما
يلي هذا القوس العظيم . أما أشغال القاشاني التي عملت منها القناطر التي

على هذا الخليج من أراضيها وسلاسلها ودرازيناتها فشىء من الابداع يحار فيه وصف الواصف . وقد قام على طرفي هذا القوس مناران على شكل المآذن الاسلامية المربعة . وهذا القسم من داخله مقسم الى أقسام كثيرة للمعروضات .

أما القسم الثاني فأمريكانى وهو مركب من جملة مباني منفصل بعضها عن بعض ، وهو أيضا من خارجه جميل المنظر وعلى النظام العربى . ومن هذا ترى أن أثر هذه الصناعة البديعة لا يزال فى هذه البلاد بحال تشرح الخاطر وتسر الناظر وهو من الدقة بحيث يحود فيه هذا الفن كل الاجادة .

للمبرة والتاريخ

لما دالت دولة الأمويين والعامريين من قرطبة ، واقتسمت الأندلس ملوك الطوائف ، أخذوا يبنون لأنفسهم وهم فى شباب دولهم مجداً أثيلاً وذكرًا جليلًا بما كان لهم من علم وفضل وكرم . وكان فى مقدمة بلادهم اشبيلية لما كان فيها من واسع العمران وناصع الحضارة وجليل الأمانة فى زمن بنى عباد الدين راجت سوق العلم والأدب فى دولتهم ولا سيما أيام المعتمد آخر ملوكهم فقد كان أوسعهم حزمًا ، وأكبرهم همًا ، وأكثرهم كرمًا ، وأعظمهم سلطانًا .

ولقد كان بعواصم الأندلس منتديات علمية يتداولون فيها العلوم المختلفة ، وكان ملوكهم يعملون على نشرها فى دوائر حكمهم . وكثيرا ما كانوا يحتفلون فى مجالسهم الخاصة بالعلم والعلماء ويفيضون عليهم من

نعمتهم . فكان اعزازهم للعلم من أكبر الأسباب التي دعت الى نشره بين الناس على اختلاف طبقاتهم . لذلك كانت البلاد في مدتهم فياضة برجال العلم غاصة بنبؤى الدراية والعرفان وخصوصا اشبيلية التي ظهر في أفقها كثيرون ممن ذاع فضلهم وعلمهم في المشرق والمغرب . وكانت ملوك الأندلس يستقدمون أكابر علماء المشرق ويعقدون لهم المجالس للنظر مع علماء بلادهم ويفيضون نعماءهم على المبرزين منهم . وكان أهل اشبيلية يشتغلون بالأدب خاصتهم وعامتهم . وكانت لهم منتديات يتذاكرونه فيها . وكانت لهم متزهات يخرجون اليها في وقت راحتهم من عملهم كما هو الحال في البلاد المتمدينة الآن . وكانوا يتبادلون فيها كل ما راق لهم من الحديث من قديم وحديث :

ومن ذلك أن عبد الجليل بن وهبون المرسى الشاعر أعد نزهة لأصحابه بوادي اشبيلية أقاموا فيها يومهم حتى إذا دنت الشمس الى الغروب هب نسيم ضعيف غضن وجه الماء فقال مرتجلا :

حاكت الريح من الماء زرد —

ثم قال لأصحابه أجيروا . فقال على بن رباح :

أي درع لقتال لو جد

وهذا من أرق ما أتت به البديهة ومن أحسنه وأبلغه

ومن أحسن بديهات العامة أن الوزير ابن عمار مر على دكان قصاب فقال له

لحم سباط الخرقان مهزول —

فأجابه القصاب من فورهِ :

يقول للمفلسين مة زولوا

ومنها أن ابن عمار مر على دكان ابن جامع الصباغ فأراد أن يعلم
سرعة خاطره وكشف عن ساعده قائلاً :
ما بين زند وزند —
فقال الصباغ من فوره :

ما بين وصل وصد
فمجب الوزير من حسن ارتجاله وكان هذا أول التنويه باسمه .
ومن هذا تعلم أن الأدب في الأندلس لم يكن محصوراً في المشتغلين
بصناعته بل كاد يكون عاماً بين الناس . وقد ورد في ياقوت عند كلامه
على مدينة شلب ما نصه :

وسمعت ممن لا أحصى أنه قال (قل أن ترى من أهلها من لا يقول
شعرا ولا يعانى الأدب ولو مررت بالقلاح خلف فدانه وسألته عن
الشعر قرض من ساعته ما اقترحت عليه وأى معنى طلبته منه)
وهنا نذكر لك شيئا عن الخاصة في مجتمعاتهم : فقد صنع المعتمد بن
عباد قسيما في القبة المعروفة بسعد السعود فوق المجلس المعروف
بالزاهى فقال :

سعد السعود يتيه فوق الزاهى —

واستجاز الحاضرين فقال ولده الرشيد :

وكلاهما فى حسنه متناهى

ومن اغتدى سكنا لمثل محمد قد جل فى العليا عن الأشباه

ما زال يبلغ فيهما ما شاء ودهت عداه من الخطوب دواهى

وهذا العمرى من أطف البدييات وأظرفها .

ومنها ان ابن عباد خرج للنزهة بظاهر اشبيلية في جماعة من ندمائه
تم أخذ في المسابقة بالخيول ، فجاء فرسه سابقاً إلى شجرة تين أينمت
وبرزت منها ثمرة ، فسددها إليها عصاه فأصابها وتثبتت على أعلاها . فالتفت
إلى من لحقه من أصحابه وقال أجيروا :

كأنها فوق العصا —

فأجاب ابن جامع الصباغ من فوره :

هامة زنجي عصى

فطرب المعتمد لسرعة بديته وأمر له بجائزة سنية .

ومن هذا تعلم مقدار عناية أمراء الأندلس في مجالسهم بالعلم
والأدب وكيف كانوا رجعهم الله يشحذون القرائح بطلبهم الى الناس
اجازة أقوالهم أو تكليفهم الكلام في شأن من الشؤون ، ويجيزون
المبرزين فيها : ففسح العلم في ديارهم وطلعت شمس الأدب في فلك بلادهم
حتى شملت الصغير والكبير والنساء والرجال .

وقد كان كرم بنى عباد يساعد على رقي العلم في عمومه والشعر في
خصوصه ، ولم يكن ذلك في دائرة ملكهم فحسب ، بل كان يقصدهم
الناس بمدائحهم من جميع الآفاق : فكانت اشبيلية في مدتهم كمبة القاصدين
من المجيدين ، والسماء التي تطلع فيها دراري الأفكار ، وشموس الابتكار .
واني أكتفي بأن أقص عليك ما ذكره الحافظ الحجازي في المسهب
عن عبد الله بن ابراهيم الذي قال : قصدت المعتمد بن عباد وهو مع أمير
المسلمين يوسف بن تاشفين في غزوته المشهورة للإسبان فرفعت له
قصيدة منها :

لا روح الله سربا في رحابهم وان رموني بترويع وابعاد
 ولا سقام على ما كان من عطش الا يبعض ندى كف ابن عباد
 ذى المكرمات التي مازلت تسمعها أنس المقيم وفي الأسفار كالزاد
 ياليت شعري ماذا يرتضيه لمن ناداه ياموئلي في جحفل النادى
 فلما انتهيت الى هذا البيت قال : أما ما أرتضيه لك فإست أقدر
 عليه في هذا الوقت ، ولكن خذ ما ارتضى لك الزمان ، وأمر خادما له
 فأعطاني ما أعيش من فائدته الى الآن . وكنت ممن زاره في سجنه بأغمت
 وحملتني شدة الحمية والامتناع لما حل به أن كتبت على حائط
 سجنه متمثلا :

فان تسجنوا القسرى لا تسجنوا اسمه^(١) ولا تسجنوا معروفه في القبائل
 ثم تفقدت الكتابة بعد أيام فوجدت تحت البيت - « لذلك سجنه »
 ومن يحمل الضرغام في الصيد بازه تصيده الضرغام فيما تصيدا
 أما شعر المعتمد وبنيه فقد وصل إلى مكانة عالية ، وفي قلائد العقيان
 جملة صالحة منه ترى منها مقدار سمو كعبهم في الأدب من شعر ونثر
 يصعد بهم إلى مستوى أعظم الشعراء والكتاب ، وتعرف منه حالهم
 من الرفه ونعيم السلطان مدة حكمهم .

وكانت أشبيلية مدة ابن عباد عاصمة العواصم الأندلسية . ومظهر
 المدنية الراقية ، فكان فيها واسع الدور وعالى القصور وفي محالها العمومية

(١) القسرى (خالد بن عبد الله بن يزيد البجلي القسرى كان أمير العراقيين من قبل هشام
 ابن عبد الملك وولى قبل ذلك مكة سنة ٨٩ ثم عزل عن العراقيين سنة ١٢٠ وولى مكانه يوسف
 ابن عمر الثقفى فحبس خالداً) ولما كان في سجن يوسف مدحه أبو الشعب العبسى بأبيات في الحماسة
 منها البيت المذكور) وتوفى سنة ١٢٦

التماثيل المرمية كما هو الحال الآن في البلاد المتدنية . وفي بعضها يقول
شاعرهم :

ودمية مرمر تزهو بجيد تناهى في التورد والبياض
لها ولد ولم تعرف حليلا ولا ألت بأوجاع المخاض
وتعلم أنها حجير ولكن تقيمنا بالحفاظ مراض

وكانت اشبيلية مشهورة بكثير من الصناعات وخصوصا النسيج
وعمل الأسلحة والسفن وحرف البناء التي اتسع بها عمرانها في مدة بنى
عباد . وكانت ضواحيها كلها رياض رياحين وجنات أنمار ، تنساب في
نواحيها جداول الماء ، وتنمقد في أرجائها أندية السرور والهناء ، وهنا يجمل
بنا أن نذكر لك كلمة عن تاريخ بنى عباد :

يتصل نسب بنى عباد بالنعمان بن المنذر ملك الحيرة . وأول من
نبغ منهم في الأندلس هو محمد قاضى اشبيلية جد المتمد . وكان الناس
يحبونه لفضله وعدله ولطفه وظرفه وأدبه وحسن سياسته . وآل أمره
الى أن انتخبه أهل البلاد سلطانا عليهم لسوء سيرة المستعلى بن حمود ملك
قرطبة ، وكانت اشبيلية تابعة له ، وتسمى بالظافر . ولم يزل باشبيلية حتى
مات سنة ٤٣٣ هـ . وخلفه ابنه المعتض بالله عباد وقد جاء في بعض أوصافه
في ابن خلكان مامناخصه : كان سبط البنان ثاقب الذهن حاضر الخاطر
صادق الحديث وقد أعطته سجيته ماشاء من تحيير الكلام وقرض الشعر
الى أن قال : وأخبار المعتض في جميع أفعاله وضروب أبحاثه غريبة بديعة
وكان كلفا بالنساء فاستوسع في اتخاذهن ، وخلط في أجناسهن ، فانهى في
ذلك الى مدى لم يبلغه أحد من نظرائه .

ومن شعر المعتضد الذي يعطيك من شخصه صورة صادقة قوله :

شربنا وجفن الليل يغسل كلّه بماء صباح والنسيم رقيق
معتقة كالتبّر أما بخارها فضخّم وأما جسمها فدقيق
ومن قوله سامحه الله :

وليل بسد النهر أنسا قطعته بذات سوار مثل منعطف النهر
نضت بردها عن غصن بان منعم فياحسن ما انشق الكمام عن الزهر
وتوفى المعتضد سنة ٤٦١ هـ وقام بالملك بعده ولده المعتمد ، وكان
أندى ملوك الأندلس راحة ، وأرحبهم ساحة ، وأعظمهم ثمادا ، وأرفعهم
عمادا ، ملقى الرحال ، وقبلة الآمال ، لم يجتمع يباب أحد من ملوك عصره
من أعيان الشعراء وأفاضل الأدباء ما كان يجتمع يبابه ، وكان المعتمد
شاعراً أديباً ومن شعره :

لولا عيون من الواشين ترمقني وما أحاذره من قول حراس
لزرتكم لا أكفيكم بنفوتكم مشياً على الوجه أو سميّاً على الراس
وجاء في ابن خلكان أن المعتمد عزم على ارسال حظياه من قرطبة
إلى اشبيلية فخرج معهم يشيعون فسايروهم من أول الليل إلى الصبح
فودعهم ورجع وأنشد أبياتاً من جملتها :

سايروهم والليل أغفل ثوبه حتى تبدى للنواظر معلما
فوقفت ثم مودعاً وتسلمت مني يد الاصباح تلك الأنجما
وعلى كل حال انه اذا كان المعتمد قد أعطى لنفسه ما طاب لها من لذاتها
وشهواتها فقد كان فيه من العقل والدهاء والكياسة والشجاعة وكبير
الهمة وعظيم الصفات ما جعله أكبر ملوك الأندلس في وقته ملكاً ،

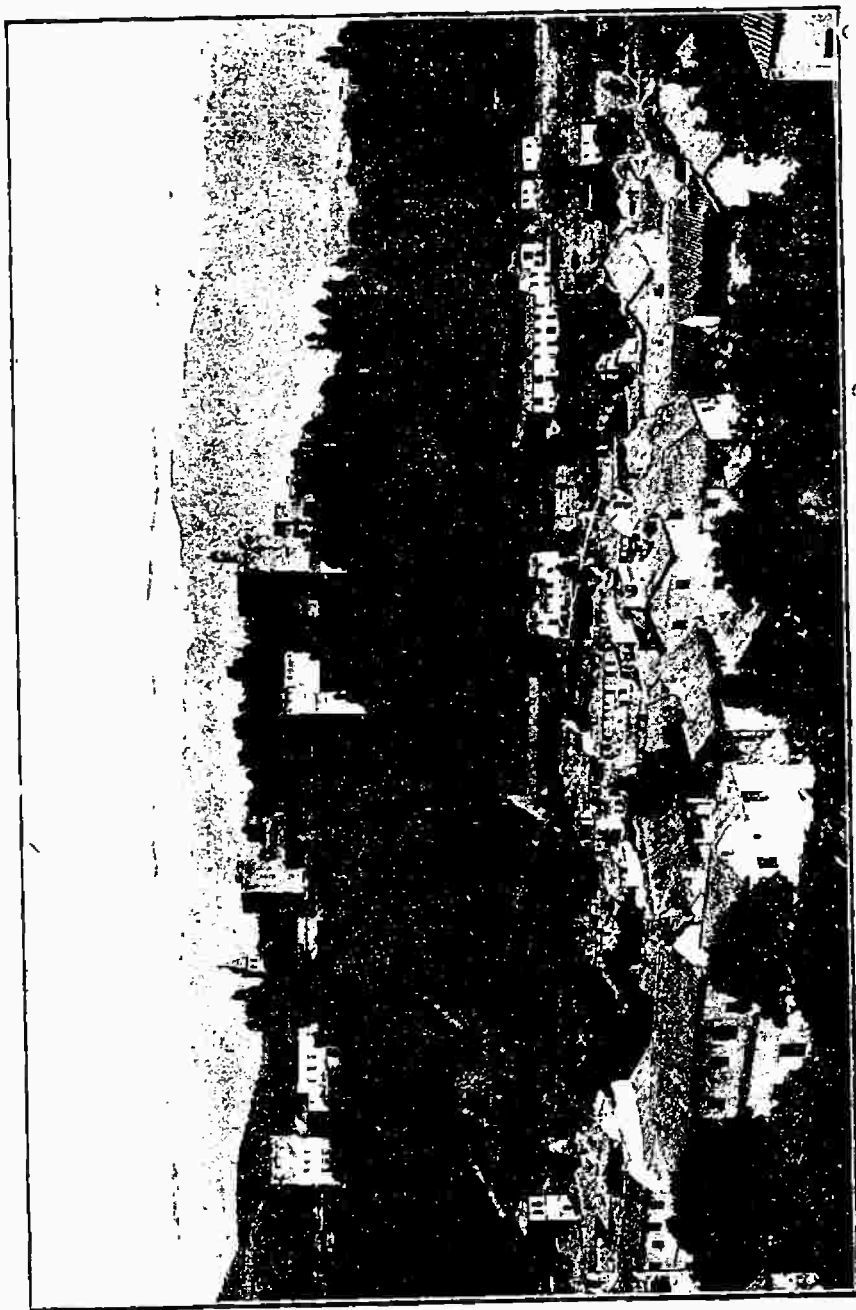
وأفقدتم رأيا، وأعظمهم سلطانا . وقد استعان على مدافعة الاسبانيين بابن
 تاشفين ملك المغرب وقال حين حذر من خطر اجتياح ابن تاشفين للملكة
 كلمته الخالدة « رعى الجمال خير من رعى الخنازير » ولكن ابن تاشفين
 فتنك به آخر الأمر فأمره وأرسله الى أغمات وهى بلدة وراء مراکش
 بينهما مسافة يوم بالقافلة وهو ما يقرب من خمسين كيلو متراً . ومما قال
 فى قيده وهو فى محبسه بها :

قيدى أما تعلمنى مسلماً أبيت أن تشفق أو ترحما
 دى شراب لك واللحم قد أكلته لا تهشم الأعظما
 ومات المعتمد فى محبسه سنة ٤٨٨ هـ . وقد رثاه الشعراء بقصائد مطولات
 أنشدوها على قبره ومنهم شاعره أبو بكر بن عبد الصمد رثاه بقصيدة
 طويلة قال فى أولها :

ملك الملوك أسمع فأنادى أم قد عدتلك عن السماع عوادى
 لما نقلت عن القصور ولم تكن فيها كما قد كنت فى الأعياد
 أقبلت فى هذا الثرى لك خاضعاً وجعلت قبرك موضع الأنشاد
 وهذا لعمرى أكبر شئ . فى الوفاء والشجاعة وعظم النفس فرحم
 الله ابن عباد ورحم الله شاعره أبا بكر . وإنى لم أذكر لك ما ذكرت إلا
 للعبرة بصروف الزمان وتقلب الحداث وسبحان من بيده الأمر يعز من
 يشاء ويذل من يشاء .

وقد زار قبره لسان الدين بن الخطيب فرآه على هضبة بمقبرة
 أغمات فقال :

قد زرت قبرك عن طوع باغمات رأيت ذلك من أولى المهات
 لم لا أزورك يا أندى الملوك يدا ويا سراج الليالى المدلهات
 وأنت من لو تخطى الدهر مصرعه الى حياتى لجادت فيه أبياتى
 أناف قبرك فى هضب عيزه فتدنيه حفيات التحيات
 كرمت حيا وميتا واشتهرت علا فأت سلطان أحياء وأموات
 مارى مثلك فى ماض ومعتدى أن لا يرى الدهر فى ماض ولا آت
 وقول لسان الدين هذا فى شخص مات قبله بثلاثة قرون ونصف
 تقريبا وليست له عليه أية يد ، لا كبر دليل على أن ابن عباد كان من
 أكبر الملوك وأعظمهم . ومن يطالع فى الجزء الثانى من نفع الطيب على
 هذه الجملة « وبسبب قتل بنى عباد لأبى حفص الهوزنى تسبب ابنه ابو
 القاسم فى فساد دولة المعتمد بن عباد وحرّض عليه أمير المؤمنين يوسف
 ابن تاشفين حتى أزال ملكه وشرّ سلكه وسبب هلكه رحمه الله » ، ير أن
 هذا الملك العظيم قضى بيد الخشونة والظلم فريسة السعاليات والوشايات
 الدينثة .



مناظر مدينة غرناطة وفي أعلاها قصور الحمراء من البسار وقصر جبرائيل من اليمين

الرسالة الخامسة

من اشبيلية الى غرناطة

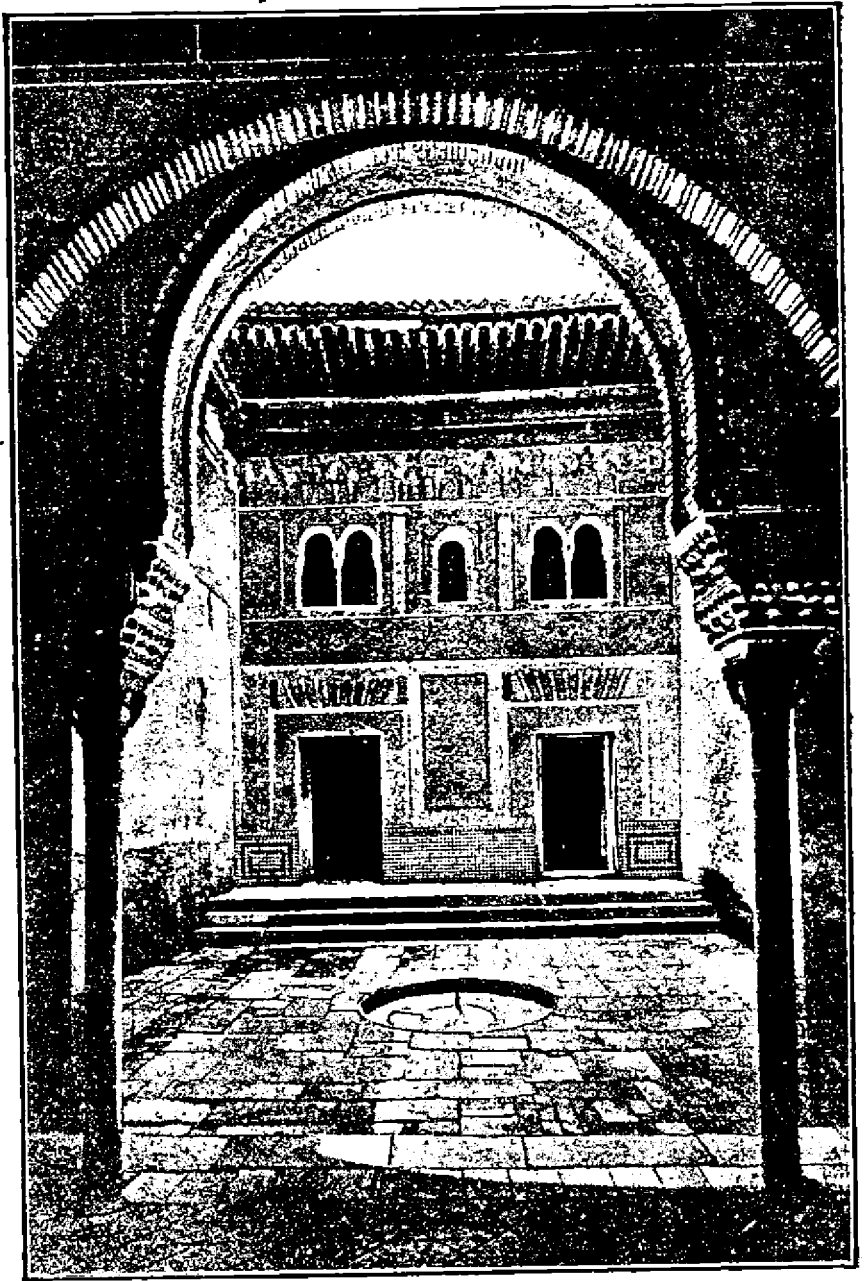
قام القطار من اشبيلية الساعة العاشرة صباحا واتجه الى الجنوب الشرق في أرض تكثر فيها المزارع وغابات الزيتون والكافور ومروج الخضر تنخلها أشجار الفاكهة من برتقال ونارج وتين وليمون . وقد يكثر على حافتي الطريق التين الشوكي والصبار ونبات الخلّة وشوك القرطم ، وعلى كل حال الزراعة هنا شتوية أكثر منها صيفية : أعني انها تنحصر في القمح والفلول وما اليهما ، وهي بوجه عام أشبه شيء بزراعة الحيطان عندنا قبل أن يدخل عليها النظام الصيفي . وتربة هذه الجهة جيدة وأرضها مسطحة ولا بد أنه كان فيها مدة العرب نظام للري أهمل بعدم وبقيت زراعتها لاتسقى الا مرة واحدة قبيل الزرع ، وهي أشبه بما يسمونه عندنا الزراعة البعلية . ويختلف أملك معدن الأرض فطورا تراه حديديا ويزرعون فيه كروم العنب ، وطورا تراه طفليا ويزرعون فيه الفاكهة ، وكلما قربت الى الشرق كثرت أنواعها من مشمش وكثري ورماني وخوخ وتقاح ، وتري معدنها اسود ويزرعون فيه الخضر والبطيخ والقاوون وهما من أحلى شيء في نوعهما .

والسفر من اشبيلية الى غرناطة صعب جداً بالسكة الحديدية من كل وجه : لأن عرباتها قديمة وهي أشبه شيء بعربات خطوط الشركات الضيقة عندنا . ومع ان المسافة بينهما ٢٨٨ كيلو متر يقطعها القطار في أكثر من عشر ساعات ، وليس فيه عربة للأكل ، وقد يقف القطار

كثيراً في بعض المحطات انتظاراً لقطار ثان آت من طريقه أو من طريق آخر ، ولا ترى في المحطات إلا باعة الماء في الغالب . وكلما اتجهت إلى الشرق وجدت من يبيع شيئاً من الفاكهة خارج سياج المحطة . وبالجملة الماء هنا هو أول شيء يحتاج إليه الإنسان في كل وقت لشدة الحرارة . وقد كنت أحسبني قليل الشرب جداً حتى في مدة الصيف ، ولكنني هنا أراني أكثر من الشرب في كل وقت مدفوعاً بشدة العطش . وقد تحدث شدة الحرارة هنا تهيجاً في الحلق والحنجرة ، فترى الناس يبصقون كثيراً في الطريق وغير الطريق من غير مبالاة ، مما لا تراه إلا نادراً في البلاد المتعدنة ، بل قد يكون سبباً في تهيج الشعب فيكثر السعال .

وفي الساعة الثالثة بعد الظهر تقابل قطارنا بالقطار الذي قام من غرناطة في محطة اسمها روضة الأندلس LA RODA DE L'ANDALOUSIE ولهذا نصيب من اسمها ، لأن النظر إذا اتجه فيها إلى جهة لا يرى غير غابات الزيتون ومروج الفاكهة والخضر ، ولا شك أن هذه الجهة هي أخصب أرض إسبانيا الوسطى الجنوبية : لذلك تكثر فيها المدن ويظهر العمران . وفي الساعة الرابعة وصلنا إلى مدينة BOBADELE ولعلها « أبي عبد الله » ومنها يتفرع خطان آخران : واحد إلى مالقة والآخر إلى الجزيرة الخضراء وجبل طارق .

ومازلنا سائرين حتى إذا كنا على بعد ساعة من غرناطة ابتدأت الزراعة تكسو أنس الوادي كله ، وبدأت لنا جداول الماء تظهر بكثرة بعضها مبني وبعضها محفور ، يغذيها نهر شنيل من اليمين ونهر دارو (حدارّه كما كانت تسميه العرب) من اليسار : بحيث لا تقع العين إلا



وجهة المسجد الخارجى بالجماء

على مروج ناضرة ورياض زاهرة ترى فيها الذرة والبنجر والخضر وأشجار
 الفاكهة والدخان الهاقنى بشكله الجميل وهو رخيص جداً فى هذه البلاد:
 وهنا خطر يبالى كيف ان الحكومة المصرية الدستورية لا تزال تحجر
 على حرية الناس بمصر فى زراعة الدخان . فان قيل ان زراعته تقلل من
 ايراد المكوس (الجمارك) قلنا بإمكان فرض ضريبة على زراعته نعوض
 على الحكومة ما تخسره من عدم وروده من الخارج وتعود على الأهالى
 وخصوصاً أصحاب الجزائر التى لاتصلح إلا لزراعته بالفائدة التى لا يزالون
 يرجونها من انتاجه . وفى الساعة الثامنة مساء وصل القطار الى غرناطة

غرناطة

هى مدينة واقعة فى الشمال الغربى من جبل شلير أحد حلقات
 جبال سيرا نوفادا ، وعدد أهلها الآن ٨٠ ألف نفس . ويقطعها نهر دارو
 الذى ساقه اليها العرب من هذا الجبل . وفى جنوبها نهر شنيل الذى
 يروى مادونها من الأراضى الواسعة الجميلة التى يسمونها بالمرج : وذلك
 بواسطة الترعى التى سيرتها بها العرب ، ونظام الرى الذى أنشأوه فيها .
 وهو قائم الى الآن بوظيفته فى هذه الجهة التى لا تزال من أخصب بلاد
 اسبانيا . وأبنية المدينة القديمة على الشكل القوطى فى شوارعها الضيقة .
 أما شوارعها الكبرى فقد دخل عليها مسحة من نظام البناء الأفرنىكى ،
 ويظهر أن سبب ذلك هو أن درجة الحرارة فيها أقل منها فى اشبيلية
 وقرطبة كثيراً وذلك لكثرة ما يتخللها من مجارى المياه ويحيط بها من
 كثير الغابات والمزارع ومراقد الثلوج المستديمة التى تراها على قمم

سيرافوقادا . ومع هذا ترى شوارع المدينة غير نظيفة ويكثر فيها التراب . وبالجملة ليس فيها ما هو جدير بأن أحدثك عنه لأنها ليست بالشرقية ولا بالغربية اللهم إلا تلك الجهة الواقعة على منحدر الجبل إلى القصر ويسمونها قسم البيازين . وهذا القسم هو الباقي من مدة العرب وهو الذي ترى عليه صورة عربية جافة تكثر فيها المنافذ وليس فيها شيء من الفن ولا من جمال الشكل ، ويظهر أن حركة التجارة والصناعة في المدينة حركة لا بأس بها وخصوصاً في تجارة المحصولات الزراعية .

ولقد كانت هذه المدينة مدة العرب غاية في الجمال والجلال والفخامة . وكان سكانها مدة بني الأحمر لا يقلون عن نصف مليون من النفوس لأن سواد البلاد الإسلامية بالأندلس هرع اليها بعد سقوطها في يد الأسيبان ، وكان منهم عدد كبير من اليهود ، وكان العرب يسمونها دمشق لكثرة ماؤها ومزارعها ، وكان فيها كثير من البساتين بحيث كان للغني بالله وحده بها مائة بستان . وفيها يقول لسان الدين ابن الخطيب :

بلد تحف به الرياض كأنه وجه جميل والرياض عذاره
وكأنما واديه معصم عادة ومن الجسور المحكمات سواره
وكان يحيط بها مدة بني الأحمر سور فيه ألف وثلاثون برجاً
للمقاتلة . وكان داخل الصور مائة وثلاثون طاحونة لطحن الغلال بقوة
التيارات المائية .

والآن أذكر كلمتي عن القصر وهو كل شيء في المدينة .

القصر

وهو يشمل تلك الدائرة الكبرى التى فى شرق المدينة وفى حضن جبل شلير : وهى سور كبير داخله بستان واسع فى أعلاه من الشرق قصر جنراليف Generalif وهو لفظ لا معنى له وضع محرفاً لهذا القصر العالى الذى كان يسمى جنة الريف وبعضهم يسميه جنة العريف . وكانت ملوك غرناطة تقضى فيه فصل الصيف . ويتخلل هذا البستان غدران الماء التى تنزل إليه من الجبل وتسمع لها خريراً هنا وهناك كأنه نغمات الموسيقى حتى إنه ليخيل للانسان أنه فى إحدى رياض سويسرا الجميلة . وقد قام على منحدرات هذا الجبل المتعرجة سور مرتفع طوله ٧٢٦ متراً فيه ٢٤ برجاً على طوله حول قصر الحمراء . وفى الزاوية الغربية من بناء القصر يميل إلى الجنوب القصبة : وهى القلعة العظيمة التى هى أقدم بناء فى هذه الدائرة . بناها محمد بن الأحمر الأول . وأهم هذه الأبراج برج فالأ وارتفاعه ٢٦ متراً . وفى أقصى القصبة منارة وضع فى أعلاها جرس زنته ١٢٠٠ كيلو جرام يضرب كل ساعات الليل فى أيام السنة كلها . وفى يوم ٢ يناير وهو اليوم الذى استولى فيه القوط على غرناطة من العرب يضرب هذا الجرس باستمرار ٢٤ ساعة احتفاء بهذا اليوم الذى هو من أكبر أعيادهم إن لم يكن أكبرها .

دخلت الى هذا البستان من باب كبير وهو من بناء العرب وضع عليه من جهتيه كرة من الحجر على شكل الرمانة : وهى إشارة لطيفة لاسم المدينة . ولقد أصلح هذا الباب الملك شارل كان ووضع عليه (رنكه) ومازلنا سائرين فى طريق صاعد وسط هذا البستان الجميل إلى أن وصلنا

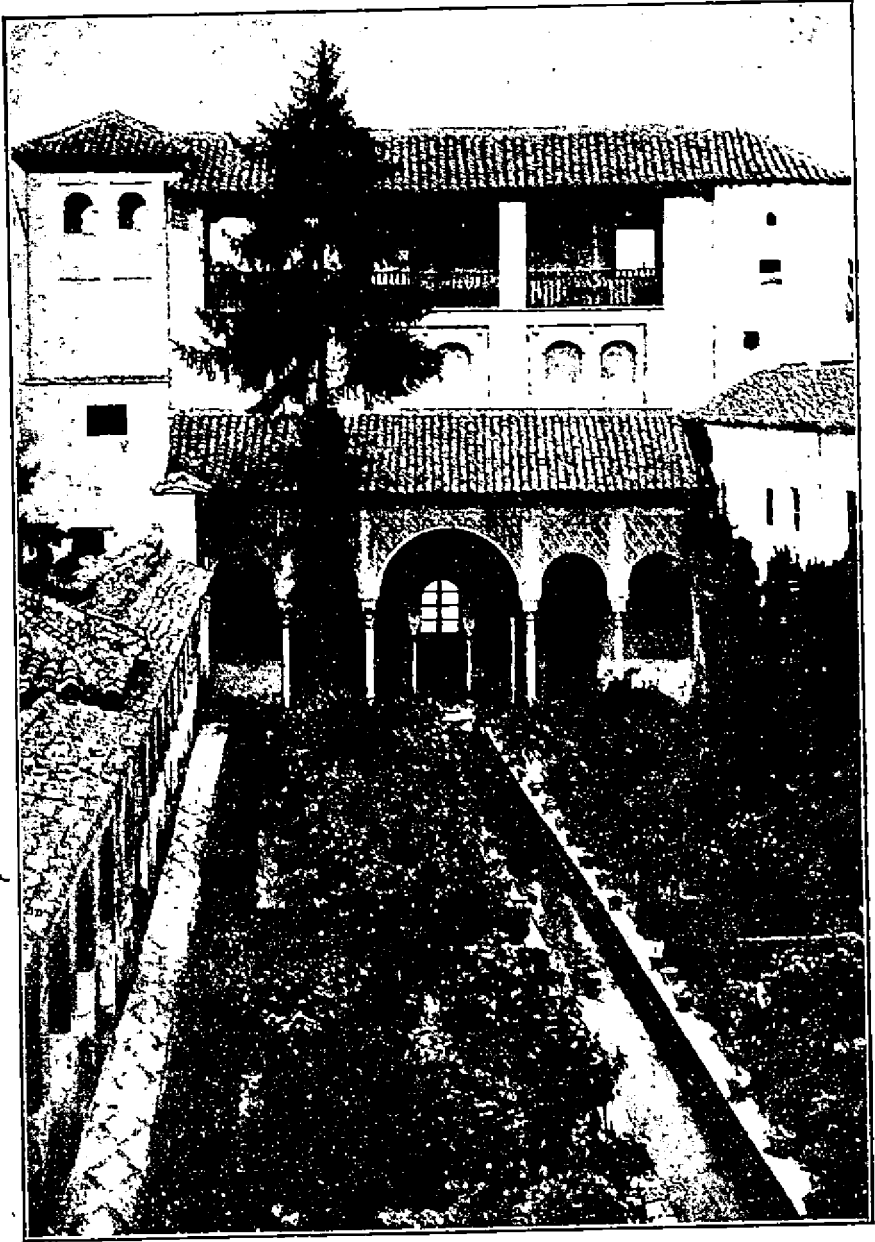
الى بناء على جهتيه هو فندق واشنجتون . ويقال أنها بنيت على المقبرة
الاسلامية للملك غرناطة . ومازلنا صاعدين والى يسارنا سورعال من
الطوب الأحمر هو سور قصر الحمراء حتى وصلنا الى باب قصر جنراليف .
وهذا القصر يتدرج بستانه الى ثلاث مناطق : كل واحدة فوق
الأخرى بيضعة أمتار يصعد اليها بواسطة سلالم من الرخام وكل بستان
منها زهرية مستطيلة في وسطها بحيرة كبيرة مستطيلة وهى من الرخام
وفى جوانبها نافورات الماء التى اذا فتحت ينفجر منها الماء على هيئة أقواس
من البوار تنتهى الى وسط البحيرة بنفثات مشجية ، واذا انعكست فيها
أشعة الشمس رأيت أقواس قزح هنا وهناك على البحيرة بشكل بديع
جداً وينتهى البستان الأول الى ايوان جميل فيه شيء كبير من الفن
ويشرف من جهة الشمال على قسم البيازين (المدينة القديمة) ومن جهة
الغرب على قصر الحمراء ، أما البستان العالى فيتصل بقصر الحرم ، وأما
الوسط فينه وبين الايوان . وفى هذا البستان شجرة من الأرز يسمونها
أرزة الملكة ويقولون ان عمرها يرجع الى سنة ١٤٠٠ ميلادية .

وبالجملة هذا القصر فى وضعه ونظامه ونضارة جنانه آية فى الابداع
وكمال الذوق مما لا يتيسر وصفه الا لشاعر أو مصور ، وهنا أرجو حضرات
القراء أن يسمحوا لى بأن أحدثهم بكلمة عن قصر الحمراء .

قصر الحمراء (١)

عم يدسألون ؟ عن النبأ العظيم الذى منه تدهشون وله تعجبون ؟

(١) وقد سمي بالمرء لان الجبل الذى بنى عليه تربيته حمراء ، وقد يكون ذلك لنسبة هذه
للقصور الى بنى الاحمر وهو أوجه . وبنيت الحمراء فى منحدر جبل شابر على ارتفاع ١٥٠ متر
من أرضية المدينة .



منظر قصر جنراليف أو جنة الريف

هذا بناء الحمراء الذي أبقت عليه الأيام ليكون نفراً لنا على ممر الأيام .
 وهل لنا من شيء تفخر به غير عمل الآباء والأجداد ؟ نعم هذا هو
 ذلك القصر التاريخي الذي سأحدثكم عنه كثيراً ولا أراني حدثكم عنه
 بشيء ، لأنني لم أفهم غير إعجابي بفخامته وحسن صناعته ، ولكن على كل
 حال أقر به إلى أذهانكم بوصف المهيم من أبنيته : وهي قاعة الحكم ،
 وحوش السباع وحوش الرمحان وقاعة الاستقبال ويسمونها قاعة
 السفراء ، ثم مسجد الملك وحمام الملك . وكانت كلها تنتهي إلى قصر
 الحرم من جهتها القبليّة ، فأزاله شارل كان وبني مكانه قصره على النظام
 القوطي : وهو في وسطه دائرة سماوية قام على محيطها ٣٢ عموداً من
 الجرانيت ، وعلى خمسة أمتار منها تقريباً حائط يرتكز عليها وعلى
 الأعمدة سقف محدب الشكل وعلى هذه الدائرة طبقة ثانية تشبه الأولى
 في شكلها ولم يكمل هذا القصر في مدة صاحبه وهم يعملون في إتمامه الآن
 وهنا نبدأ بشرح ما بقي من الآثار العربيّة التي تتصل بحال مباشرة
 أو غير مباشرة من جهتها القبليّة بقصر شارل كان : الذي ليس فيه شيء
 من الجمال وإن كان شكله الداخلي لا يخلو من العظمة والفخامة .

وأبنية هذا القصر ليست لشخص واحد من بني الأحمر بل هي

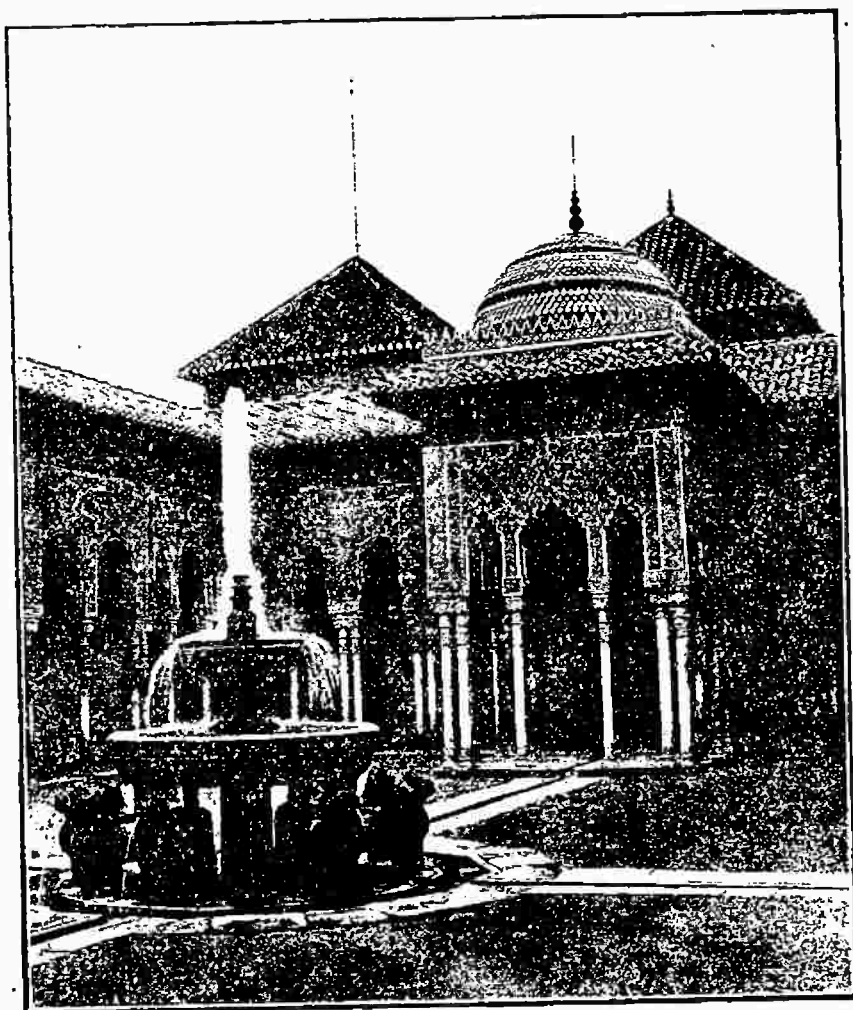
لجملة منهم

وأول ما يشاهد الإنسان منها مسجدها الخارجي وهو على صفه
 غاية في الفخامة ، ونقوشه في منتهى الجمال . وقد حوله القوم إلى كنيسة
 مدة شارل كان ، ولكن من غير أن يبدلوا شيئاً من نقوشه ولا من
 الكتابة التي على حوائطه . وهذا المسجد من بناء محمد الثاني ، وقال بعض

المؤرخين انه كان يحاط محرابه أحجار ياقوت مرصعة في جملة مانق به من الذهب والفضة . ومحرابه من العاج والأبنوس (ولكنى لم أر شيئاً من ذلك)

أما قاعة الحكم أو قاعة العدل فقد بناها السلطان يوسف الأول في أواخر القرن الرابع عشر : وهى مربعة الشكل ، طول كل طلع منها ١٥ متراً وارتفاعها عشرون متراً ونصف متر وحوائطها جميعاً منقوشة بنقوش جصية بديعة جداً . وفيها صورة يد مرفوعة الى السماء ويجوارها مفتاح اشارة الى أن العدل مفتاح السعادة فى الدنيا والآخرة . وفيها كتابات عربية يكثر فيها « عز لمولانا أبى عبد الله » « لا غالب إلا الله » . ومن خارجها بهو طويل من جهته اليسرى أعمدة رخامية على طولها وبه من النقوش العربية شئ يدهش الأنظار ويأخذ بالآبصار ، وقد وضع فيه القوم أخيراً كلمة بالاسبانية على قطعة من الرخام تشير الى استيلائهم على غرناطة .

والى غربى قاعة الحكم حوش السباع : وهو أهم أثر عربى فى أسبانيا ، ابتدءوا فى عمله سنة ١٣٧٧ م ، وطوله ٥٠ ، ٢٨ متراً وعرضه ٧٠ و ١٥ متراً ، وأرضيته من الرخام ، وتحيط به حنايا قامت على ١٢٨ عمود من المرمر ، وضعت بتناسب جميل جداً مثنى ، أو ثلاث ، أو رباع وقد نقشت حناياها وسقفها والحوائط التى من دونها بنقوش جصية مذهبة آية فى الابداع والجمال . وفى وسط هذا الحوش بركة من الرخام الأزرق صحنها مسدس الشكل وقطره متر ونصف متر فيه فواره ماء ، ويحملها ١٢ سبعماء من الرخام الأزرق ينقصها الاقتان فى صنعائها . وربما كان



منظر قاعة الحكم من جهة حوش السبائك

ذلك مقصوداً لتحريم التمثيل عندهم . وينزل الماء من البركة الى مجار رخامية على سطح الأرض تسير الى أربع برك أرضية في زواياه الأربع من خارج الحنايا .

وفي وسط هذا الحوش مما يلي البركة قاعتان متقابلتان واحدة تسمى قاعة بنى سراج^(١) . وكانوا من وزراء الدولة وكان بها مركزهم لجوارها من قاعة الحكم . ويقال إنه كان بها مصرعهم على يد السلطان

(١) كان بنو سراج من أكبر الأسرات النبيلة في غرناطة وكان منهم القضاة والوزراء والقواد وكان أصلهم من قرطبة ، وهاجروا منها بعد استيلاء الأسيان عليها . ويزعم الأسيان أن بنت أحد ملوك بني الأحمر واسمها فاهمة أو فية قد أحت أحد بنى سراج ، وكانا يجتمعان خفيه في زاوية من بستان قصر جنزاليق ، ويقادلان لوعة الحب تحت شجرة صنوبر لا تزال موجودة بحديقة هذا القصر ، والى يومنا هذا يسمونها بشجرة الملكة . وبلغ السلطان أمرها فغضب على بنى سراج واستقدمهم واحداً واحداً الى قصر الحمراء وضرب أعناقهم في القاعة التي سميت باسمهم . ومن خرافات الأسيان أن أرواحهم الى هذه الساعة لا تزال تصرخ بعد سكينه من الليل مما أصابهم من الظلم ! !

ولكن اذا عرفت أن هذا البستان بستان رياحين كما وصفناه لك ، وأنه يتدرج الى ثلاث مناطق وأنه كله مكشوف الى عين الناظر وخصوصاً من منافذ القصر الذي يشرف عليه عرفت أنها رواية سقيمة لا أثر لها من الصحة ولا وجود لها البتة في التواريخ العربية . وهذه القصة أشبه شيء بقصة العباسة أخت الرشيد مع جعفر البرمكي مما ينسب القصاصون اليها نكبة الرشيد للبرامكة ، في حين أن نكبة لهم انما كانت خوفاً على ملكة منهم ، لما كان لهم من عظيم السلطان خصوصاً في بلاد فارس لأن أصلهم منها .

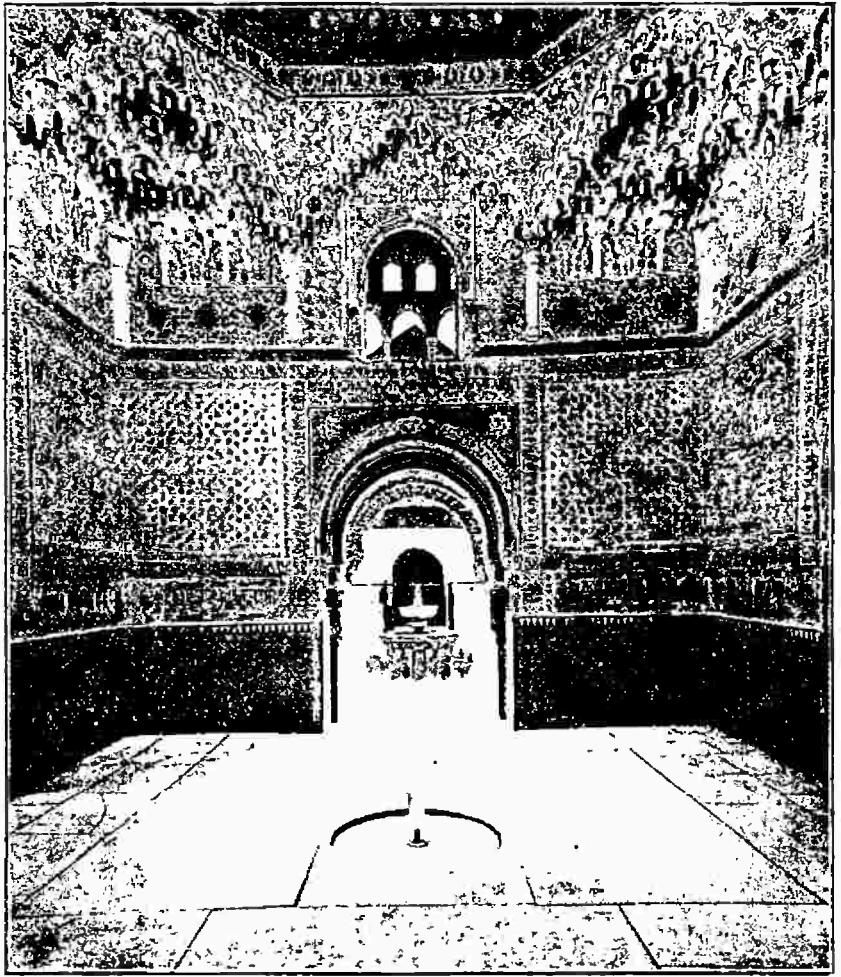
وحقيقة بنى سراج كما يؤخذ من كتاب ترجمة العالم الكاتب الكبير الامير شكيب ارسلان (آخر بنى سراج تأليف الصيكونت دو شاتوبريان الكاتب الفرنسي الشهير) أنهم كانوا وزراء لبني الأحمر وكانوا من شيعة محمد بن يوسف الشير بالاعمر ، ونصروه على ابن أخيه محمد الصغير . فلما تولى هذا الملك في نحو سنة ١٤٢٧ م نكبهم وأخذ يفتك بهم ، ففر بعضهم الى ملك قشتالة وأقاموا في خدمته .

وآخر ما ذكر عن بنى سراج ان محمد بن يوسف بن سراج كان قائداً لحصن قبيل والذي يحواره فحاصرها ملك الأسيان بتدافعه الجديدة ذات الرمي البعيد وأخذ يرسل عليهما نيرانها الشديدة ، فرأى ابن سراج أن لا فائدة في المقاومة ، وسلم الحصنين على شرط الخروج الى غرناطة ، وذلك في زمن أبي عبد الله بن الأحمر . وربما كان تسليمه للحصنين سبباً في نكبه لانتقامه بأن ذلك كان لمهالته للعدو .

أبي عبد الله آخر ملوك بني الأحمر لانتقامهم بمالاة الفرنجة سرّاً .
وهذه القاعة مربعة طول كل ضلع منها ٢٥ ، ٦ أمتار ، وفي وسطها
بركة من الرخام ، وحوائطها كلها بالنقوش الغريبة عليها كتابات عربية
من أعلاها الى أدناها ، وسقفها قطعة واحدة من المقرنصات الهائلة ،
من دونها ١٦ مناراً تحمّلها مقرنصات تنزل بميل حتى تتصل بالحائط على
طول مترين ونصف متر وفيها من النقوش ما هو غاية في الابداع مما
لا يمكن أن يصفه اليراع . ويقال إن المقرنصات التي بها فيها أكثر من
خمسة آلاف شكل لا يشبه بعضها الآخر .

أما القاعة التي تجاهها فتسمى بقاعة الأختين وهي على شكل قاعة
بني سراج في صناعتها وبهجتها إلا أن هذه تتصل بها من داخلها قاعة
جميلة في صناعتها وهيئتها تسمى قاعة الملكة ، وتشرف من جهتها الشمالية
على بستان واطيء عنها بيضعة أمتار يسمونه بستان الملكة . ويقولون
إن تسميتها بقاعة الأختين لأن فيها رخامتين كبيرتين شكلهما واحد
وهي تسمية سخيفة ، لا أظنها تتفق مع أبهة المكان ، ولعلها كانت
لأختين لأحد ملوك بني الأحمر .

أما حوش الريحان ، والافرنج يكتبونه « ALRAGNANE » وهو
خطأ ، فهو في غرب حوش السباع وطوله ٦٠ ، ٣٦ متراً وعرضه ٤٠ ، ٢٣ متراً
وأرضيته من الرخام ، وفي وسطه بحيرة رخامية يسمونها البركة طولها
٥٠ ، ٣٣ متراً وعرضها ٤٠ ، ٧ أمتار وعمقها متر ونصف متر يحيط بها
سياج من نبات الفصيلة الريحانية مقصوص على شبه حائط ارتفاعه نحو
متر ، وعلى طرفيه صفان من أعمدة المرمر ترتكز عليها وعلى الحائط



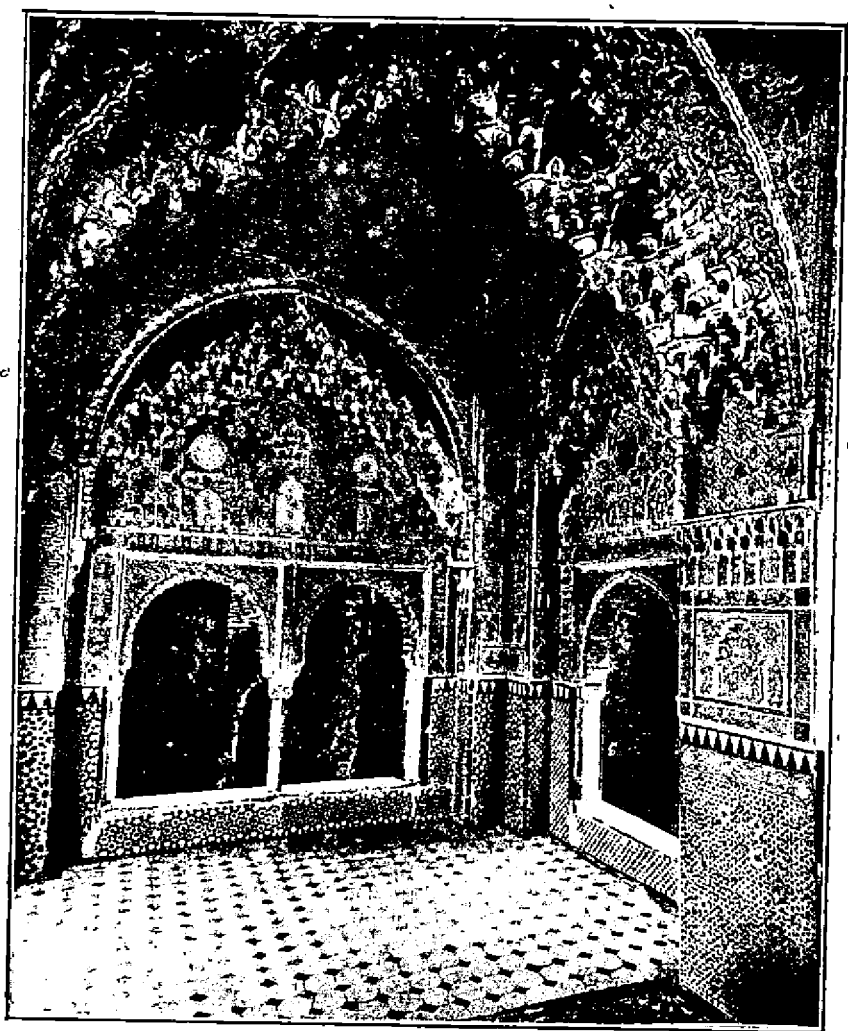
أحد مناظر حوش السباع بالمرءاء من جهة قاعة الحكم

الذى يليها قباب صغيرة غاية في حسن النوق وجمال المنظر .

ومن دون حوش الريحان الى الجنوب الشرقى الحمام : وهو شئء من الاعجاب بمكان . وهو على النظام الرومانى : يدخل اليه أولا من غرفة جميلة فيها مصطبتان رخاميتان للاستراحة ، احدهما قبالة الأخرى ، واحدة للملك والثانية للملكة ، وفى وسطها بركة رخامية يحيط بها أربعة أعمدة من المرمر تركز عليها سقف يحيط به اطناف من طبقة العليا ، ويقال أنه كان مكان الفوانى اللواتى كن يضربن الموسيقى وقت استحمام الملك ، وعلى كل حال إن النقوش التى بهذا المكان من جصية وذهبية تتناسب مع جلال الملكة . ومن داخل هذا المكان الحمام وفيه قبة من الجص فيها فتحات للنور ثبتت عليها قطع زجاجية . وفيه حوضان يسير اليهما الماء بتدبير فى أقية تتصل بالجبل ، وليس فى غرفة الحمام الداخلية شئء من الجمال وخصوصا القبة ، فان خشونة منظرها لا تتفق مع جمال المكان الخارجى (بيت أول) ، ولعل القبة هدمت فيما هدم من الحمامات والمساجد أيام شارل كان ثم أقاموا هذه فى مكانها . وفى وسط الحنايا التى من جهة الشمال من حوش الريحان مسجد القصر الخصوصى وقد نقش حوائطه بنقوش بديعة يتخللها كتابات كثيرة بالخط العربى الجميل فى طولها . وقد قرأت منها مما يلى باب المسجد هذين البيتين وربما كانا أول القصيدة :
تبارك من ولاك أمر عباده فأولى بك الاسلام فضلا وأنما
ولو خير الاسلام فيما يريد لما اختار الا أن تعيش وتسلم
ومكتوب فوقها « عز لمولانا السلطان عبد الله » والداخل الى المسجد يرى على يمينه ويساره فتحة فى الحائط طولها نحو ثلاثين سنتيمترا

وعرضها أربعون سنتيمترا ويقولون أنها مكان لنعال الملك وقت دخوله الى المسجد. ولكن ما يحيط بهذه الفتحة من تكرار اسم الجلالة يمنعنا من تصديق القوم، ونضيفها الى حلى الصناعة التي فيه، أو أنها مكان كان يوضع فيه شيء من الورود والأزهار والرياحين. وهذا المسجد قاعة فيها محراب كان فيه المصحف العثماني الذي أهده بنو الأحمر الى السلطان يوسف بن يعقوب المريني سنة ٦٩٢ هـ. وهذا المحراب آية في نقوشه التي تتخللها كتابات عربية تبتدىء بهذه الالفاظ: «بسم الله» «القدرة لله» «العزيز لله» «الملك لله» «ولا غالب الا الله». الخ، ووجهة المسجد من الشمال كلها مكونة من مقاصير قامت على أعمدة رخامية صغيرة وهي تشرف على قسم البيازين.

أما قاعة الاستقبال ويسمونها قاعة السفراء فهي أكبر وأخف قاعة في القصر بناها السلطان أبو الحجاج يوسف بن الأحمر. وقد أشكل على مؤرخي الأفرنج نطق الجيم العربية فقلبوها شيناً وكتبوها: ^{ALHA-}_{CHACHE} «الحشاش» وهو خطأ بين. وهذه القاعة مربعة الشكل كل ضلع منها ١١ متراً وارتفاع حوائطها ١٨ متراً تعلوها قبة خشبية فيها نقوش ذهبية يحار العقل في جمالها، ومن دونها ٢٠ مناراً، من دونها ثلاثة شبابيك على هيئة طنوف بدیعة الشكل. وقد نقشت حوائط هذه القاعة كلها بنقوش غاية في الابداع وجلال الفن مما لا يمكن واصفا وصفه. وانما أقول للقارىء أن بها ١٦٢ نقشاً يخالف الواحد منها الآخر ولا يمكن رائيها ملاحظة ذلك لحسن تناسقها وتناسبها حتى كأنها نقش واحد. وفيها كتابات عربية قرأت منها في أعلاها «عز ونصر لمولانا الملك المعادل



قاعة السفراء المشهورة بقاعة السفراء بالحرماء

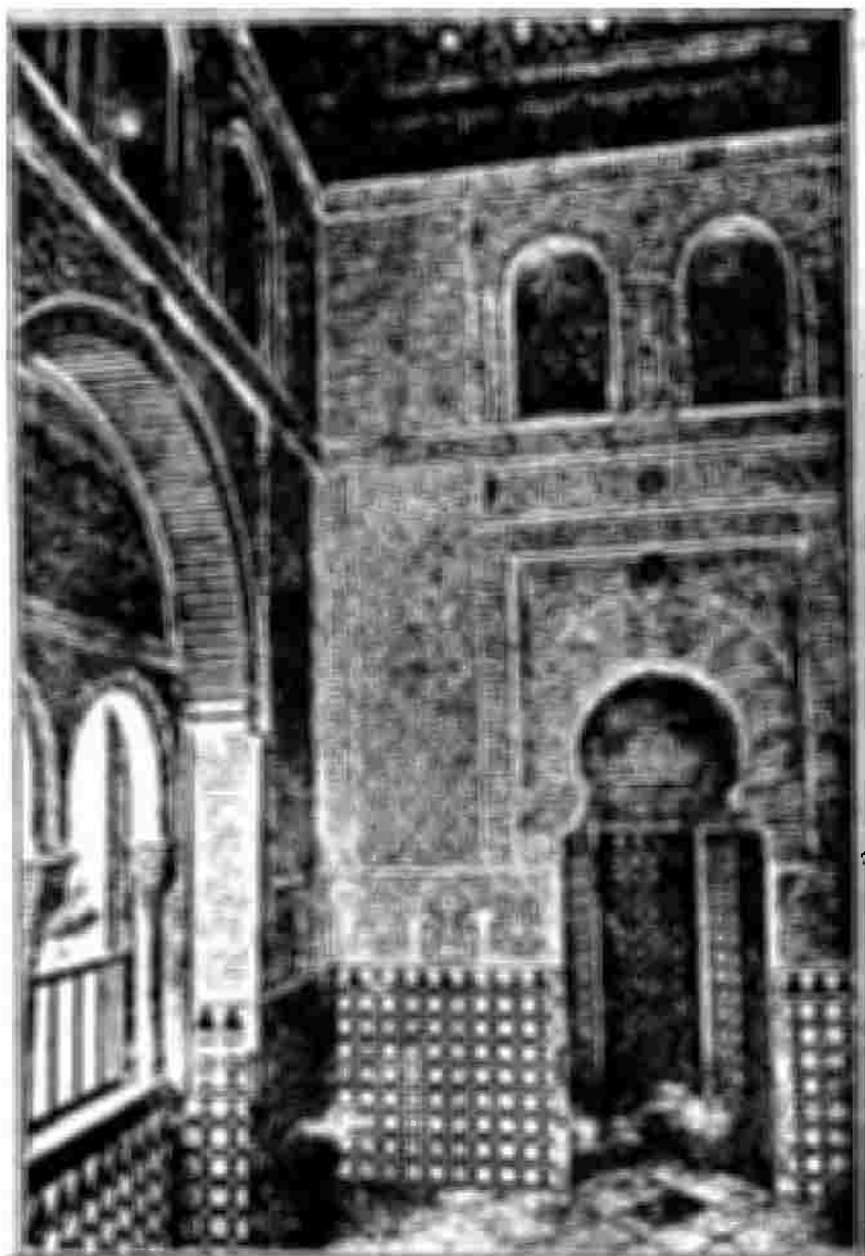
المجاهد ابى الحجاج » ، وعلى يمين الداخل الى هذه القاعة على ارتفاع مترين فوق الازار القاشانى « النصر المسكين والفتح المبين لمولانا ابى الحجاج أمير المسلمين » .

وعلى كل حال إن قصر الحمراء آية الآيات فى الاعجاب والاغراب فى كل باب من أبواب العظمة الفنية والجلال الهندسى مما لا يمكن انسانا وصفه . وانى أتصور انك لو جئت بألف واصف لكان وصف كل واحد مخالفا لوصف الآخر : ذلك لأن عواطف كل شخص منهم تتغلب عليه بمؤثرات كثيرة متغايرة : فهذا يصفها من حيث جلالها ، والآخر يصفها من حيث جمالها ، والثالث من حيث ما فيها من العظمة الفنية ، والرابع من الجهة التاريخية ، والخامس من الهيئة الطبيعية ، والسادس من العبرة الزمانية ، وهكذا . ولا أحسبني فى شيء من هذا كله : لأن شدة اعجابى بهذا المكان قد طاش معها الجنان وجمد البيان . خصوصا بعد أن تجلت أمامى تلك الصحيفة التاريخية الرائعة التى انتهت بها حكم بنى الأحمر فى غرناطة ، أو بعبارة أخرى حكم العرب بالأندلس : تلك الصحيفة التى كتبت بدماء قلوب المسلمين التى أسالتها عوامل الظلم ومعاول النكبات التى سقطت عليهم من قساوسة النصرانية وملوكها بأسبانيا . وكأننى كنت اذا نظرت من أعلى القصر الى قسم اليازين سمعت أنين المقتولين ، وصراخ المصلوبين ، وعويل المشردين من النساء والشيوخ والأطفال !! والملك لله وحده ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم . وهنا أرجو القارئ أن يعذرني اذا قصرت فى وصف هذا القصر الذى لم أفهم منه شيئا غير دهشتى لفخامته !! ذلك لأن جلال هذا المكان الحقيقى فى

صنفته الفنية . ولم يحدثنا مؤرخو العرب عنها بشيء بل كان وصفهم له يحوم حول نخامة البنيان وما يحيط به من ذهب براق وثروة واسعة هي نتيجة لازمة لضخامة الملك وعظمته . وما تراه في كتب الافرنج لا يخرج عن ذلك سوى ما فيه من الاغلاط التاريخية التي أساسها الجهل والتعصب الديني والجنسى . لذلك أطلب الى حكومتنا الموقرة ان توفد الى اسبانيا بعثة من رجال الفن العربي بمصر ممن يتحققون بدار الآثار العريضة على الخصوص ، وهذه بعثاتها قد جاوزت الحد ممن يشتغل بالمهم وغير المهم ، فهل نراها تبخل على العلم والفن والتاريخ ببعثة كهذه تزيح اللثام عن شيء يتحدث جميع الناس قديماً وحديثاً بجلاله وجماله وهم لا يعرفون شيئاً مما فيه من الفن العربي العجيب والذي كله آيات بينات مدهشات ، وخاصة هذا الفن قد انمحق أثره من الشرق ، فليس منه شيء في بغداد ، والبقية الصالحة التي كانت منه بدمشق قد أحرقها الفرنسيون أخيراً باطلاقهم النيران على بيت العظم الذي انتهت اليه عظمة الفن العربي في الشام وسورية !!

وقد يقول قائل : ان عندنا منها بمصر شيئاً كثيراً : فعندنا مسجد المنصور قلاوون ، والناصر حسن ، والسلطان قايتباي ، وقاجاس ، والبرديني ، والسلطان الغوري الذي انتهت به عظمة مصر الفنية والاستقلالية . وقد يشيرون الى آثار الناصر محمد بن قلاوون الفخمة التي توجد بدار الآثار العربية بباب الخلق ، فنقول لهم نعم : ولكن هذا شيء وذلك شيء آخر .

وفي اسبانيا الآن رجال يعملون في الصناعة الخشبية الدقيقة بالتنزيل



المنظر الداخلي لمسجد قصر الحمراء

والتطعيم على أشكال مختلفة فيها رسوم جميلة من آثار الصناعة القديمة . وكذلك عندهم رجال يعملون في النقوش الجصية التي يستعمرونها من الأشكال القديمة ويدخلونها في مبانيهم الحديثة الفخمة . وقد ترى ذلك مجتمعا في ذلك المعرض الذي يقيمونه في أشبيلية لسنة ١٩٢٨ وقد مر بك ذكره ، وفيه أحسن صناعاتهم هنا . وفي أشبيلية وقرطبة على الخصوص صناعة القاشاني العجيبة اللطيفة الشكل الكثيرة الألوان ، ولا شك أنها من أثر الصناعة القديمة وإن كانت لا تصل إليها في جودتها وجمال منظرها .

للعبرة والتاريخ

بنو الأحمر

بنو الأحمر من العرب الذين أجازوا إلى الاندلس ويسمون بني نصر . وأصلهم يتصل بسعد بن عبادة الأنصاري الصحابي سيد الخزرج . وكانوا من جند أرجونة « من حصون قرطبة » . وكان كبيرهم لآخر دولة الموحدين محمد بن يوسف بن نصر ويعرف بالشيخ . فلما ضعف أمر الموحدين وكثر الثوار بالاندلس ، وقام منهم محمد بن هود بمرسية واستولى على شرق الاندلس تصدى له محمد بن الأحمر وانتهى أمره بأن تغلب على غرناطة سنة ٦٣٥ . وما زال حتى غلب عليه الأذيفوش فاستصرخ يعقوب بن عبد الحق سلطان المغرب من بني مرين ، فأجاز له جيشاً دفع به عدوه . ومات محمد بن يوسف سنة ٦٧١ . وقام بالأمر بعده ابنه محمد وكان يعرف بالفقيه ، فاستولى على جنوب أسبانيا إلى الجزيرة الخضراء وأصبح له السلطان فيها حتى مات سنة ٧٠١ . وكان من خيرة

بنى الأحمر سياسة وكياسة وهمة . وتولى بعده ابنه محمد الملقب بالخلوع ثم أخوه أبو الجيوش نصر ولم تطل مدة حكمهما . وأتى بعدهما أبو الوليد ابن أبي سعيد بن اسماعيل بن نصر وكان من أحسن ملوكهم سيرة وأبعدهم همة وأكبرهم قوة وأعظمهم سلطاناً ، ومات سنة ٧٢٧ : قتله أحد قرابته غدرًا في داره . وتولى بعده محمد بن أبي سعيد ، ومات مقتولا سنة ٧٣٢ فولى الأمر بعده أخوه أبو الحجاج يوسف الذى مات قتيلا سنة ٧٥٥ : بطعنة رجل من السوق ، وكان من خيرة بنى نصر ، فقام بالأمر بعده ابنه محمد ، فاستبد به حاجبه رضوان ، وحججه عن الناس . فثار أخوه اسماعيل ابن يوسف وقتل رضوان ، وتولى الملك سنة ٧٦٠ بعد أن نفى أخاه محمداً إلى المغرب . فقام أبو يحيى من ولد عمومتة وقتله واستولى على الملك ، ولكنه لم يلبث أن عاد إليه محمد بن يوسف بمساعدة بنى مرين باتفاقهم مع ملك قشتاله وتلقب بالغنى بالله . ولم يلبث أن قويت شوكتة وتوطدت دعائم سلطته لاختلاف ملوك الأسيان بعضهم مع بعض . ولم يضع الغنى بالله هذه الفرصة ، بل عمل بحسن سياسته على استرداد كثير من البلاد التى استولى عليها الأسيان مدة أسلافه . وهو الذى استوزر لسان الدين ابن الخطيب الذى أبلى في خدمته بلاء عظيماً وصحبه في نفيه إلى المغرب وانتهى أمر الغنى بالله بأن قتله لوشاية به

وقد وفد ابن خلدون على الغنى بالله سنة ٧٦٣ هـ وأقام في خدمته ، وكثيراً ما كان يستخدمه في السفارة بينه وبين ملك الأسيان باشبيلية . وكان النجاح مصاحباً له في سفاراته . ولكنه بعد أن أقام في خدمته ثلاث سنوات استقال خوفاً من السعيات والوشايات التى راجت سوقها

في البلاد، وسافر الى بجاية ومنها الى المغرب ثم الى مصر زمن الظاهر
برقوق الذي ولاه قضاء المالكية ثم استقال من هذه الوظيفة واشتغل
بالتدريس والتأليف حتى مات بالقاهرة سنة ٨٠٨.

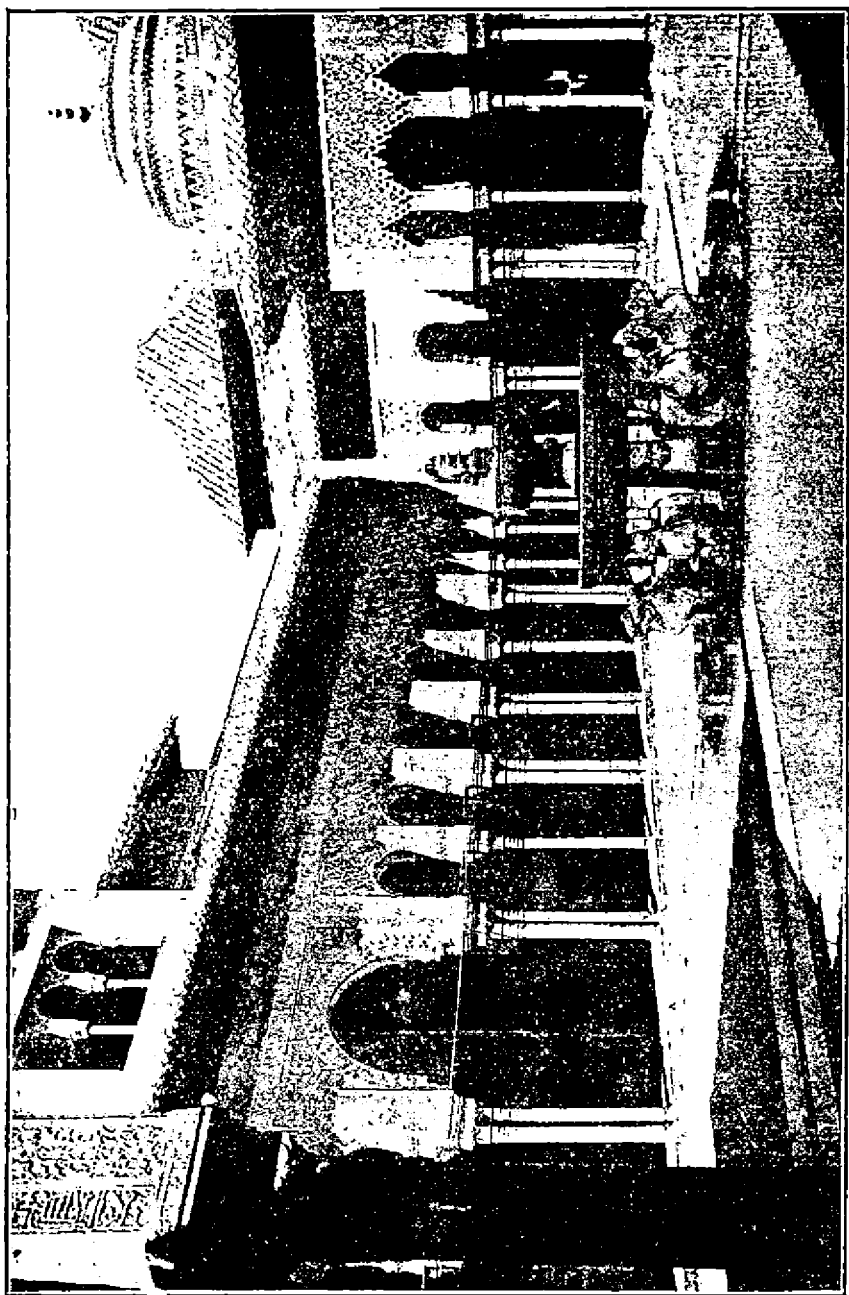
وجاء من بعد الغنى بالله ابنه يوسف . ثم سعد بن يوسف ثم
أبو الحسن بن سعد وكان ضعيف الرأي كثير الميل إلى اللهو وغير مهتم
بأمر الدولة ، وهو والد أبي عبد الله محمد من حظيته الأسبانية السيدة
ثريا^(١) . وكان هائما بجبها لا يكاد يفارق سماءها . وكان له ولدان من
السيدة عائشة زوجة الأخرى : هما محمد ويوسف . وكان يقدم ولده من
الأسبانية عليهما فدبت الغيرة بين طرفي الأسرة وهرب محمد ويوسف الى
القشتاليين . وبمساعدهم شنا الغارة على أبيهما فكانت له الغلبة عليهما
وانقطع بعد ذلك خبرهما . وقد أسر ولده أبو عبد الله في بعض وقائعه
مع الأسبان ، وكان أبو الحسن قد أسنّ وانهممت صحته وضعف عقله
بالاسترسال في شهواته ، وصار لا يخرج من داره ولا يهتم بأمر الدولة التي
كان يديرها وزراؤه كما شاءت أهواؤهم فساءت حال البلاد وكانت في
أوائل ولايته سنة ١٤٧٠ تتكون من أكثر من مائة مدينة بين كبيرة
وصغيرة، وضعف ذلك من الأبراج والحصون وما لا يقل عن ذلك من القرى
وكان أهلها يقدرّون باربعة ملايين من النفوس ، فأخذ العدو ينقصها من
أطرافها ، وانتهى أمر أبي الحسن بأن أصيب بالصرع وبفقد بصره ، فتنازل
عن الملك إلى أخيه أبي عبد الله الزغل وسافر الى المنكب وبقي فيه الى أن مات

(١) هناك خلاف في كون أبي عبد الله بن أبي الحسن بن الأحمر أمه حظيته ثريا أو أنه ابن زوجته
عائشة . وعلى كل حال كانت ثريا سببا للعنث في هذه الأسرة ففرقت بين الاخ وأخيه ثم بين الولد
وأبيه مما كانت نتيجة زوال ملكهم والقضاء على دولتهم .

ولقد أطلق الأسبان أبا عبد الله من أسرهم لمناوأة عمه الزغل فأخذ يشن عليه الغارة بمساعدتهم وكانوا ينتهزون فرصة اشتغال المسلمين بأنفسهم ويستولون على أطراف البلاد . وفي هذه الأثناء استولوا على كثير من البلاد الحصينة المهمة مثل مالقه والمرية ، وانتهى أمر المسلمين بأن عرضوا على الزغل وابن أخيه أن يقتصما ما بقى لهم في البلاد حتى لا يكون خلافا سببا في نكايه العدو بالمسلمين . فخرج الزغل الى وادي آش ، واستولى ابو عبد الله حليف القشتاليين على غرناطة ، وكان الاسبانيون يرسلون الى الزغل من يزيد في الفتنة بينه وبين ابن أخيه صاحب غرناطة حتى سار معهم حربه : لأن فرديناند غضب عليه اذ لم يقبل أن يسلمه حصن الحمراء . وبعد أن استولى القشتاليون على أغلب الحصون التي حول غرناطة سلطوا على الزغل رجلا من بني الأحمر اسمه يحيى كان قد تنصر وكان يعيش في اشبيلية ، فأخذ يخوف الزغل من الاسبان ويحسن له أن يتنازل عن وادي آش لفرديناند اذاء مبلغ كبير من المال ثم يجيز الى بلاد المغرب حتى يكون في أمن ، منهم فعمل الزغل بنصحه أو بخديعته وأجاز الى فاس بأموال جمة ، ولكن سلطانها تهم منه مؤازرته للنصارى على المسلمين بما كان سببا في خذلانهم وضعفهم وضياع ملكهم فصادره في ماله وسمل عينيه وما زال في سجنه حتى مات في أشنع حالات البؤس .

أما أبو عبد الله محمد (والاسبان يسمونه « بوباديل ») فانه ما زال يدفع جيوش النصرانية عن غرناطة حتى صارحه أهلها بأنهم أصبحوا لا قدرة لهم على الدفاع ، وأنهم يقبلون شروط الصلح التي أرسل بها اليهم الملك فرديناند . هنالك سلم أبو عبد الله مفاتيح غرناطة الى فرديناند في ٢ ربيع

أحد مناظر حوش السباع بقصر الحمراء



الأول سنة ٨٩٧ ! ثم هاجر إلى المغرب واستوطن فاسا كاحد أفراد الناس حتى مات بها سنة ٩٤٠ هـ وبقي نسله فيها إلى سنة ١٠٣٧ يمشون من أوقاف المسلمين المرصودة على الفقراء والمنقطعين !! نعوذ بالله من شر تقمته .

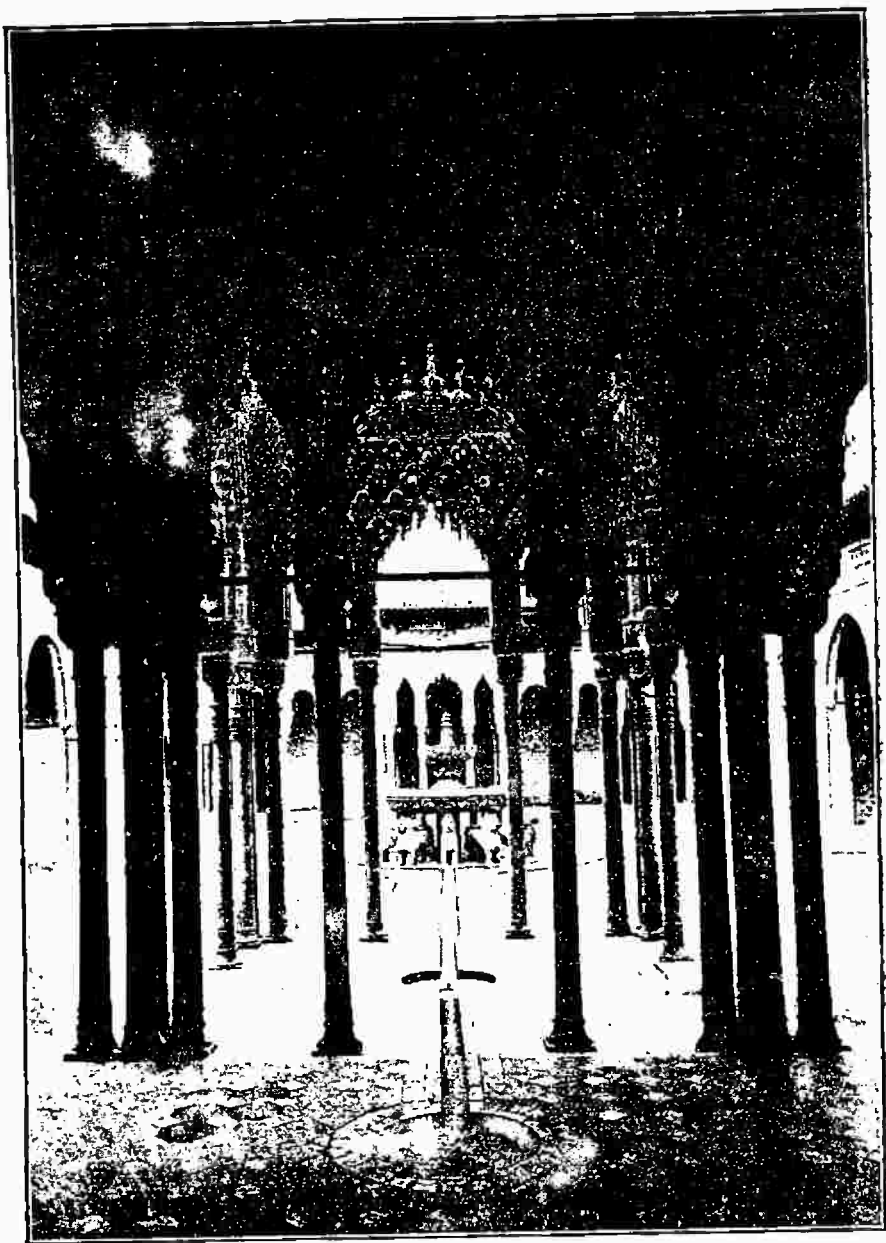
ومن هذا تعلم أن ملك بني الأحمر بعد القرن السابع للهجرة كان مضطرباً لفساد الاخلاق ، واشيوع السعائيات والوشايات بين طبقات الناس وخصوصاً الطبقة العالية منهم ، مما كان سبباً لكثرة نكبة الملوك لوزرائهم لأية ريبة ، ولكثرة الأيدي التي كانت تعتدى على الملوك من ذوى قرابتهم في الغالب طمعاً في الملك ، ورغبة في التمتع بتلك الشهوات واللذائذ التي استسلم لها بنو الأحمر في آخر أيامهم خاصة مدة يوسف ابن الغنى بالله ، لضعف رأيه وسوء سيرته وعلى الاخص لخلافهم على الملك ، ذلك الخلاف الذي كان يجر إلى حروبهم بعضهم لبعض ، واستنصارهم بمدوم الذي كان ينتهز فرصة هذه الحروب الداخلية فيستولى على بلادهم وحصونهم واحداً بعد الآخر .

وما زالت هذه الفوضى تفتاب كيان البلاد بما أصبح له فساد القلوب عاماً بين العظماء والرؤساء ، والناس فيما بينهم كالقطيع لا عقل يقوده ولا رأى يدبره ، حتى اذا ضرب الدهر ضربته كان تأثيرها شديداً بحيث انهار لها في ساعة واحدة هذا البنيان الشامخ الذي أقامه العرب في ثمانية قرون !! ولقد كانت محنة مسلمي غرناطة في مدة السلطان بايزيد الثاني العثماني ، فاتفق مع السلطان قايتباي ملك مصر على مساعدتهم ، بأن يرسل بايزيد أسطولاً الى أراضى أسبانيا ، وأن يرسل قايتباي جيشاً من جهة أفريقية ،

الا ان بايزيد شغل بفتنة أولاده ، كركود ، وأحمد ، وسليم ووقوع الحرب فيما بينهم حتى آل الأمر بتنازله عن الملك لولده سليم . أما ملك مصر فان فرديناند وايزابلا أرسلا اليه (السيو بطره مارتير) سفيراً فأبدي من المهارة ما أقنع به قايتباي بان الاسبانيين انما يدافعون عن أنفسهم هؤلاء العرب الذين غصبوا ديارهم ونهبوا أموالهم وعاثوا في أرضهم فساداً . وبذلك اكتفى كل من بايزيد وقايتباي بان أرسلا كتباً الى فرديناند وايزابلا ، والى البابا ، والى ملك نابولي ، بعدم ارهاق مسلمي الاندلس ، ولسكر صوتهما لم يعمل عملاً لان الذي يسمع في مثل هذه الأحوال انما هو صوت المدافع وصلصلة السيوف .

ولقد كانت ملوك الأندلس كلما وجدوا من الأسبانيين ضغطاً عليهم طلبوا معونة ملوك العدو ، فيرسلون اليهم بالغزاة من الرجال والفرسان على أساطيلهم فيكشفون عنهم ما نزل بهم . كما كان من المرابطين والموحدين الذين آل اليهم ملك الأندلس ، حتى اذا ضعف الموحدون استولى ملوك الاسبان على أغلب حصون البلاد ومدنها الشهيرة في القرن السابع الهجري الذي كان شؤماً على مسلمي الأندلس فاستولوا على لوشة وماردة وبطليوس سنة ٦٢٢ وعلى جزيرة ميورقة سنة ٦٢٧ ، وعلى قرطبة سنة ٦٣٣ ، وعلى شاطبة سنة ٦٣٥ ، وعلى بلنسية سنة ٦٣٦ ، وعلى مرسية وإشبيلية سنة ٦٤٥ ، وعلى شلب وطلبييرة سنة ٦٥٩ ، ولم يبق في يدمسلمي الجزيرة غير غرناطة وضواحيها تحت سلطان بني الأحمر .

ولما كانت سنة ٦٧٤ ورأى محمد الثاني « الفقيه » أن الأسبانيين يهاجمون بلاد مخشى تغلبهم عليها ، فبعث رسله الى السلطان يعقوب بن



منظر عام لحوش السباع بقصر الحمراء

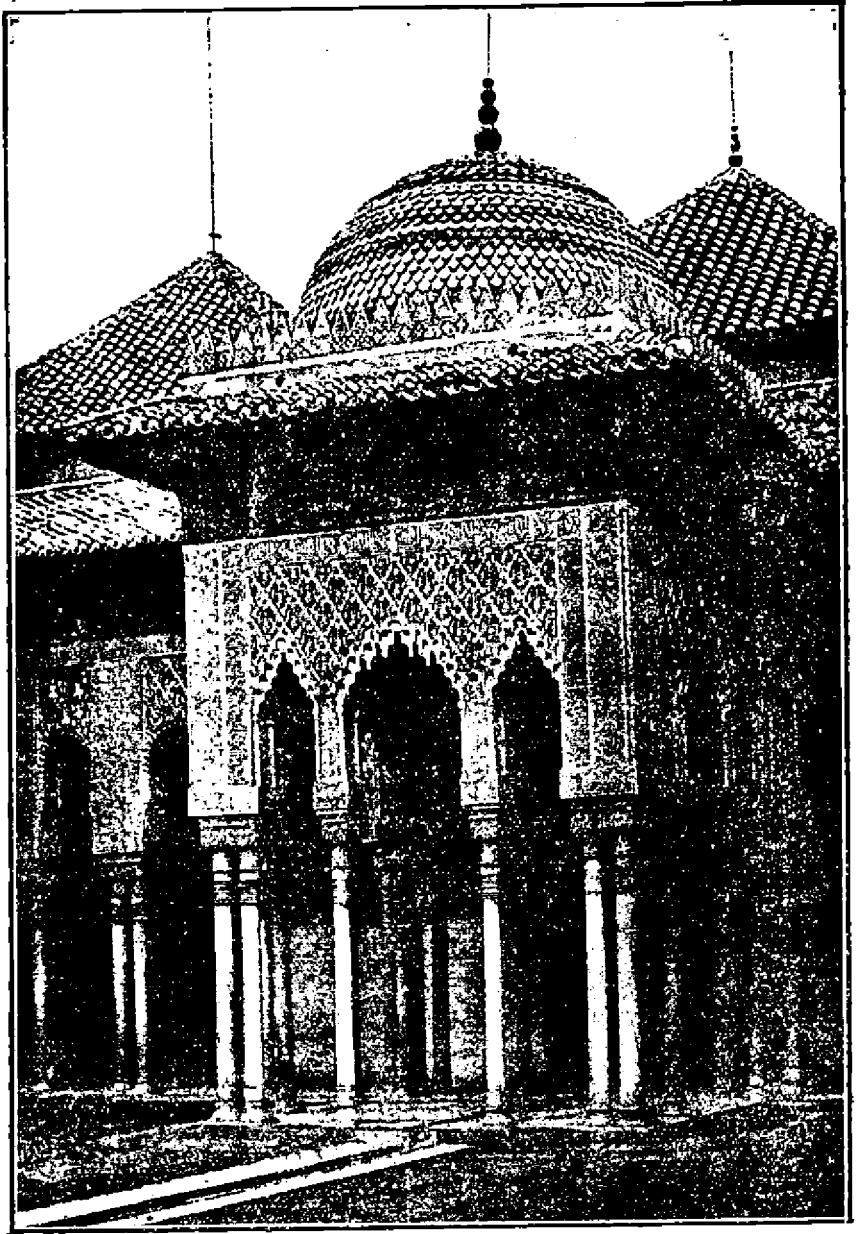
عبد الحق المرينى يستعطفه ويطلب غوثه . فأجاز الى الأندلس بجيوش جرارة ونازل الأسبانين وهزمهم فى جملة مواقع ، وطلب ملوك الاسبان صلحه فاشترط عليهم ألا يرهقوا المسلمين وأن يتعمدوا عن كل مايؤذيهم ، فعاهدوه على ذلك ورجع الى المغرب بالغنائم التى لاحصر لها . وقد أجاز بعد ذلك جيوشه الى الجزيرة ، وبلغت غزاته الى مجريط . ولكن ابن الأحمر فى هذه المرة خافه على ملكه وتجمست فى مخيلته صورة ما عمله ابن تاشفين مع بنى عباد ، فاتحد مع ملك قشتاله على حربيه ، ولكنه لم يلبث أن رجع عن هذا الرأى الفاسد . وكان الأمير يوسف بن يعقوب سلطان بنى مرين أميراً على الغزاة بالأندلس فأراد أن يقتص من ابن الأحمر فاتفق مع الاذيفونش على الهجوم على غرناطة ، وأرسل ملك قشتالة رسله الى السلطان يعقوب بالمغرب ليقرهم على ذلك ، فلم يرق هذا فى نظره ، وأرسل الى ولده يوحنا على ما أراد من ممالأة النصارى على المسلمين ، ولما علم ابن الأحمر بذلك استغفر يعقوب لذنبه واستقاله من زلته ، فقبل ذلك منه احتفاظاً بالرابطه الاسلاميه . وازاز ابن الأحمر الى العدو لتكوين صلته بالسلطان يعقوب فى سنة ٦٩٢هـ فأكرم وفادته وأعاده الى غرناطة مكرماً معظماً .

ولم يزل أمر مسلمى الأندلس فى عزه ومنعة الى زمن السلطان ابى الحسن المرينى الذى استنفر مسلمى المغرب الى غزو الاسبان ، وازاز الى طريف بجيش هائل سنة ٧٤٠ . فقصد ملك قشتالة بجيوشه من البر ، وحاصره ملك البورتغال بأساطيله من البحر ، وضيقوا عليه الحصار من كل جهة حتى نفدت الأقوات ، وصار هو وجيشه فى أسوأ الحالات ،

ثم هجم عليهم الاسباب وهم في غفاتهم فقتل منهم عدد لا يحصى ، وفر
السلطان أبو الحسن الى سبته . وكانت هذه الموقعة من أشأم ما نكب
به المسلمون ، وهى ثانية واقعة العقاب ، ولم تقم للمسلمين بعدها قائمة
فى الأندلس !!

بعد ذلك ضربت ملوك النصرانية الجزية على مسلمى الجزيرة ، وما
زالوا حتى آكسوا سن ملوك المغرب وقمع الشقاق بينهم وشيوع الثورات
فى داخلاتهم ، واشتغالهم بأنفسهم ، وشبوب نيران الفتنة بينهم وبين
حفص ملوك تونس وخطاب الاسبانيون البابا فى طرد المسلمين من غرناطة ،
فأقرهم على ذلك . وهناك فكروا فى الحيلولة بين مسلمى المغرب والأندلس
وذلك باحتلالهم ثغور العدو : فاستولى البورتغاليون على سبته فى سنة ٨١٨ ،
واستولى الاسبانيون على جبل طارق فى سنة ٨٦٩ ، ثم على مدينة بونه
سنة ٨٦٧ ، وأعقب ذلك استيلاء البورتغاليين على قصر المجاز فى سنة ٨٦٢ ،
وعلى طنجة فى سنة ٨٦٩ ، وعلى أصيلة فى سنة ٨٧٦ هـ .

وكانت حالة المغرب فى هذه الآونة فى شدة الاضطراب لاستمرار
الحروب بين أنفاذ بنى مرين ، وعلى الخصوص أيام السلطان عبد الحق
ابن سعيد ، فانه لضعفه وصل اليهود فى زمنه الى منصة الوزارة وأصبحت
لهم الكلمة النافذة : فأرهبوا المسلمين وأوقعوا عليهم كثيراً من المظالم
والمغارم ، وحسنوا لابن سعيد الوقعة بينى وطاس وهم فرع من بنى
مرين وكان منهم وزرأؤه وعظماء دولته ، فقبض عليهم وقتلهم ، وفر منهم
الشيخ محمد الوطاسى الى الصحراء فالتفت به قبائل البربر وساروا الى
فاس فاستولى عليها سنة ٨٧٦ ، وبقي سلطانا على المغرب الأقصى الى أن



منظر قاعة الحكم بقصر الحمراء

مات في سنة ٩٦٠ . وفي مدته وفد عليه السلطان ابو عبد الله بن الأحمر مع أسرته بعد تسليمه غرناطة فأكرم وفادته وأحسن مثواه
ومن هذا تعلم أن استيلاء الاسبانيين على ثغور المغرب جعل
مسلمى الأندلس في عزلة عن كل معين ، وأصبحت دولة غرناطة
محصورة بأساطيل العدو من جهة الجنوب والشرق ، وبجيوشه البرية
من جهة الشمال والغرب . وما زالوا يضيّقون عليه دائرة الحصار حتى
استولوا على غرناطة سنة ٨٩٧ .

ولقد كان عقلاء المسلمين بغرناطة قبل سقوطها بأكثر من قرن
يتوقعون لها هذا المصير : فان ابن خلدون كان يتوقع سقوطها من يوم
الى آخر في يد العدو لفساد أخلاق أهلها ولتقاطع الرؤساء وتنابد
الأمراء . وكان ابن الخطيب يقول لأولاده انها أصبحت دار غربة
ويوصيهم بعدم التوسع في شراء العقار بها .

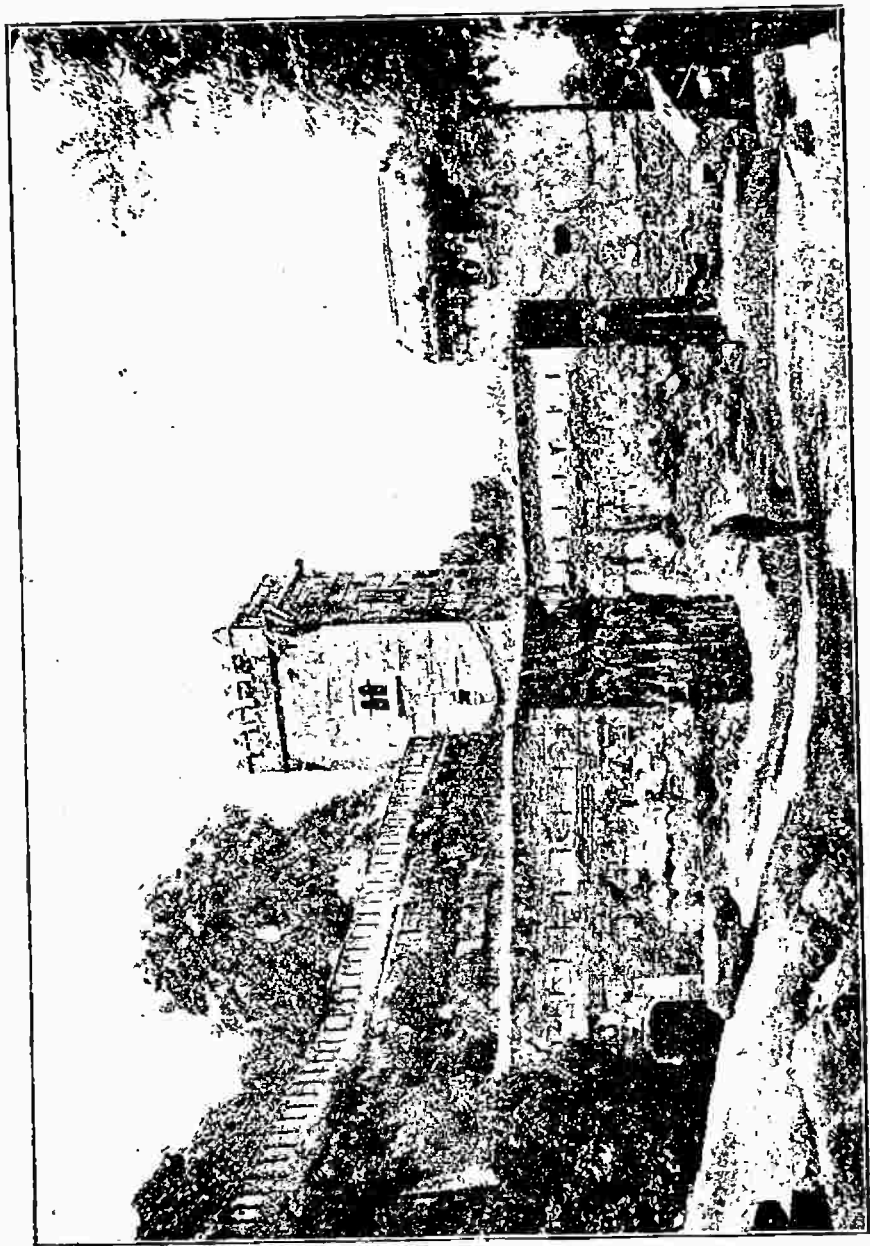
وكان بعض شعرائهم ينصحون لهم بالهجرة من الأندلس لتوقع
نكبة الأسيان لهم فيها ومن قولهم في ذلك :

حذاروا حاكم يا أهل أندلس فما المقام بها إلا من الغلط
السلك ينثر من أطرافه وأرى سلك الجزيرة منشورا من الوسط
من جاور الشر لا يأمن عواقبه كيف الحياة مع الحيات في سفظ

ولقد تحققت نبوتهم . ولما استولى ملوك الاسبان على غرناطة
أوقعوا بالمسلمين ثم ما زالوا حتى طردوهم من ديارهم ، وأصبحوا ينطبق
عليهم قول عمرو بن الحارث شيخ جرهم :

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر
 بلى نحن كنا أهلها فأبادنا صروف الليالي والجدود العواثر
 ولما استولى الاسبانيون على غرناطة ووافق هذا الوقت استكشاف
 كولمب لامريكا، اهتموا بقوتهم البحرية وعنوا عناية شديدة بإنشاء
 الأساطيل وتميزها بالرجال الذين لهم دراية بالحرب، وأخذت بحريتهم
 مدة ثلث لكان تخرج من جنوة ومن ثغور اسبانيا الشرقية والجنوبية،
 وتقطع الطريق على مراكب المسلمين التجارية . وفي سنة ٩٢٠ استولت
 على بجاية ووهران ومدينة الجزائر، وأنشأ الأسبان على سواحل المغرب
 حصونا ومعقل كثيرة :

وكان لاربعة أخوة من تجار الاتراك بعض السفن ، وكانت
 مراكب الأسبان تعبت بها فضاقت صدورهم واتفقوا مع محمد الحفصى
 سلطان تونس على أن يعطيهم ثغراً من ثغوره يلجأون اليه بسفنهم ،
 ويتعقبون سفن الاسبانيين ويمنعونهم من التناول إلى بلاده ، ويعطونه
 خمس ما يفتنونه منهم ، وكان أحد هؤلاء الاخوة واسمه خضر في منتهى
 الشجاعة ويسميه الافرنج بارباروس (ذا اللحية الحمراء) ، وكانت له
 معرفة تامة بالطرق البحرية ، فأخذ يتعقب سفن الاسبانيين حتى استولى
 منهم على بجاية ثم على ثغر الجزائر سنة ٩٢٢ ، وبعث بمفاتيحها مع هدية
 ثمينة إلى السلطان سليم الأول العثماني . فأرسل اليه السلطان بتوليته
 وزيرا على الجزائر ، وبعث اليه بأسطول من أساطيله وبفرقة من العساكر
 العثمانية ، فاستولى بمساعدتهم على إقليم الجزائر جميعه ، وأخذ أسطوله
 يحوب مياه البحر الأبيض فألقى الرعب في قلوب الأوربيين . ثم صار



القضبة أو قلعة الجراح وهي أقدم بناء لبنى الأحمر في غرناطة

إلى سواحل اسبانيا وأنقذ كثيرا من المسلمين الذين كانوا يرزحون تحت عبوديتهم للأسيبان . فانضم إلى أسطوله كثير منهم وأبلوا بلاء حسنا في حروبهم مع الأسطول الأسيباني الذي كان تحت قيادة أميرهم البحري الشهير اندريا دوريا .

وبارباروس هذا هو الذي تسمى أخيراً باسم خير الدين باشا الذي ولاه السلطان سليمان القانوني رئاسة البحرية العثمانية . واشتهرت في مدته بحروبها وانتصاراتها على أساطيل أوروبا المتحدة . ولولاه لكانت اسبانيا تغلبت على جميع ممالك الغرب مدة الملك شارلكان الذي جمع كلمة أوروبا على حرب المسلمين برآ وبحراً . فانتصر عليهم السلطان سليمان في الأولى ، وخير الدين في الثانية . وأعقب ذلك استيلاء العثمانيين على طرابلس سنة ٩٥٠ هـ ، ثم على تونس في سنة ٩٨١ هـ ، ولم يزل العثمانيون مستولين عليها حتى تم استيلاء فرنسا على الجزائر سنة ١٢٥٤ هـ ، ثم احتلت جيوشها تونس سنة ١٢٩٨ . وأعقب ذلك استيلاء إيطاليا على طرابلس في سنة ١٩١٢ م والله تعالى يرث الأرض ومن عليها بيده الأمر يعز من يشاء ويذل من يشاء ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم .

الرسالة السادسة

دخول العرب اسبانيا

لما ثبتت قدم موسى بن نصير في ولايته على طنجة أرسل طريقاً مولاه ومعه ثلثمائة رجل من العرب ، فزل بالمكان الذي تسمى باسمه في الجنوب الغربي من الجزيرة ، فغزوا البلاد القريبة من الشاطئ ، ورجع غانماً من غير أن يعترضه أحد من الاسبانيين ، وسهل على ابن نصير أمر الفتح فأمر مولاه طارقاً سنة ٩٢ هـ بالجواز الى بلاد الاندلس فركب البحر لوقته ومعه ثلثمائة من العرب وتبعهم عشرة آلاف من البربر ، وطلع على لسان الجبل الذي تسمى باسمه وزحف على الاندلس ، فقابله الملك لذريق بجيوش القوط ، فزهم طارق في واقعة شريش ، ومات لذريق بها من جراحه . وما زال طارق يتقدم في الفتح حتى وصل إلى طليطلة وكتب الى مولاه موسى بذلك . فاجتاز هو ايضاً لوقته بجيش من البربر ، وطلع على الجبل الذي تسمى باسمه (جبل موسى) بجوار الجزيرة الخضراء ولحق بطارق ، وما زال يتقدم في فتوحاته حتى وصل الى برشلونه ، ثم رجع الى المغرب ومعه طارق بعد أن رتب أمور البلاد وعين حاميتها على ثغورها ، وجعل ابنه عبد العزيز والياً عليها تابعاً لولاية المغرب وجعل مركزه قرطبة ، وكانت ولاية المغرب تابعة لولاية مصر .

وجبل طارق هو تلك الصخرة التي تمتد الى البحر في جنوب أوربة الغربي وطولها ٤٥٠٠ متر ، وعرضها ١٤٠٠ متر ، وتكون مع اللسان الذي يمتد من الشمال الغربي لافريقية خليج الزقاق الذي اشتهر أيضاً بمضيق

جبل طارق ، وهو يفصل ما بين البحر الأبيض المتوسط والاقيانوس الاطلانطى ، ومسافته فيما بين سبتة وجبل طارق ٢١ كيلو متراً : وهى التى عبر منها طارق الى اسبانيا

وترى على الدوام تياراً شديداً يدخل من المحيط الى البحر الأبيض وفى غالب أيام السنة يتكاثف فى جوه الضباب الذى هو من لوازم هذا الاقيانوس بحيث لا تمر فيه المراكب الا على حذر شديد ، ويكاد صفيها لا ينقطع خوفاً من مصادمتها بما عسى أن يكون أمامها من مراكب أخرى . ولقد ركبت هذا الاقيانوس فى سفرى الى بلاد الانكليز من طريق البحر غير مرة . وكثيراً ما كان يخيم الضباب على مركبنا حتى كنت اذا مددت يدى الى عيني لا أرى منها الا خيالاً أشبه شئاً بأثر أشعة رنتجن : وهنالك تحقق لى معنى المثل المشهور « ظلام لا ترى كفك فيه » وقوله تعالى « ظلمات بعضها فوق بعض اذا أخرج يده لم يكدرها » وخطر بيالى أن هذا هو علة تسمية العرب للاقيانوس الاطلانطى ببحر الظلمات . وقد يستمر هذا الضباب أياماً متوالية وهناك يكون الخطر على المراكب التى تقطع البحر الى امريكا . وحسبك انه كان سبب غرق السفينة تيتانيك قبيل الحرب العالمية وهى تلك السفينة الهائلة التاريخية التى بعد غرقها من أكبر الخسائر على الانسانية بما كانت تحمل من رجال علم وعمل ، وما كان فى جوفها من الأموال والتحف التى تقدر بملايين الملايين . ومن ذلك ترى ما عاناه طارق فى جوازه مع رجاله خليج الزقاق

ومعهم خيلهم وأداة حربهم ومؤنهم ، خصوصاً انهم كانوا يجوزون الى عدوهم فى فلك لم تكن موافقة ولا واقية . ولكن الله تعالى وقاهم شر

البحر والبر لبسالتهم وقوة عزائهم وحسن يقينهم سبحانه يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء يده الخير وهو على كل شيء قدير .

من يقول ان شرذمة قليلة من العرب تقطع البحر من افريقية الى اوربا سنة ٧١١ وتستولى على الاندلس ، ثم على اسبانيا والبرتغال ، وتجتاز جبال (البرينيه) على مناعتها وما فيها من قمم عاليات ومفاوز وهاويات ومنازل ومعارج لا يقطعها غير العارفين بمسارها ومنافذها ، ثم يدخلون أرض فرنسا ويكسحونها الى براتيه وهي على بعد ٣٣٠ كيلو متر من الجنوب الغربي لباريس وكل ذلك في عشرين سنة ؟ ؟

ولولا أنهم شغلوا في ذلك الوقت بما نالت أيديهم من الغنائم والأسلاب وما وقع في حوزتهم من الأموال التي نالت بها كواهلهم . ماهزهم شارل مارتيل الذي نادى في أوربا بالحرب الصليبية سنة ٧٣٢ في هذه الواقعة التي مزقت جيوشهم في فرنسا وأجأتهم الى العودة الى أسبانيا ، فأناخوا بها وجعلوها وطناً جديداً وأنشأوا فيها ملكاً مجيداً بقي أكثر من ثمانية قرون انتهت بخلافهم على الملك واستنصار بعضهم يمدوهم على بعض !! حتى خارت قواهم وضعفت عزائهم وأصبحوا من المستضعفين !! وانتهى أمرهم بأن طردهم الافرنج من جزيرة الأندلس ومزقهم كل ممزق !!

أتى على الكل أمر لا مرد له حتى قضوا فكان القوم ما كانوا وإذا كان للأفراد جرائم مرض تدخل جسومهم فتقودها الى الموت فالخلاف هو جرثومة فساد لا مم اذا دخلها قادها الى الضعف ثم الى الفناء .

وأظن أننا جربنا ذلك في أنفسنا أخيراً حتى كادت تمنحى به صحيفة قوميتنا من عالم الوجود . والأهم على كل حال فريسة ضحية اختلاف الرؤساء في كل وقت وفي كل حين !! وليست للتاريخ من عبء ولا للأيام من موعظة بل التاريخ يعيد نفسه . وغدك أشبه شيء بيومك ويومك أشبه الأيام بأمسك : سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

إذا ما أراد الله لإذلال أمة رماها بتشتيت الهوى والتخاذل ومن باب زيادة الفائدة أقول لك شيئاً عن تاريخ جبل طارق الذى تمتد عليه الآن الاستحكامات الانجليزية فى طول ثلاثة كيلومترات ، ثم تنتهى بمنطقة حرة قدرها ٥٠٠ متر قبل اتصالها بأراضى اسبانيا ، ومن دون هذه الاستحكامات مدينة جبل طارق التى بناها وشيد حصونها عبد المؤمن بن على أمير الموحدين سنة ١٠٥٥ . وعدد أهلها الآن ٢٠ ألف نفس وأبنيتها متدرجة على البحر وعلى مسافة ٨٠٠ متر من الشمال الغربى للاستحكامات الانجليزية . وأهل المدينة غالبهم من الاسبان ومنهم كثير من اليهود ، وهى كثيرة الحرارة فى الصيف بما لا يقل عن ٤٠ درجة سنتجراد ، لذلك ترى أهلها يكثرون من شراب الليمون كما يكثروا أهل مدن أسبانيا عامة من شراب البرتقال ويسمونه نارنجا .

وهذه المدينة على الدوام مغطاة بالضباب وفى حالة حصار . وهى فى يد الانجليز من سنة ١٧٠٤ م حين استولى عليها السير جورج روك الذى كان يقود الأساطيل الانجليزية من غير أن يطلق عليها طلقاً واحداً . وكان ذلك بأشارة الرئيس كرامويل الذى كان يرى حصانة هذا الموقع وتحكمه فى البحرين . وفى سنة ١٧٨٣ حاصرت فرنسا وأسبانيا جبل طارق

ولكن الانجليز تغلبوا على جنودهما وطردهم من هذه المنطقة . وهم من ذلك الوقت متسلطون على البحرين بل على سواحل القارات الثلاث مما يلي البحر الأبيض المتوسط .

ولهذه المدينة ذكرى مؤلمة في نفس كل مصري منذ نقي الانجليز اليها المغفور له سعد زغلول باشا زعيم الحركة القومية في مصر لغير سبب اللهم الا قيامه للدفاع عن حقوق وطنه .

العبدة والتاريخ

بعد أن ترك موسى بن نصير الأندلس الى المغرب بالغنائم والأسلاب التي لا يحصىها العدد ، وصل اليه أمر الخليفة الوليد بن عبد الملك بالأسراع اليه بما في يده من الغنائم . وكان المرض قد اشتد به حتى أصبح لا أمل في شفائه . ولكن أخاه سليمان وهو ولي الأمر من بعده أرسل الى موسى يستبطئه في سيره رجاء أن تصير الغنائم التي معه لنظره وأمره . غير أن موسى لم يكن أمامه غير الأذعان لأمر خليفته الذي تجب طاعته اذعاناً يأمر به الدين والعقل جميعاً قال الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » وأسرع موسى في سيره حتى وصل الى دمشق قبل موت الوليد بثلاثة أيام . فلما ولي سليمان الخلافة ، أمر بالقبض عليه وبحسابه حساباً عسيراً كان من ورائه نكبته ،^(١)

(١) يظهر أن سليمان كان سريلاً بنكبته لكل تابع من قومه : فإنه ما كاد يجلس على كرسي الخلافة حتى نكب ابن نصير وهو الذي مهد للأمية بلاد المغرب والأندلس ، ولم يتصف طارفاً صاحب الفتوحات العظيمة بأجائبا ثم قضى على آل الحجاج بن يوسف وهم الذين مهدوا للأمويين الحجاز والعراق وخراسان وليس لهؤلاء من ذنب إلا كونهم من رجال أخيه الوليد بن عبد الملك وأعد كانت نكبتهم سبباً لخروج قتيبة بن مسلم الباهلي والي خراسان على سليمان خوفاً منه وما زال في ثورته حتى قتل .

لا لشيء الا أنه أطاع أمر من كان له الأمر إذ ذاك ، وأعقب هذا مصادرتة في كل شيء : مصادرتة في ماله ، وفي حريرته ، وفي نتائج انتصاراته الباهرة التي إن نسيها له سليمان فإن التاريخ لا يستطيع أن ينساها وبعد هذا كله أقسم سليمان بأنه لا يخرج من محبسه الا اذا اشترى نفسه بخمسين الف دينار لم يكن يملك منها قليلا ولا كثيرا !! وما زال في سجنه حتى دفعها عنه يزيد بن المهلب ليد كانت له عنده . ومات موسى منفيًا في المدينة سنة ٩٨ هـ وهو في محنته بأئسًا فقيرًا بعد أن مات قبل موته ما كان له من مواهب جليلات، وصفات ساميات، حرم الاسلام الاتقاع بها ثلاث سنوات أو تزيد !!

ولم تقف نقمة سليمان عند شخص موسى بل تمدته الى ولده عبد العزيز والى الأندلس ، فقد دس عليه من قتله في شوارع قرطبة ، على ما كان فيه من دين وعلم وشجاعة وبعد نظر وحسن ادارة : وذلك خشية أن تارة لو والده . بل تمدتهما نكبة سليمان الى كل بنى نصير ! :

وبالجملة قد كان قيام موسى بهذا الواجب سببًا في نزوله من سماء المجد والعز الى حضيض الذلة والهوان . وما كان أحرأه لو كان أطاع

واند كان سليمان في نكبته لأعظم دولته مثالا رديًا للخلفاء من بعده . فقد قتل يزيد بن عبد الملك يزيد بن المهلب . ونكب الوليد بن يزيد خالد بن عبد الله القسرى . وكل هؤلاء من الافذاذ الذين لم تنجب أمهات العرب أمثالهم . وهم الذين لهم اليد الطولى في فتوحات الامويين وتوطيد دعائم ملكهم . وبموتهم ماتت الدولة الاموية في الشرق ولم تبق لها بدمى قائمة . وقد حذا العباسيون حذو الامويين في محتهم للرؤساء وأعظم القواد . فعمل السفاح لقتل أبى سعة الخلال ، وقتل المنصور أبى مسلم الحراساني بعد أن قامت على رأسيهما وبايديهما الدولة العباسية . ثم نكب يزيد بن هبيرة بعد أمانته له : ونكب المهدي وزيره يعقوب بن داود . ونكب الرشيد البرامكة . ونكب المعتصم وزيره الفضل بن مروان . ونكب المتوكل الوزير ابن الزيات ونكب الراضى وزيره ابن مقله : وكلهم من خيرة رجال الدولة العباسية الذين كان على أيديهم رفقا وعظمتها .

سليمان أن يكون خائناً لمولاه مخالفاً لأمر الله ، بائعاً ثمدة يومه بمنقصة غده . ولو كان موسى يعرف غير الطاعة في حقيقتها لكان أمكنه أن يعتذر بأيّ عذر عن السير الى المشرق . ولو وصل بعد نظره الى ما آل اليه أمره لكان أعلن استقلاله بالبلاد التي افتتحها بسيفه وهو في أمن من نقمة الخليفة بعد الشقة وصعوبة المواصلات . ولكن اذا كان سليمان ابن عبد الملك قد ظلم موسى في نكبه اياه ظالماً لا يقتضيه له التاريخ ، فهل أنصف موسى مولاه طارقاً بعد فتحه للأندلس ؟ أم نكبه هو أيضاً حتى خفي أثره واتقطع خبره لحسده له على ما آتاه الله من فتح مبين ظهرت فيه مواهبه السامية ، وعبقريته النادرة ، وبلاؤه الحسن ، مما سجلته له الأيام ونقشت اسمه بمادة الجلال والفخار على صفحة ذلك الجبل الذي يشرف شمالاً وجنوباً على القارتين أوروبا وأفريقية ، وشرقاً وغرباً على البحرين الأبيض والاطلانطى

الرسالة السابعة

الأندلس مدة الأمويين

استولى العرب على اسبانيا وهم لا يملكون شيئاً . وكانت وجهتهم
الفتح ، وفكرتهم ممتلئة بمظمة الدين وفضيلته ، ونفوسهم تترفع عن
الدنيا ، وأيديهم تعف عن أموال المغلوبين ، وقلوبهم كلها رحمة بهم : لهذا
كله كانت أقوى الجيوش لا يمكن أن تقف أمام قلوبهم الحديدية التي
كانت متى أنجحت الى شيء فتنته معها كانت قوته وصلابته ، بل كانت
البلاد تفتح لهم أبوابها لما عرفته فيهم من العدالة والابتعاد عن كل مظلمة ،
ولأن الجزية التي كانوا يضربونها عليها كانت أقل من الضرائب التي
كانت تأخذها ملوكهم منهم . ولما اتسمت فتوحاتهم وعظم ملكهم
وضخت ثروتهم وضربوا بجرانهم في الأندلس (وكانوا يطلقونه على
أملأكم باسبانيا والبرتغال) عنوا بكل أسباب الحضارة : فاهتموا بالزراعة
وشقوا الترع وحفروا الخلجان وغرسوا الأشجار ومهدوا المزارع ونظموا
المروج ورتبوا الرياض وتسابقوا في تشييد الدور وتعمية القصور حتى
أصبحت هذه البلاد بهم جنة قطوفها دانية ، وثمراتها جانية . وكان الناس
على اختلاف طبقاتهم ينعمون في مهاد الثروة وما يحيط بها عادة من
اللذائذ المتبانية . ووصلت الخلافة الأموية الغريبة في ذلك الوقت الى
ما لم تكن تحلم به العرب من عظيم السلطان وجسيم الثروة ووافر الحرمة
وإساع العمران وبارق الحضارة ، الى حد جعل العربي الذي وصلها وليس
في وقاضه غير لقيحات من الشعر يسد بها جوعته ، وعلى جسمه لباس

خشن يستعورته ، أصبح يرقل في الدمشق والحريز ، وبأكل الحلوى
والفطير ، ونسى ما كان يسمع عنه في الكتب من فالوذ الدولة الشرقية
(بالأماسية) الغربية .

وقد بلغت عظمة السلطان في اسبانيا أوجها في مدة عبدالرحمن الناصر
الأموي ، وهو السابع من أمرائهم وأول من سمي بأمير المؤمنين في هذه
البلاد ، وكانوا يشبهونه بالرشيد لضخامة ملكه وثخامة دولته وعظيم ارادته
وكبير سياسته وواسع علمه وكرمه . كما كانوا يشبهون ولده الحكم بالأمون
لما كان له من ذهن حاضر وعلم وافر ونظر ثاقب ورأى ناضج وعقل
راسخ ومجد باذخ ولاهتمامه بالشؤون العامة وعنايته بنشرها في بلاده
باكثراره من معاهدها واستقدامه لكتبتها المختلفة من كل جهة من
جهات الشرق ، حتى كون دار كتبه التي كان فيها مئات الألوف من الكتب
الثمينة النادرة . وبمكهما قامت العظمة الاسلامية في هذه البلاد بكل
مظاهرها ، من فتوحات موفقة ، وثروة متدفقة ، وعلوم هجة ، وفتون مهمة ،
وأمالك شاسعة ، وتجارة واسعة ، وصناعة باهرة ، وزراعة ناضرة ، وحضارة
ومدنية لم ير مثلها في الأندلس في أيامها السابقة ولا اللاحقة . وكانت
ملوك الفرنجة المتأخين لأرضهم يدفعون لها الجزية عن يدوهم صاغرون .
ولقد كانت مدينة قرطبة عاصمة الأندلس زهرة البلدان في الغرب ،
كما كانت بغداد زهرتها في الشرق ، وكانت شمسها تنبعت منها أشعة
العلوم والعرفان والمدنية بجميع مظاهرها وظواهرها الى كل نقطة من
المسكونة شرقية أو غربية . وكانت بغداد ودمشق وخراسان والاستانة
ومصر وغيرها من العواصم المشهورة تحمل اليها ما اكتمل من صناعاتها

ونادر كتبها ومختلف تخفها ليعمها في أسواقها الغنية التي كانت تكتظ بالأموال والهواة من النساء والرجال . لذلك كانت مدينة القوم تأخذ بطرف من مدنات هذه البلاد ، وهي اذا ظهرت لك شرقية من جهة ، بانت عليها مسحة تتفق مع الذوق الأوربي من جهة أخرى : سواء اكان ذلك في صناعتها أم فيما فيها من فن ونقش ورسم وتصوير .

ولو نظرت الى شعرائهم وكتابهم لوجدت لهم صيغا خاصة بهم ألبسوها معاني جديدة جمعت بين حسن الصنيع ولطف البديع . ولو نظرت الى علمائهم لرأيتهم بعيدين عن الجمود الذي تراه في غيرهم . ولو نظرت الى فلاسفتهم لوجدتهم قد صاغوا من فلسفة أرسطو وأفلاطون ما كان أساساً للفلسفة الجديدة التي بنى كانت وديكارت ويكون واسبنسر عليها فلسفتهم التي تتألق أشعتها الآن في أوربة . ولو نظرت الى موسيقيها وأغانيها التي يسمونها بالاندلسيات تراها تملك اللب وتأخذ بالقلب وتسهيى العقول بنغماتها الشجية . وإذا سمعت نغماتها الحالية خصوصاً تلك القطعة التي يسمونها (فلنسيا) التي لها كبير التأثير حتى في عظماء علماء هذا الفن في أوربة عرف أنها أثر من تلك الأغاني العربية القديمة التي وضع قواعدها زرياب .

وكان زرياب من أعلام المغنين بالشرق أخذ الغناء عن اسحاق الموصلى وتفوق تفوقاً كبيراً خاف على أثره من معامه اسحاق لقربه من الخليفة الرشيد ، فهاجر الى الأندلس سنة ١٣٦ ووصل اليها مدة عبد الرحمن بن الحكم فبالغ في اكرامه وأفاض عليه من أنعامه ، بما كان يقدر دخله بأربعة آلاف دينار ، وجعله عمدة المغنين . وقد رقى زرياب صناعة

الغناء بالأندلس واخترع للموسيقى نظاماً جديداً وأضاف الى العود وترّاً خامساً وكان قبله على أربعة أوتار فقط ، ووضع طرقاً للغناء أصبحت علماً خاصاً اشتهرت به الأندلس لتفوقها فيه ولا يزال أثره فيها الى الآن. والرقص الاسبانى الحالى هو ذلك الرقص العربى اتصت به خفة الراقصات ورشاقتهن وتقنهن فى حركاته ، فى جيئاته وروحاته . وبالجملّة قد انتهى القرن العاشر المسيحى بعظمة الحكم الأموى بالأندلس ، بعد أن استمر ثلاثة قرون مصدراً لكل أنواع المدنية ، ومظهراً لعظمة الحضارة الأندلسية ، فى كل طرف من أطراف المسكونة . ولقد كانت المكاتب العمومية والخصوصية مدة حكمهم غاصة بنقائس الكتب ، ولولا ما صادف كتب الأندلس من نكبات التحريق والتمزيق من العامة فى أواخر الحكم الأموى وخصوصاً مدة المرابطين والموحدين بدعوى أن فيها فروعا تخالف الأصول فى جوهرها ، وأن ما فيها من قواعد الفلسفة يخالف قواعد الدين ، لكان ما وصل إلينا منها أكبر برهان على أن القوم قد وصلوا الى سنام مجد العرفان ، فى ذلك الزمان . وأكبر النكبات التى صادفت الكتب فى الغرب هى تحريق النصرانية لها بعد استيلائهم على غرناطة : فقد أحرق فى هذه المدينة وحدها بأمر الكاردينال كشميس ٨٠ ألف مخطوط عربى وهى نكبة أشبه شىء بنكبة الكتب فى الشرق فى منتصف القرن السابع الهجرى حيث أمر هولاء كويعد استيلائه على بغداد بأن يعمل منها جسر فى الدجلة لجواز جيوشه عليه من شاطئ الى آخر .

وكانت المدارس فى عهدهم عامرة بالتلاميذ ، والمعاهد العلمية مكتظة

بالطلبة من سائر الأقطار . وكـم قد تخرج في هذه المعاهد من خول علماء المسلمين في كل فن وفي كل علم : أمثال ابن رشد في الفلسفة وابن زهر في الطب وابن فرناس في الرياضيات وابن زيدون في الأدب وابن أبي عامر في الانشاء وابن حزم وابن باجه في الفقه والشاطبي في القراءات وغيرهم وغيرهم ممن يضيق المقام عن ذكرهم . ولا زلنا الى اليوم نقرأ أسماء من انتسب منهم الى مدينته كالقرطبي والاشبيلي والمالقي والبطلوسي والمجريطي وغيرهم من العلماء الأعلام الذين لهم قدم صدق في الاسلام . وكان البابا سلفستر الثاني وليون الثمين أحد ملوك الاسبان من خريجي جامعة قرطبة . وبالجمله كان أمر هذه المدرسة في الغرب كما كانت مدرسة الاسكندرية في الشرق وهي في أبان عظمتها : يؤمها الطلبة من كل فجح حتى من الرومان واليونان ، وكما هو الحال اليوم في مدارس أوروبا التي يقصدها الناس من كل جهات العالم للتعلم فيها . تلك سنة الخليفة : يقلد الضعيف القوى حتى في مأكله ومشربه ولباسه . وقد يذهب بعض من لا خلق لهم الى تقليده في الضار لا في النافع ولله في خاتمه شؤون .

وكانت ملوك أوروبا تستقدم الأطباء من العرب وتستشيرهم سواء أكانوا من المسلمين أم من اليهود . والعرب أول من نظم البساتين لدراسة النبات في أوروبا . وهم أول من وضع جامعة سالرن بإيطاليا وهي أول جامعة نشأت بأوروبا كما يعترف به العلامة الامرليون كشياني المؤرخ الايطالي كما تنسب اليهم جامعة مونبليه الطيبة بجنوب فرنسا وهي لا تزال شهرتها معروفة في مصر ، ويقصدها الآن كثير من الطلبة المصريين .

وقد بنى الخلفاء الأمويون قصور الزهراء خارج قرطبة ، وكانت آية من آيات الزمان ، بل جنة من جنات الخلد ، وصل التأنيق في مبانيها ونقوشها وفروشها وأثاثها ورياشها الى ما ذكره مؤرخو العرب بما يعسر على العقل تصوره . ومن عجيب ما كان فيها بحيرات من الرمرر يتجبر مأوها من أفواه طيور من الذهب ، وكان يحيط بالبحيرات تماثيل أسود من الذهب ينزل الماء من أفواهها الى بساتينها التي كانت في نظامها تدهش الأبصار وتبهز الأنظار .

وكان في أبنائها الكبرى صور ورسوم كثيرة للجمال النسائي في جملة أوضاع تلفت الساجد وتفتن العابد ، والى جانبها كثير من مناظر الصيد من حمر وحش وسباع وغزلان وطيور في صور مختلفة . وبالجملة كانت الزهراء مما لا يتيسر لوصف وصفه : ولقد أتى الحريق على أغلب مبانيها زمن المهدي بن هشام بن الحكم ، وقضى على باقيها الجول ثم القشتاليون بعد استيلائهم على المدينة ، ولم يبق منها الآن غير اطلال تنعى ما كان فيها من عظمة وجلال ، وما كان بين جدرانها من نخامة وجمال . ولقد بنى المنصور بن أبي عامر بقرطبة قصر الزاهرة وكان آية في عظمتة وحسنه ، وقد محته يد الزمان وسبحان من تفرد بالبقاء .

وقد عثروا سنة ١٩١٠ في أطلال الزهراء على آجر مكسو بطبقة من الذهب وعلى أشياء كثيرة عليها صور طيور وسباع وصور نساء عاريات مما يثبت ما جاء في التاريخ عن مدينة ^(١) الأمويين بالأندلس .

(١) جاء في خطبة السيولاجير دو مستيم LEGIERE DE MISTEYME في مؤتمر المستشرقين برحلي سنة ١٨٧٦ : « أن القوط في هجومهم على فرنسا تحت قيادة ألياريك في مبدأ القرن الخامس المسيحي لم يتركوا أثرا في البلاد التي افتتحوها . أما العرب فقد تركوا في

ولما تجاوزت الرفاهية فيهم حدودها استسلم الخلفاء الأمويين في آخر أمرهم الى ملاذهم وأخذوا يمتجيبون عن الناس في قصورهم ، وكان اذا حضر المذشدون أو السفراء تكلموا من وراء حجاب ، ويقف الحاجب من دون الستر فيكرر ما يقولونه ، ثم يجيبهم بما يقول الخليفة .

البلاد التي احتلوها أثراً لايزالون يذكرون به الى الآن . لأنهم لم يقصروا على ادارة شؤون هذه البلاد التي وضعوا يدهم عليها مثل ناربيون ، وبروفانس وغيرها . بل قاموا بعمارتها في وقت كانت فيه دولتهم قائمة على أساس متين من الحضارة والمدنية . ولقد كان شانو (شانجه) أمير ليون يذهب الى بلادهم لاستشارة أطبائهم بالذات . كما أن الراهب جريير GERBERE تعلم في مدارسهم قبل أن ينتخب لكرسي البابوية باسم سلفستر الثاني . وكذلك بطرس فترايل PIERRE LE VÉNÉRABLE وقسيس كولوني L'ABBÉ DECLUNY تعلما في مدارس قرطبة . والى القرن الخامس عشر ما كانت فرنسا تعرف أسماء المؤلفين اليونانيين الا من طريق ترجمة كتبهم في أسبانيا الاسلامية . وقد أخذت فرنسا عنهم العلوم المختلفة ، وأساليب الزراعة وتعلمنا منهم حفر الترع والخليجان ، ونظام الري ، وأخذنا منهم حاصلات الشرق من الحبوب والأشجار والنبات التي زاولوا زراعتها في الاندلس وعالجوها حتى صارت صالحة للزراعة في أوروبا . والى الآن بين أيدينا من أعمالهم منسوجات ثمينة جدا في كنيسة سان تروفيم S.TROPHIME بأرل . وفي سانت سيريز . وسانت آن في مدينة آن ، الى أن قال — وفي القرن العاشر دخلت القنوش الرومانية الى بلادنا بوساطتهم . وأن العالم ميسو ريفوال استكشف في كنيسة القديس بطرس قرب أرل نقوشا عربية جميلة جداً ، ثم قال — ان الدم العربي لايزال في جنوب فرنسا خاصة في سيرست SERESTE وفي بلاد أخرى من جبال الالب . وقد وجد العالم الدكتور جوس D. GOSSE في السفوا وفي سويدرا وعلى بحيرة كونسترا أناسا كثيرين صورهم شرقية وسنحهم عربية صرفه ولهم لغة خاصة بهم ولا يزال أهل تلك الجهات يسمونهم الشرقيين أو أبناء الوثنيين FILS DE PAÏNS.

وقد جاء بمقال في السياسة الاسبوعية في أول يناير سنة ١٩٢٦ بمضاء م . ج . بس ما ملخصه :

« ومدينة كوزيلية القريبة من كوتر اكسبيل لا يزال أهلها في عزلة عن الفرنسيين ولا يتزوج بعضهم الا من بعض ولهم لغة خاصة بهم ومن عاداتهم أنهم لا يقيمون المرائض في احتفالاتهم ومعظم نساءهم محتجبات ولا يزال في كثير من أسمائهم لفظ « الله » كعبد الله وفتح الله . وهم يحفظون نسبهم ويفتخرون بأنهم من سلالة الفاتحين — الى أن قال : « والعرب هم الذين أدخلوا صناعة البط والسجايد الى مدينة أوبسون واقتبس الفرنسيون منهم انشاء السفن » .

وانا لو عرفنا أن مدينته كوزيلية بجبال النوج ، وأن العرب وصلوا في فتوحاتهم الى انليم بروفانس وهو يشمل المنطقة التي بين نيس ومرسيليا الى الدوفينه شمالا ولتجدوك غربا وكان مستقلا ولم ينضم الى حكم فرنسا الا في زمن شارل الثامن ، ثم نهضوا الى الشمال واستولوا على

ومن ذلك ان ابن مقانا الاشبوني ألقى قصيدة له على مسمع من الخليفة
المحتجب ادريس بن يحيى الجودى قال في آخرها :

انظرونا نقتبس من نوركم انه من نور رب العالمين

فرفع الخليفة الست وقابل وجهه بوجهه وأجازه جائزة حسنة .

ويظهر أن هذه الحالة بقيت مستمرة في ملوك المغرب الى زمن
قريب : سمعت أستاذنا المرحوم الامام الشيخ محمدا عبده يقول : أنه في
زيارته الى تونس ذهب لمقابلة سمو الباي ، فوقف بينهما ترجان فكان اذا
قال الشيخ جملة كررها الترجان الى الباي ، واذا قال الباي شيئا كرره
الترجان للشيخ ، حتى انتهى الحديث بهذه الوساطة وكل ذلك باللغة
العربية . ومع أنى لا أفهم معنى لوجود الترجان هنا وهناك قد تكون
الحال في الأمرين ليست بواحدة : لأنه كان في عهد الخلفاء مظهرا
للضعف المبرقع ، أما في هذا العهد فهو أثر من آثار الضغط الفرنسى الذى
يقيد على البايات حريتهم ويعد عليهم أنقاسهم حتى في كلمات تخرج من
أفواههم خصوصا مع الغرباء ولا سيما أمثال الشيخ عبده .

مدينة بيزانسون ، عرفنا أن هؤلاء الفاتحين قد انقطع عليهم خط رجعتهم بعد هزيمة اخوانهم في
بواتيه ، فاقاموا في هذه الجهات الجبلية في منطقة دفاع حتى انتهى أمرهم بالصلح مع أهل البلاد
على أن يقيموا في المدينة التى كانت في أيديهم . ومن ثم اشتغلوا بالزراعة التى لم تكن معروفة في
تلك الجهات واندمجوا في أهلها على مر الايام وان كانت لا تزال عليهم مسحة شرقية صرفة في
سحتهم ولغتهم وعاداتهم تكاد تميز عن غيرهم . والذى يدعوننا الى هذا الفرض هو كونهم
لا يزالون يسمون أبناء الفاتحين .

وقد يكون هؤلاء العرب وصلوا الى تلك الجهة بعد طردهم من أسبانيا لأن فرنسا فتحت لهم
أبوابها في أواخر القرن السادس عشر مدة المائة مائى دوميس ، فانتفعت بهم انتفاعا ماديا وأديا .

للعبرة والتاريخ

كان أمراء العرب بالأندلس في أول أمرهم قائمين بأمر الفتح ، فلما جاء الأمويون وكانت البلاد قد تمهدت لهم وضموا الأساس الدولة ، ونظموا داخليتها ، ورتبوا أنظمتها ، وجعلوها مصدر الحضارة الإسلامية الغربية ، ومحل ازدهار المدنية الغربية . وكانت سياستهم مبذية على التسامح ، بعيدة عن الجور والظلم ، وبذلك انتشر الدين الاسلامي في مدتهم بين الاسبانيين من غير مبشرين ولا منذرين ، بل كانت سماحة الشريعة الاسلامية هي السبب في انتشاره في أنحاء البلاد المفتوحة ، فأسلم كثير من نصارى الاسبان واندمجوا في المسلمين ، وتكلموا لغتهم وتآدبوا بآدابهم ، حتى أصبح أبناءهم ولا فرق بينهم وبين العرب في شيء . وظهر منهم كثيرون في الهيئات العلمية ، ومنهم من بقى على اسم أبيه كابن بشكوال ، وابن بونه ، وابن برال ، وابن سلبطور وابن غرسية . بل وصل اندماج الغالبين بالمغلوبين الى أن العرب كانوا يزيدون على أسمائهم نهايات لاطينية أو افرنجية صرفة : فمنهم من أضاف الى اسمه الواو والنون فقالوا : زيدون في زيد . وعمرون في عمرو . وخلدون . ويدرون . ووهيون . وحفصون . وزرقون . وعبدون . وهكذا . ومنهم من زاد في آخر الكلمة الواو والسين أو الياء والسين . فقالوا : عمروس ، وعبدوس ، وحيوس ، وحمديس وهكذا . (راجع كتاب السفر الى المؤتمر للعلامة زكي باشا) . وربما أضافوا الى أسمائهم اللقب الأجنبي كما قالوا « ابراهيم الصانتو » يعنون ولي الله ابراهيم الذي أبلى بلاء عظيما في حصار الاسبان لما لقة قبل فتح غرناطة : كما تقول النصارى سانت بطرس وسانت بولس .

وفي مدة الأمويين نهضت الأندلس في كل جميع شئونها، وازدهر فيها العلم، وانتشرت فنون الصناعة في كل جهاتها، وظهرت الثروة بين الأهليين. ولما أمر الناصر برسوم الخلافة في أواخر العقد الثاني من القرن الرابع، بعد أن رتب أمور دولته، ونظم جبايتها، وكثرت عليه الأموال من الضرائب والفتن، رأى أن يبني له قصراً يليق بجلال الخلافة. فأمر سنة ٣٢٥ بالزهاء فبني على هضبة تبعد عن قرطبة غرباً بنحو أربعة أميال وثلاث ميل. ومما قاله مؤرخو العرب فيها أنه كان بها ٤٣٠٠ سارية، وعدد أبوابها يزيد على خمسة عشر ألف باب، وأنه كان يعمل في عمارتها كل يوم من الخدم والفعلة عشرة آلاف رجل، ومن الدواب ألف وخمسمائة دابة، وجلب إليها الرخام الأبيض من المدينة، والمجزع من رية، والوردى والأخضر من إفريقية ومن سقاس وقرطاجنة، والحوض المنقوش المذهب من القسطنطينية، وكان فيه نقوش وتماثيل وصور على صور الإنسان، فأمر الناصر بنصبه في وسط المجلس الشرقى المعروف بالمؤنس، ونصب عليه اثني عشر تمثالا، ثم بنى فيها المجلس المسمى بقصر الخلافة، وكان سمكه من الرخام النليظ الصافي في لونه المتلونة أجناسه والموشى بالذهب، وجعلت في وسطه اليتيمة؟ التي أتخف الناصر بها ليون ملك القسطنطينية وكانت قراميد هذا القصر من الذهب والفضة، وكان في كل جانب من هذا المجلس ثمانية أبواب قد انعقدت حنايا من العاج والابنوس المرصع بالذهب وأصناف الجواهر، قامت على سوار من الرخام الملون والبلور الصافي. وكانت الشمس تدخل على هذه الأبواب فيضرب شعاعها في صدر المجلس وحيطانه فيصير من ذلك نور يأخذ بالأبصار، وأحاط هذا

القصر بالبساتين وأجرى اليه المياه من جبال قرطبة ، واتخذ فيه مسارح للوحش فسيحة الفناء متباعدة السياج ، ومسارح للطيور مظلة بالشباك . وحاطه بسور جعل فيه ٣٠٠ برج لاقامة الحرس . ولما تم بناؤه نقل اليه مركز الخلافة ، وكان بعض أبنيته خاصاً بالخليفة ، وبعضها بدواوين الخلافة ، وبعضها بالخدم والحشم ، وبعضها بالحرس من الجنود . وقد قدروا ما أنفق على الزهراء كل عام بثلاثمائة ألف دينار في مدة خمس وعشرين سنة .

ولما مات الناصر زاد في الزهراء ابنه الحكم . وما زالت مركزاً للخلافة الى أن أحرقها البربر سنة ٤٠٠ هـ في فتنة سليمان بن الحكم بعد أن نهبوها . وقد يزعم كثير من المؤرخين ان هذا كان آخر العهد بها ، ولكن ابن خلكان ذكر في ترجمة المعتمد بن عباد أنه كتب الى بعض خاصته بقرطبة بهذين البيتين :

حسد القصر فيكم الزهراء ولعمري وعمركم ما أساء
قد طلعت بها شمساً نهاراً فاطلموا عندنا بدورا مساء

وكان المعتمد قد اصطحب معهم في الزهراء ، ودعاهم الى الاعتناق معه في قصر قرطبة . ولو عرفت أن المعتمد لم يملك قرطبة الا بعد سنة ٤٦٠ هـ عرفت أن حريق سنة ٤٠٠ لم يكن علماً بها ، وأنها أصلحت من بعده حتى أصبحت تليق بأن تكون محل سكن أو ترهة ابن عباد ملك البلاد . وعلى كل حال ان خرابها الكامل لم يتأخر عن هذا الوقت كثيراً وأظن انه كان في وقت الانقلابات التي انعمى بها أثر ملوك الطوائف مدة المرابطين لبعدهم عن التأنيق في كل مظهر من مظاهر الحياة . ولما

استولى الاسبانيون عليها أتموا هدمها حتى لا يلجأ اليها المسلمون اذا
عنّ لهم محاصرة قرطبة .

وكان بقرطبة غير الزهراء قصر الزاهرة الذى أمر المنصور بن أبى
عامر فى سنة ٣٦٠ ببنائه على نهر الوادى الكبير شرقى هذه المدينة .
وانتقل اليه فى سنة ٣٧٠ . وكان من أكبر القصور نخامة ، وأحسنها
نظاما ، وأعلاها أسوارا ، وأوسعها أسواقا . وقد جعل فى قسم منه
حكومته ، وبنى الناس فى الفراغ الذى بينه وبين قرطبة حتى صار البنيان
متصلا بينه وبينها الى الزهراء .

وكان بقرطبة غير هذين القصرين البديمين قصور نخمة كثيرة
للخلفاء وغيرهم من الوزراء والأمراء والقواد والسراة : فكان فيها القصر
الكامل والمجدد . والحائر . والروضة . والزاهر . والمعشوق . والبارك .
والرستق والتاج . والبديع . وقصر السرور . وقصر الشراحيب . والبحور .
والمنيف . وقصر الناعورة . ومنتزهاتهم خارج قرطبة : قصر الرصافة .
وقصر ابن عبد المؤمن . والقصر الفارسى . والسد . وقصر الحاجب .
والسرادق . ومنية الزبير .

وكانوا يتساحون فى تشييد هذه القصور بما كانوا يقيمونه فيها من
التمائيل فى أوضاع مختلفة . وفى نفح الطيب وصف كثير منها شعرا ونثرا
وقد وصل بهم التسامح فى التمايل ان كانوا يقيمونها فى ميادينهم العامة
وكان منها ثمانية على باب الزهراء

وقد قال بعضهم فى تمثال أقيم فى ساحة من ساحات شاطبية :

كأنه واعظ طال الوقوف به مما يحدث عن عاد وعن أرمأ
فانظر الى حجر صلد يكلمنا أشجى وأوعظ من قس لمن فهمأ
وكان بقرطبة وحدها من الدور العامة ١٠٣٠٠٠ ، ومن الدور
الخاصة ٦٣٠ ، ومن الحمامات ٧٠٠ ، ومن المساجد ٣٨٣٧ .

وأكثر أهل الأندلس فى البناء حتى كان المسافر على الوادى
الكبير لا يكاد ينقطع نظره عن العمران والبساتين التى كان بعضها يتصل
ببعض على طول النهر من جهتيه . وكان نور السرج ليلا يكاد يكون
متصلا فى طوله . وقد قال ابن خفاجة الذى توفى سنة ٥٣٣ ساعه الله فى
وصف هذه البلاد :

يا أهل أندلس لله دركو ماء وظل وأنهار وأشجار
ماجنة الخلد إلا فى دياركو ولو تخيرت هذا كنت أختار
لا تحسبوا بعد ذا أن تدخلوا سقراً فليس تدخل بعد الجنة النار
وقد قال المقرئ : « اتصلت العمارة بقرطبة أيام بنى أمية ثمانية
فراسخ طولاً فى فرسخين عرضاً تقدر بأربعة وعشرين ميلاً طولاً وستة
عرضاً . وكان عدد أرباضها أحداً وعشرين فى كل ربض من المستاجد
والأسواق ما يقوم بأهله ولا يحتاجون إلى غيره . وكان بخارج قرطبة
ثلاثة آلاف قرية فى كل واحدة منبر وفقية مقلص تكون الفتيا فى
الأحكام والشرائع له وكان لا يجعل القالص منهم على رأسه إلا من
حفظ الموطأ وقيل من حفظ عشرة آلاف حديث عن النبي صلى الله
عليه وسلم وحفظ المدونة . وكان هؤلاء المقلصون المجاورون لقرطبة يأتون
يوم الجمعة للصلاة مع الخليفة ويسلمون عليه ويطلبون له بأحوال بلادهم . »

ولقد كان الخلفاء يرسلون بأشخاص عدول إلى الجهات البعيدة
ليستقصوا لهم أخبار عمالهم وحال رعيتهم . وكان كثير منهم يعيش في
أسواق قرطبة لاستطلاع حال الناس بنفسه . ويجلس على باب قصره
بدون حجاب . فيقصده المظلومون ويدثون إليه شكواهم من غير وساطة
وكانوا مع عزة سلطانهم وجلال ملكهم يطأطئون رءوسهم أمام
الحق . ومن ذلك : ان الناصر أيام عمارته للزهراء وانها كه في بنيانها لم
يشهد الجمعة بالمسجد الجامع فلم يطق قاضي الجماعة منذر بن سعيد ذلك
وصعد المنبر وبدأ خطبته بقوله تعالى : « أتيتون بكل ريع آية تعبثون .
وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون . واذا بطشتم بطشتم جبارين . فاتقوا الله
وأطيعون . واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون . أمدكم بأنعام وبنين وجنات
وعيون . إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم » ثم نوه بالزهراء وقال :
« أفن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم أسس بنيانه على
شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين »
لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم الا أن تقطع قلوبهم والله
عليم حكيم

فأقسم الخليفة ألا يصلى خلف ابن سعيد أبدا . — فقال له ولده
الحكم : وما يمنعك من عزله والاستبدال به ؟ — فقال الناصر : أمثل
منذر بن سعيد في فضله وورعه لا أم لك يعزل في إرضاء نفس ناكبة
عن الرشد ؟؟

ومن ذلك أن أمير المؤمنين يعقوب المنصور سلطان الموحدين
بلغه أن أحد الشعراء قد نال منه وأخذ الحاضرون يكبرون أمره

ويحركون من سخط الخليفة عليه !! ولكنه رحمه الله أجابهم بما يدل على عظمة نفسه وسمو أخلاقه بقوله « نحن نعاقبه بالحلم ». وهل قامت عظمة خلفاء العرب وملوكهم إلا على هذه الأخلاق السامية؟ وهل شيد بنيان مجدهم إلا على العدل والاذعان إلى الحق ولو على أنفسهم؟ وكم من رجال منهم وقعوا في دائرة القضاء بجوار خصومهم من رعاياهم حتى إذا صدر حكم القاضى لهم أو عليهم نفذوه في الحال ، ثم عادوا الى دائرة سلطانهم المحفوفة بسياج الجلال والمظمة .

ولقد كانت الأندلس مدة الأمويين رافلة في الثروة ، عامرة بالسكان الذين وصل عددهم مدة حكمهم في الأندلس الى أربعين مليوناً من النفوس وبالجملّة ان العرب هم الذين نقلوا علوم المشرق وفنونه وهندسته الى الغرب فشاعت فيه أبنيته وأصبح لها في أوروبا علم ونظام خاص بها *STYLE MAURESQUE* ولقد كانت نخامة القصور التي بنوها تستدعي أن يكون بها من الأثاث والرياش ما يتناسب مع رونقها وجلالها : فكانوا يأتون بفرشها وما يلزمها من أثاث ثمين ورياش نادر من جهات المشرق . ومن هذا شاعت في الأندلس مع هندسة البناء وما إليها من رسم وتزيين وتلوين جميع الصناعات التي تلزمها من نسيج وتطريز وتنجيد وغير ذلك من صناعات المدنية الراقية التي انتشرت في الأندلس على عهدهم . وقد اشتهرت قرطبة بدباغة الجلود ، ومالقة بعمل الفخار والزجاج . والمرية بعمل الأجران والحديد والنحاس وبناء السفن . وسرقسطة بعمل السمور وأنواع النسيج الحريرية والكتانية . وشاطبة بعمل الورق . وكانت أشبيلية مشهورة بنسج الحرير وكان فيها مدة العرب ١٣٠ ألف

نير (نول) فأصبحت بعد استيلاء الاسبان عليها وليس فيها غير أربعين نيرا . وكانت للعرب بالأندلس أندية يجتمعون فيها لمذاكرة العلم والأدب وأخبار العرب وغيرهم . وكان للخلفاء والأمراء أوقات مخصوصة يجتمع اليهم فيها العلماء والشعراء والأدباء . وكان للنصور بن أبني عامر مجلس خاص بأهل العلم يجتمع فيه معهم كل أسبوع للمذاكرة في مختلف العلوم . وكان بالأندلس أربع جامعات للطب بقرطبة وأشبيلية ومرسية وطليلة . وكان بها من المعاهد العلمية والأدبية ما لا يحصى العدد .

وكانت عندهم مدارس لتعليم الفقراء . وكان في قرطبة وحدها مدة الحكم بن الناصر عشرات من المدارس لتعليم الأيتام . وكان التعليم مدة حكمه منتشرأ جداً في الأندلس حتى قال أحد مؤرخي الفرنجة : « أن التعليم يكاد يكون عاما بين جميع طبقات عرب الأندلس في حين أن الطبقة العليا بأوروبا كانت من الأمية بمكان . وكان بالأندلس ستون مكتبة عامة متفرقة في بلادها الكبرى . وكان الناس يكافون باقتناء الكتب للاشتهار باقتنائها أو للاتفااع بها ، حتى كاد يكون في بيت كل سرى مكتبة خاصة به ، وكانوا يعيرون كتبها من يريد الاشتغال بها .

وقد وصلت بلاغة العرب في اسبانيا في شعرهم ونثرهم الى أوجها . وكانت تدور حول السهل الممتنع مع جزالة اللفظ وحلاوة الأسلوب . وكان كتابهم يعتمدون عن الغريب في أقوالهم ، ومنهم من كان يطيل في الكلام ويكثر من المترادفات خصوصاً في أيام دولتهم بقرطبة . وكانت كتاباتهم على العموم تمتاز بكثرة السجع .

وأكثر من ظهر منهم من الشعراء والكتاب في القرن الخامس

مدة ملوك الطوائف : لأنهم كانوا في أول أمرهم يحتاجون الى تعزيز مراكزهم بنشر عبارات الحمد والثناء وآيات التعظيم والتفخيم التي كانت تذاع بوساطة من كان يفد عليهم من الشعراء . لهذا كثرت الشعراء في زمنهم . وكان يساعد على ذلك ما كان في مجالسهم من موجبات الانس والسرور التي كانت تنبسط فيها النفوس وتشهد القرائح . (وأصبح أغلب شعرائهم نواسين يهيمون في جمال الرقيق وأباريق الرحيق .

ومع أن ملوك الأندلس وخصوصاً مدة عبد الرحمن الثالث كانوا يهتمون بنظام جندهم وتعزيز جيوشهم البرية التي وصلت زمن الخليفة الحكم إلى سان سيستان (شانت امتاني) وزمن ابن أبي عامر إلى ثغر شانت ياقوب كانوا يهتمون برقي بحريتهم وانشاء ما يلزمها من المراكب الحربية والتجارية التي كانت تحمل تجارة بلادهم إلى الشرق وتجارة الشرق إلى الأندلس . وكانت لهم في ثغورهم البحرية دور لصناعة السفن لا يزالون يسمونها (الترسانة) (ATTARSANA) أشهرها في زمن المنصور بن أبي عامر وكانت في قصر أبي دانس بالساحل الغربي للأندلس . وكانت دور الصناعات هذه مشغولة على الدوام بتجديد ما يلزمهم من السفن وانشائها وكانت أساطيلهم تربض في ثغور البلاد ، والأسطول الأكبر يقيم في المرية . وسفنه الحربية في ذلك الوقت كانت تتركب مما يسمونه البوارج والشواني والحراقات والطرائد البطي والقراير والعشاريات والشلنديات وما يتبعها من الزوارق . وكان ثغر المرية حافلاً بتجارة الشرق كما كانت مالقة حافلة بتجارة الغرب ، لذلك كانت هاتان المدينتان أغنى بلاد الأندلس وأضخمها ثروة .

وكانت ملوك الأندلس تخصص الجوائز للناخبين والمخترعين . وقد اخترع الوزير بن بدر مدة الناصر طريقة للطباعة كان يطبع بها الأوامر والمنشورات التي كان يرسل بها إلى أطراف المملكة . وهل كان اختراعه هذا قاعدة لغوتبرج بنى عليها اختراعه لحروف الطبع في سنة ١٤٣٦ ؟ وخاصة أن لاروس يقول في دائرة معارفه أن الطباعة كانت معروفة في أوروبا في أوائل القرن الثاني عشر . ولعله كان يريد أن يقول إنها كانت موجودة بالأندلس في ذلك العهد .

وبالجملة قد كانت مدينة الأندلس في غاية الرقي في جميع مرافقها . وكانت أشعة شمسها تتصل بأوروبا بحكم الجوار فتفيض عليها من أنوارها التي صاغ الأفرنج منها مدنيّتهم وقامت عليها عظمتهم العلمية والفنية والصناعية . وحتى الشعر الذي هو وحي النفوس إلى الرؤوس لم يرتق عند الفرنجة إلا بفضل عرب الأندلس ، وعنهم أخذوا استعمال القافية عندهم . وشعراء فرنسا العظام لم تجذبهم الأيام إلا من القرن السابع عشر أمثال مولير ، وفولتير ، وبوالو ، ولافونتين ، وراسين ، وكورني . (راجع تاريخ علم الأدب للخالدي) وكلهم كان في النصف الأول من القرن السابع عشر . وأما لامارتين ، وشاتوبريان فكانا في أواخر القرن الثامن عشر . وأما أكبر شعرائهم فيكتور هيجو فانه كان يعيش في نصف القرن التاسع عشر . وقد سار بعضهم في صياغة شعره على النهج العربي سواء في مبانيه أو معانيه . وكان يلبسها من روعة النسيب والتشبيب متأخراً به عبارته . بل قد يكون غزله دائراً حول أسماء عربية كما أشته وفاطمة فيزيد ذلك في شعره حلاوة وطلاوة . وأشهر من كتب في هذا

السياق غوطاً أكبر شعراء الألمان الذي كان يعيش في النصف الأول من القرن الثامن عشر ، ومن تأليفه ديوان الشرق والغرب . أما شكسبير أكبر شعراء الأنجليز فقد كان يعيش في أوائل القرن السابع عشر . ويذهب الأمير كيتاني الكاتب الطلياني الشهير في رسالة « نصيب الاسلام في تدرج المدنية » الى أن الطب في مدرسة سالرن - وقواعد العلم الطبيعي في الجامعة الايطالية الأولى - وما كان لدانتى الشاعر الايطالى مولور (سنة ١٢٦٥) وصاحب اللاميدى الآلهية المشهورة من واسع الخيال وجمال التصوير في شعره انما كان أثراً لما كان في قرطبة وبغداد من علم زاهر وفلسفة رائعة أيام كانت أوربا تخبط في جهالتها .

ولما كثرت الثروة في الأندلس كان أهل البلاد يرفعون في بحبوحتهم ، حتى اذا توافرت فيهم أسباب العمران وكثرت أمامهم موجبات الحضارة والرفه أخذوا بجميع أطرافها ، فكانوا في أول أمرهم مع اشتغالهم بالعلوم والفنون والزراعة والصناعة والتجارة لا يحرمون أنفسهم ملاذها في أوقات راحتهم وكانوا يخرجون فيها الى النزهة في البساتين التي كانت خارج مدنها ومعهم المغنون والضاربون على آلات الموسيقى الوترية فيقضون يومهم بين كل مالد وطاب ، مع صفوة أحباب ، وجمال آراب ويمكنك أن تتخيل وصف هذه المجتمعات من العبارة الآتية : قال المقرئ :

« كتب أبو عامر بن نيق الى هند جارية ابن مسلمة الشاطبي وكانت أديبة شاعرة ولها صوت جميل ومعرفة بالموسيقا :

ياهند هل لك فى زياره فنيه نبذوا المحارم غير شرب السلسل
سمعوا البلابل قد شدت فتذكروا نفحات عودك فى الثقيل الأول
فكبت اليه فى ظهر رقعة :

ياسيداً حاز العلا عن سادة شم الأنوف من الطراز الأول
حسبى من الاسراع نحوك أنى كنت الجواب مع الرسول المقبل

ومن اشتهر من المغنيات فى الأمويين حمدونة بنت زرياب ،
وهندية ، وغزالات . وكان يصل من المشرق منهن عدد ليس بقليل كان
فى مقدمتهن جارىتان اشتهرتا بجمالهما وحسن غنائهما وهما فضل المدنية
وعلم المدنية . وكان للخاصة نصيب من هذا الفن اشتهر منهم عبد الوهاب
ابن حسين الحاجب وكان أحق أهل زمانه بضرب العود .

ولقد كان لمجالس الغناء فى كل دور الأندلس أثر كبير فى الأدب
بسبب ما كان يقوم بالنفوس من التبسط بعوامل السرور والتوسع فى عالم
الخيال فتجيش بالشعر . وجر ذلك الى وضع الأغانى فى أشكال مختلفة
كان أهمها عندهم الموشحات التى وضع أساسها فى آخر القرن الثالث
الهجرى . وأول واضع لها مقدم بن معافر من شعراء الأمير عبد الله بن
محمد المروانى فى أواخر القرن الثالث وأخذها عن أديب الأندلس أحمد
ابن عبد ربه صاحب كتاب العقد الفريد (ولكن لم يظهر لهما مع المتأخرين
ذكر وكسدت موشحاتهما حتى نبغ عبادة القزاز شاعر المعتصم بن صامح
صاحب المرية المتوفى سنة ٤٣٣ هـ فأجاد فى نظم الموشحات ، وما زالت
ترقى حتى وصلت فى مدة الحكم بن الناصر الى درجة عالية ، وشاعت فى
أغنية القوم لما كان لها من التأثير فى النفوس . ثم جاء على أثرها اختراع

الأزجال والموالي^(١) . وكثر استعمالها في العامة وما زالت حتى جادت وتهذبت في أوائل القرن السادس ونبغ فيها أبو بكر ابن قزمان الذي يدعونه بامام الزجالين (وكان لعهد المثلثين)

وكان من جملة ملاحهم ما يسمونه بالخيال (خيال الظل) وهو تماثيل من ورق يحركونها بخيوط من وراء ستارة من نسيج أبيض ، ويشعلون من ورائها ناراً فتتسم صورها على الستارة بحركاتها التي تمثل لك بلسان محركها رواية مضحكة يتخللها شيء من الشعر والفكاهة . وقد كان خيال الظل معروفاً بالقاهرة الى أواخر القرن التاسع عشر . وأظن أن بعض الأحياء القديمة بها لا يزالون يذكرون من أبطاله الراهب منشا ، ودعاير ولا أدري أوصل هذا الخيال الى الغرب من الشرق أو وصل اليانا من الأندلس ؟؟ وهل كان هذا الخيال مقدمة لاختراع (الخيالة السينما) الذي أصبح الآن ملهى جميع الأمم المتمدينة ؟

وكانت مجالس الغناء لا تخلو من الشراب وكانوا لا يجهرون به في أول أمرهم لأن الأمراء والخلفاء الأمويين كانوا يقيمون فيه حدود الله ، حتى وصل الحال بالحكم بن الناصر في محاربتة للخمر أن أراد استئصال شجرة الكرم لولا أنهم أخبروه بإمكان عمله من غيرها . ولكن الحال بعد الأمويين قد تغيرت وأصبحت الخمر شائعة في مجالسهم وربما كان

(١) كثر استعمال المواليا والأزجال بين عامة الاندلسيين حتى كانوا يقولونها ارتجالا . وقد ترى هذا الى اليوم في أرياف مصر . فان بعض الفلاحين يحفظ عن ظهر قلب بضعة مئات من المواليل خصوصاً في الوجه البحري ، كما يكثر ما يسمونه بالواوات (وهي نوع من المواليل) في الوجه القبلي . وترى في غلتهم الى الآن من يرتجل منها ما لا يقل في جودة معناه ورقة لفظه عما تراه في أرقى الشعر وأمتنه .

لبرودة جو البلاد أثر كبير في ذلك خصوصاً مع ضعف الوازع الديني
فكثرت فيها أقوالهم وأشعارهم .

ومن قول أحد القادمين من العرب على غرناطة :

يحل لنا ترك الصلاة بأرضهم وشرب الحميا وهو شيء محرم
فراراً الى نار الجحيم فاتها أخف علينا^(١) من شلير وأرحم

ومن قول عامر بن هاشم القرطبي في نونيته البديعة :

يأليت لي عمر نوح في إقامتها وان مالى فيه كنز قارون
كلاهما كنت أفنيه على نشوا ت الراح نهبا ووصل الحور والعين
وانما أسفى أنى أهيم بها وان حظى فيها حظ مغبون

ومن قولهم .

يارب ليل قد هتكت حجابها بمدامة وقادة كالسكوكب

ومن قولهم :

سلّ الهموم اذا نبا زمن بمدامة صفراء كالذهب
مزجت فمن در على ذهب طاف ومن حجب على لهب
وكانت ساقها يثير شذا مسك على الأقوام منتهب

ومن قولهم :

يسمى بها أحوى الجفون كأنها من خده ورضاب فيه الأشنب
بدران بدر قد أمنت غروبه يسعى بيدر جانح للمغرب

ومن أبدع ما قيل في الحمر وساقها قول المعتمد بن عباد :

(١) وشلير جبل من أعمال البيرة لا يفارقه الثلج شتاء ولا صيفاً

لله ساق مهفّف غنّج قام ليسقى فجاء بالعجب
أهدى لنا من لطيف حكمته في جامد الماء ذائب الذهب
ومن قول ابن حمديس في وصف مجالس الرقص على نفحات
الموسيقا :

وعدنا. إلى هالة أطلعت على قضب البان أقارها
يرى ملك اللهو فيها الموم تشور فيقتل ثوارها
وقد سكّنت حركات الأسي قيان تحرك أوتارها
فهذي تعانق لى عودها وتلك تقبل مزمارها
وراقصة لقطت رجلها حساب يد تقرت طارها
وكان بعضهم يشكّل الغانيات بشكل الفتيان قال الوزير بن شهيد :
ظبية دون الظباء قصصت فأت غيداء في شكل^(١) صبي
فتح الورد على صفحتها وحماء صدغها بالمقرب
ومن هذا ترى أن القوم بعد دولة الأمويين استسلموا للشهوات،
وشاعت فيهم مجالس الخمر والسماع ورقص الراقصات على نفحات الأوتار
في كل شكل من أشكال الخلاعة !! حتى أن المرابطين أنفسهم في آخر
دولتهم قد سكنوا القصور في الأندلس وأكثر ولائهم من مجالس
اللهو والأنس بما ضعفت به عصيتهم الدينية والخلقية حتى تغلب
عليهم الموحدون ونزعوا منهم هذه البلاد بعد استيلائهم عليها مسدة
اثنين وستين سنة (من سنة ٤٨١ الى سنة ٥٤١) .

(١) لا أدري أهدا ما يسمونه الآن لاجرسون (LAGARCON) فإذا كان هو بينه
فقد سبق الأندلسيون الفرنجة حتى في هذا بتسعة قرون .

الرسالة الثامنة

سبب تفرق كلمة العرب في اسبانيا وضعفهم

استكثر الأمويون في الأندلس من البربر وهم شيعة الذين قاموا
بنصرته عبد الرحمن الداخل في أول أمره على مناوئيه من شيعة العباسيين
الذين كان لهم الحكم قبله ، بل نصروه على جيوش شارلمان التي أرسلها
لحربه ترفلاً لصديقه الخليفة العباسي في الظاهر ، وخوفاً من تطاول ملك
العرب الى أرض فرنسا في حقيقة الأمر .

ولما ثبتت قدم الأمويين في الملك ، أخذوا يقلدون العباسيين في
استكثارهم من المماليك الصقالبة وغيرهم ، وخاصة في أيام عبد الرحمن الناصر ،
حتى أصبحت لهم الكلمة النافذة في البلاد وصار حكمها من بعده في
أيديهم . وأصبح حالهم هنا حالهم في الشرق شبراً بشبر وقدماً بقدم .
وكانت نفوس كثير منهم تتحدث في قراراتها بتخطي الرقاب وطرق
كل باب للوصول الى منصة الحكم . ولم يكن يقعد بهم عنها الا ما كان
يحيط بها من رمح مشروع ، وسيف مسلول ، وعظمة قائمة ، وسلطان
قدمه في الأرض ورأسه في السماء . وعلى كل حال كان لهم التصرف
المطلق في داخلية الدولة . وخالف الأمويون في الأندلس آباءهم في دمشق
في محافظتهم على عصبيتهم العربية ، فضعفت بذلك شوكة العرب وتقمعوا
على حكومتهم وما زالوا يترقبون الفرصة للخروج عليها حتى قام ابن
أبي عامر وزير الحكم بن الناصر ، وكان من العرب المستمسكين
بعصبيتهم . فأخذ بدهائه في التفرقة بين العناصر المتغلبة من صقالبة وأتراك

وبربر ثم بالايقاع بهم شيئاً فشيئاً . وكان في أثناء ذلك يستقدم رجالات من بربر المغرب من قبائل زناتة ومصمودة وغيرهم ، وكان يوليهم مناصب الدولة . حتى اذا شعروا بعده بضعف الخلفاء ومن والاهم أخذوا يخرجون على دولتهم ويستقلون بأطرافها : وأول من بدأ منهم باستقلالهم بنو عباد في أشبيلية ، ثم بنو زيرى في غرناطة ، وبنو الأفطس في بطليوس ، ثم بنو ذى النون في طليطلة ، ثم بنو عامرى بالنسية ، ثم بنو هود في سرقسطة ، وبقيت قرطبة في يدى بني حمود ثم بنى جمهور وما زالوا حتى غلبهم على أمرهم الفرنجة من الشمال ، ثم المرابطون من الجنوب .

وكثيراً ما كان ملوك الطوائف يحارب بعضهم بعضاً طمعاً فى استيلاء هذا على ما كان فى يد الآخر ، حتى انتهى أمرهم الى الضعف وصاروا يدفعون الجزية الى الاذيفونش ، غير ما كانوا يلاقونه من الهوان من الأسبانيين . وما زالوا حتى ضاقت صدورهم من غدر ملوك الأسبان بهم وسوء معاملة لهم . فأجمعوا أمرهم على استدعاء عرب المغرب لنصرتهم : وكان هذا رأى ابن عباد صاحب اشبيلية . وكان المغرب وقتئذ فى حكم المرابطين ، وأميرهم يوسف بن تاشفين سلطان المغرب من أقصاه الى أدناه فلما وصلت اليه دعوة ابن عباد قبلها ، وعبر الى الجزيرة سنة ٤٤٩ هـ بجيوش جرارة على رأسها قائده العظيم داود بن عائشة . وسار هو وفى مقدمته وزيره الكبير سير بن أبى بكر اللمتموني . فقابلته جيوش الأسبان متجمعة بقرب بطليوس وعلى رأسها الاذيفونش ملك قشتالة ، ووقعت بينهم موقعة تشيب لها الولدان انتصر فيها ابن تاشفين والاندلسيون انتصاراً باهراً . وهذه الواقعة يسمونها واقعة الزلاقة . وهرب الاذيفونش

بعد أن جرح في يده جرحا بليغا . ثم طلب الصلح من ابن تاشفين ففححه ذلك لمدة خمس سنين ، أخذ فيها الأذيفونش على نفسه ألا يتعرض للمسلمين بشيء مطلقا . وخلصت بلاد الأندلس من مظالمه ، ومما كانت تدفعه إليه كل عام من الجزية ، وتسمى ابن تاشفين بعد هذه الواقعة بأمير المسلمين . وقد غنم المسلمون من هذه الموقعة شيئا كثيرا جدا من الأموال والأَنْفُس . فعف ابن تاشفين عنه وتركه جميعه لأهل البلاد ، وانصرف عن الأندلس إلى المغرب تاركا وراءه جمال العمل وجميل السيرة

وفي سنة ٤٦٨ هـ جاز ابن تاشفين إلى الأندلس جوازه الثاني بدعوى أن أهله شكروا إليه من كثرة المكوس (الضرائب) التي كانت تأخذها منهم ملوك الطوائف . فلما وصل إلى الجزيرة الخضراء خافه ملوك العرب وقطعوا الميرة عن جيوشه بعد أن اتفقوا مع ملوك الفرنجة عليه ، فقصده بلادهم واستولى عليها واحدة بعد واحدة . وبعت يبنى زيرى أصحاب غرناطة إلى المغرب فقصوا فيه بقية حياتهم . ثم قصد اشبيلية وحارب ابن عباد حتى إذا تغلب عليه اعتقله وأرسل به إلى أغمت من أعمال مراكش ، وما زال في اعتقاله بها حتى مات سنة ٤٩١ هـ . ثم قصد بطليوس وقبض على ملكها ابن الأفطس وقتله . وبذلك أصبحت الأندلس من أقصاها إلى أدناها في حوزته إلا سرقسطة (وهي في شمال اسبانيا) فانها بقيت في يد بني هود لاغتصامهم بالأذيفونش ولبعدها عن مركز القوة الإسلامية .

ولما خلاص ابن تاشفين من استيلائه على الأندلس فويض أمره إلى وزيره سير الممتونى ورجع إلى بلاده . ومن ثم أصبحت الأندلس في يد

المرابطين . وما زالت في أيديهم إلى أن دب الشقاق بين أحفاد ابن تاشفين طلباً للملك في أواخر القرن الخامس الهجري بما كان سبباً لضعفهم ، وقيام بلاد المغرب عليهم ، حتى سقطت دولتهم بقيام دولة الموحدين . ودولة الموحدين قامت على يد المهدي محمد بن تومرت ، وما زال حتى مات سنة ٥٢٤ . فاتفقت رجالات المغرب على مبايعة عبد المؤمن ابن علي ، وكان في مقدمة رجال المهدي علما وفضلا ودهاء . وهو أول من تسمى في المغرب بأمير المؤمنين .

وفي سنة ٥٤٦ أجاز عبد المؤمن إلى الأندلس جيشاً من الموحدين لالفتح فتغلب على غريبه ثم حاصر المربعة فاستغاث من كان فيها بالاذيفونش الذي أرسل اليهم حليفه محمد بن مردنيش على جيش من النصاري والمسلمين ، فكسره عبد المؤمن ، وتم استيلاء الموحدين على الأندلس في مدة أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن ، وله إصلاحات كثيرة في اشبيلية : وهو الذي بنى جامعها وأقام جسرهما ، وأتى من بعده ولده المنصور يعقوب فأكمل الجامع بحيث أصبح لا يضاهيه شيء في الدنيا ، وقد حارب المنصور يعقوب الاذيفونش ومعه ملوك النصرانية فانتصر عليهم انتصاراً باهراً في واقعة الكرك الشهيرة ALARCOS وفتح كثيراً من الحصون والبلاد التي كانت في أيديهم . وما زال يتقدم في الفتح حتى طلبوا إليه الصلاح . فصالحهم على خمس سنين وذلك في سنة ٥٩٢ هـ .

وقد ذكر مؤرخو العرب أن من قتل في هذه الموقعة من النصاري أكثر من مائة ألف . أما ما غنمه المسلمون فيها فهو شيء لا يحصىه العد ولا يحيط به الحصر : حتى أصبحت العرب تبيع الأسير بدرهم ، والسيف

بنصف درهم ، والحمار بدرهم ، والفرس بخمسة دراهم . وبعد هذه الواقعة استولى المنصور على طلمنكة . ثم قصد طليطلة وهي عاصمة الاذيفونش وحاصرها ، ولما لم يبق غير نزول من فيها على ارادته نزلت والدته الاذيفونش وبناته وحرمه واستغثن به وبمروءته ، فأكرم مثناهن وأعادهن الى مقرهن معززات مكرمات . وعاد هو الى بلاده بالغنائم التي لا حصر لها .

ولما مات يعقوب المنصور سنة ٥٩٥هـ استولى بعده ولده أبو عبد الله محمد الناصر . فجاز الى الاندلس عام ٦٠٩هـ بجيوش من العرب يقدرونها بستمائة الف . هناك أعلن البابا الحرب المقدسة ، فهرعت جيوش النصرانية من ايطاليا وفرنسا والمانيا واتحدت قواتها في اسبانيا واستعدتوا لملاقاة الناصر بسهولة (نافا دوتولوزا) : وهي قرية تبعد عن قرطبة شمالا بمائة وأربعين كيلومترا .

وكان الناصر قد أعجبه كثرة جيوشه فأخذ يفتك في طريقه برجال الاندلس بإيماز وزيره ابن جامع الذي أراد أن تكون الكلمة له وحده وأهمل رؤساء البلاد وقادتها ولم يستشرهم في أمر عدوه ، وهم أدري الناس بالجهة التي يأخذونه منها . وما زال حتى التحمت جيوشه بجيوش النصرانية في هذه السهول التي يسميها العرب العقاب : لكثرة ما كان فيها من العقبات التي كانت سبباً في خذلانهم وانتصار جيوش النصرانية عليهم انتصاراً باهراً تمزقت معه جيوش المسلمين على كثرتها بحيث لم ينج منهم غير القليل . ومن هذا الوقت ظهر كوكب نحس المسلمين في الاندلس وغربت شمس سعادتهم والله تعالى غالب على أمره .

وعلى أثر هذه الواقعة مات الناصر ، فبايع أهل المغرب ولده يحيى ، فلجأ أخوه المأمون بن الناصر الى ملك قشتالة يستنصره على أخيه وعلى الموحدين ، فاشترط عليه شروطا جمة : منها أن يعطيه عشرة حصون يختارها هو مما فى يد المسلمين مما يلى بلاده ، وأن تبني له كنيسة فى مراکش فلما قبلها جهز له جيشا من الأسبان دخل به أرض المغرب ، وهناك جمع المأمون شيوخ الموحدين وقتلهم صبراً ، وكان عددهم أكثر من أربعة آلاف نفس . ومن هذا الوقت أخذت الأطراف تثور عليه فى المغرب وأخذ حكم الموحدين فى الضعف .

وفى هذه الأثناء استولى الفرنجة على قرطبة ثم على جزر البليار وبلنسية ، واستولى اسطولهم على سبتة وغيرها من سواحل المغرب ، ثم استولوا على اشبيلية . وما زالوا يستولون على بلاد الأندلس وحصونه حتى لم يبق مع المسلمين غير غرناطة التى بقيت فى يد بنى الأحمر لمنعتها وكثرة أهلها : لأن سواد البلاد التى كان يفتحها الفرنج كان يلجأ اليها . ومع هذا كانت تدفع الجزية فى غالب أيامها للملك قشتالة

ولما استولى بنو مرين على المغرب كان بنو الأحمر يساعدون الفرنجة عليهم . كما كان بنو مرين يتحدون أحيانا مع ملك قشتالة على بنى الأحمر وما زال ملك بنى الأحمر قائماً بغرناطة حتى دب الخلاف بين أبى عبد الله ابن أبى الحسن وعمه الزغل على الملك وانتهى بتغلب الفرنجة على غرناطة فى سنة ٨٩٢هـ الموافق لسنة ١٤٩٢م وبه انتضى ملك المسلمين فى الاندلس وانطوت صيقتها . وسبحان من له الملك يؤتية من يشاء وينزعه ممن يشاء .

وقبل أن نختتم هذه الرسالة نذكر كلمة عن الازيفونش^(١) (ألفونس) الذي استمر العرب في تواريتهم يتحدثون عنه في الأندلس حتى يخيل للقارىء ان الازيفونش هذا عمر طويلا ومارس في حربه معهم أجيالا عديدة فالأفرنج يقولون ألفونس الاول . والثاني . والثالث . وهكذا . وقد اقتصر العرب على الاسم دون الوصف الذي يعينه : وعلى ذلك فألفونس السادس ملك قشتالة وليون واشتوريا هو الذي كان له شأن كبير معهم ، وهو الذي استولى منهم على طليطلة في سنة ١٠٨٥ م وجعلها عاصمة ملكه . وبعد ذلك أخذ يستولى على أطراف بلادهم حتى امتلك منهم نصف اسبانيا الشمالى : وهو مايسمونه بقشتالة الجديدة . وألفونس السادس هو الذي انكسرت جيوشه أمام ابن تاشفين في واقعة الزلاقة سنة ١٠٨٦ م ومات بجراحه منها سنة ١١٠٩ م .

أما ألفونس الثامن ملك أراغون فهو الذي كان له شأن مع ملوك الطوائف وجيوش الموحدين ، وانكسرت جيوشه أمام جيوش يعقوب ابن عبد المؤمن في واقعة الكرك سنة ١١٩٥ ، ومات سنة ١٢١٤ م بعد سنتين من انتصاره مع جيوش النصرانية على محمد الناصر في واقعة العقاب المشؤومة .

أما ألفونس أمير البورتغال الذي انتهى أمره بانتخابه ملكا لهذه المملكة فهو الذي أخذ من العرب لشبونه وسنتارين .

(١) وسماه ياقوت الأذفتش وذكره ابن خلكان الأذفونش بضم الهمزة وسكون الدال المعجمة وضم الفاء وسكون نواو وبعد هاتون ثم شين معجمة وسماه ابن الأثير الفونش وهو أفرجها الى كلمة (ألفونس) ويظهر أن القوم كانوا يعتبرونه لقباً لا اسماً كقصور وكسرى اد يقول ابن خلكان انه اسم لا كبير ملوك الفرنجة وهو صاحب طليطلة .

وفرديناند الثالث ملك قشتالة المسمى بسان فردناند (القديس فرديناند) هو الذى أخذ قرطبة من العرب سنة ١٢٣٦ ثم استولى على اشبيلية سنة ١٢٤٩ م .

أما فرديناند الثانى ملك نافاريا واراغون والذى تزوج بايزابلا ملكة قشتالة فهو الذى أخذ غرناطة من العرب سنة ١٤٩٢ وأخرجهم من أرض اسبانيا .

فاذا علمت ذلك وفقك الله فلا تعط لأحدهم ما ليس للآخر من مركزه التاريخى .

للعمرة والتاريخ

العملة الأولى لضعف العرب فى اسبانيا هى تفرق الجماعة وانقسام الدولة الأموية بعد أن طويت صحيفة بنى عامر الى عشرين دولة صغيرة استقل بها ولايتها وهى : اشبيلية . جيان . سرقسطة . النمر (ما كان فى شمال طليطلة) . طليطلة . غرناطة . قرمونة . الجزيرة الخضراء . مرسية . بلنسية . دانية طرطوشة . لاردة . باجة . المرية . مالقة . بطليوس . لشبونة . جزائر البليار . وقرطبة .

وكان هذا الانقسام ولا بد داعيا الى كثرة الخلاف بين رؤساء هذه الدول وطمع كل منهم فيما فى يد الآخر ، واشتعال نيران حرب كل منهم بين جيرانه ، ووثوب القوى على الضعيف . ومن قول ابن حزم باختصار : « فضيحة لم يأت الدهر بمثلا : أربعة رجال يسمى كل واحد منهم أمير المؤمنين ! واحد باشبيلية ، والثانى بالجزيرة الخضراء ، والثالث بمالقة والرابع

بسببته ، وأصبح العرب والبربر في خلاف مستديم ، والجميع في خلاف مع أهل المغرب الأقصى وفي حروب مع الأمم الإسبانية والبرتغالية »
ثم آل أمر هذه الدول الى خمس : سرقطة وما والاها شرقا الى البحر في يد ابن هود . وطليطلة وما والاها شمالا وجنوبا في يد ابن ذي النون . واشبيلية وما والاها جنوبا في يد ابن عباد . وبطليوس وما والاها غربا في يد ابن الافطس . وآلت قرطبة الى يد الوزير ابن جهور ثم دخلت في حكم ابن عباد .

وكانت أمهات الأولاد من الاسبانيات لا يزال الدم الأجنبي يجري في عروقهن ، ولا يزال أثر النصرانية ماثلا في قلوبهن ، فكان مسلمات في حالة ضعفهن حتى اذا وجدن الفرصة غير سانحة للاثار بقومهن أرضعن أولادهن خور العزيمة وأضعفن فيهم دماء قوميتهم وديانتهم : فكان هذا من أكبر الأسباب في تخود حميتهم وخصوصا في الطبقة العالية منهم . ولا بد للأخلاق العامة من التأثير في هذا التغير الذي طرأ على حالة العرب في اسبانيا ، فزل بهم من المستوى الذي كانوا فيه مدة الأمويين ، وكانت كثرة الثروة من الملل التي جرت بهم الى الدعة والرفه فالوا الى اللهو بجميع أنواعه . ومع أن متدياتهم كانت مدة عزيمتهم وقوتهم كلها علمية وأدبية وفنية يتخللها أحيانا ما يبيحه الدين والحضارة من موجبات السرور كالأغاني والموسيقا مما نهضت به عزيمتهم وظهرت ثقافتهم وتجلت بطواتهم في سلمهم وحربهم ، فانهم لما استرسلوا في ملاذهم ، واستسلموا الى شهواتهم ، واستنموا الى الراحة ، ضعفت فيهم الحمية الدينية والعصبية : فأهملوا شئون بلادهم ، وتقوية

ثغورهم ، وقعد كل مصر عن الدفاع عن حوزته . وكان عدوهم فيما بين ذلك يعمل وهم نيام ، ويتقدم كل يوم الى الأمام . وبعد أن كان يخنع الى سلطانهم ويستكين الى قوتهم ، ويدفع لهم الجزية وهو صاغر ، وصل حالهم بتفرق جامعتهم وانقسام دولتهم الى طوائف ، ان كانوا يستنصرون به بعضهم على بعض . ولم يكن هذا في دولة منهم ضد أخرى فحسب ، بل كثيرا ما كان يستظهر الابن على أبيه والأخ على أخيه بملوك النصرانية : كما كان من المنذر والمؤتمن ابني المقتدر سلطان سر قسطة ، حتى ضعفوا جميعا ، واستولى العدو على بلادهم سنة ١١١٨ م . وكما كان من ولدى عبد العزيز ابن أبي عامر صاحب بلنسية . وكما كان من استنصار المأمون بن الناصر من بني عبد المؤمن ملك قشتالة على أخيه يحيى . ولقد كثر استنصار بني الأحمر بملوك النصرانية بعضهم على بعض في آخر دولتهم حتى ضعفوا وذهبت ريحهم وسقطت بلادهم في يد عدوهم . ولو عرفت أن طليطلة وهي أول حجر انهار من هيكل عظمة الإسلام بأسبانيا إنما أضاعها صاحبها القادر بالله بن المأمون بن يحيى بن ذي النون لشهوته في الاستيلاء على بلنسية ، واستنصاره ملك قشتالة ألفونس السادس لمساعدته في ذلك ، وكان ألفونس لا يرح يورطه في حربه لبني عامر حتى أضغفه واستولى هو على بلاده في سنة ١٠٨٥ م بعد أن مكثت مستقلة في أيدي بني ذي النون ٧٣ سنة — لو عرفت ذلك كله لعرفت أن ملوك النصرانية كانوا ينشطون لمساعدة ملوك الاسلام بعضهم على بعض لأمرين : الأول أن ينتفعوا من وراء حرب فئة من المسلمين ضد أخرى منهم وهم بذلك يضعفون جميعا ، وهو كل أمنيتهم : لأن الدولتين النصرانية والإسلامية

كانتا في كفتى ميزان اذا خفت موازين واحدة منهما ثقلت موازين الأخرى . والثاني أن يكون لهم السلطان التام على من كان من المسلمين في حمايتهم وتحت رعايتهم فيستخدموه ما شاءوا ويشمروه ما أرادوا . وبهذه السياسة وصلوا الى غايتهم من اضعاف دول العرب في الأندلس بما مكنهم من الرئوب عليها واحدة بعد أخرى حتى استولوا عليها جميعا ومن هذا تعلم أن العرب لما انحطت أخلاقهم ضعفوا وتلاشى أمرهم : وإنما الأمم الاخلاق ما بقيت فان هو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

واقدر كانت ملوك العرب وأمرؤهم في أول أمرهم يخرجون الى معمة الحروب بأنفسهم فيثيرون الحمية في قلوب جيوشهم فتظهر بطولتهم التي كان يلزمها النصر والظفر . فلما استناموا الى الرفه ضعف فيهم الخلق الحربي فقدموا عن القتال . ومشى على سنانهم عظماء دولهم فاستجاشوا الصقالبة والمدجنين والعييد . بل وصل بهم الحال أن كانوا يستأجرون مرتزقة من الأسبان ممن لا يهتمهم النصر ولم تكن للهزيمة وقع في أنفسهم . ولعل أول من عمل ذلك المنصور ^(١) بن أبي عامر في زحفه على (شانت ياقو) . وكان بنو هود بسرقة يستأجرون البطل سيد ^(٢) ورجاله في حروبهم ضد إخوانهم المسلمين .

(١) وشان ما بين عمل المنصور في استخدامه لمرتزقة الأسبان وبين استخدام غيره لهم : فان المنصور كان يستعملهم في حربه ضد نصارى الشمال فكانوا سلاحا في تخور بي جنسهم وملتهم أما بنو هود وغيرهم فانهم كانوا يعاملهم هذا يساعدون النصرانية بأموالهم وبرحاضة على أضعاف إخوانهم المسلمين : وهم بهذا مهدوا السبل الى استيلاء الأسبانين على دول العرب بالجزيرة واحدة بعد أخرى !

(٢) كان رودريك لذي اشتهر عند العرب باسم السيد قنبطور LECID CAMPIADOR مشهورا بفروسيته . ولقد ساعد الأمير شانجه بن الملك فرديناند الأول على أخيه ألفونس . فلما تولى ألفونس عرش البلاد نكب رودريك وصادره في ماله . فهاجر الى صخرة قريبة من

وكان الاسبانيون بعكس ذلك يحاربونهم أمة مجتمعة يسير تحت
لوائها الملك والأمرير يحوار الجندى الصغير، وكل منهم لا يعرف أمامه
غرضاً غير مجد الانتصار على خصمه، وهو ولا شك واصل اليه بمجدالته
ومثابرته .

ومن ذلك أن الاسبان لما قصدوا بلنسية سنة ١٤٥٦ هـ خرج اليهم
أهلها بملابسهم الحربية فانكسروا أمامهم في واقعة طبرنة وفي ذلك
يقول الشاعر :

لبسوا الحديد إلى الوغى ولبستمو حلل الحرير عليكم ألوانا
ما كان أقبحهم وأحسنكم بها لو لم يكن بطبرنة ما كانا

سرقطة وبنى ما يمكننا اجتماع عليه فيه نحو ٣٠٠ من المعجبين به ، واشتهر مع شيعته هذه
بشجاعتهم . وكثيرا ما كان بنو هود ملوك سرقطة يتأجرونهم في حروبهم .
وقد حاصر السيد على رأس جيوش يوسف بن احمد بن هود بلنسية . ومع أنه دخلها صلحا
فقد حرق قاضيها ابن الجعاف لزمه أنه أبى أن يبدله على خزائن المقدر بن هود صاحب بلنسية ،
ثم أشعل النيران في المدينة حتى أتلفها ، وهو مالا يتفق مع الصلح الذي دخل به المدينة وفي ذلك
يقول ابن خناجة :

عانت بساحتك الظبا يادار وجا محاسنك البلا والنار
فاذا تردد في جنبك ناظر طال اعتبار فيك واستعار
أرض تقاذفت الخطوب بأهلها وتمخضت بحرابها الأقدار
كسبت يد الحدثان في عرصاتها (لا أنت أنت ولا الديار ديار)

ومات السيد في سنة ١٠٩٩ وفيها استولى المرابطون على بلنسية . وقد وضع الأسبان
روايات البطولة في السيد ، وأبلغ ما كتب منها رواية كورنى CORNEILLE الكاتب الروائي
الفرنسي الشهير التي وضعها سنة ١٦٣٦ وترجمت الى العربية . الا أن ستانلى ودياز ينكران
عليه ذلك ويذهبان الى أن بطولته من تنسيق الفصاصين .

ولا أدري لعل قصص هذه البطولة كانت سببا في وضع عرب المغرب قصصهم في بطولة أبي
زيد الحلال ودياب الرغبى وخليفة الزناتى حتى تكون هم بها تمزيق عن بطولتهم الميتة . لا أننا اذا
تأملنا ما فيها من الشعر نجده مثل شعر عرب المغرب وهم في شيخوخة نهضتهم ، هذا الشعر الذى
تأثر بتلك الموشحات التي ذاع أمرها فيهم وكانت خليطا من العربي الفصيح والكلام العامي (راجع
الكلام على الموشحات في كتاب بلاغة العرب للاستاذ ضيف وفي تاريخ الأدب الأندلسي
للاستاذ الكيلاني) .

وقد وصف لسان الدين بن الخطيب الاسبان في حربهم في زمنه وما كان لهم من حسن النظام في هجومهم أميرهم وأمورهم راجلهم وفارسهم ومن قوله : « وحال هذه الأمة غريب في الحماية الممزوجة بالوفاء والركة والاستهانة بالنفوس في سبيل الحمية ، عادة العرب الأول » . ومن كلمته الأخيرة تعلم أن العرب في شيخوخة دولتهم لم يكونوا على شيء من الثقافة الحربية في عامتهم ، وإن ظهر منهم افراد سجل التاريخ لهم بطولاتهم مثل موسى بن غزان بطل غرناطة^(١) وعلى ابن الفخار^(٢) وحامد الزغبى بطل مالقة ، وهو الذى أبلى في دفاعه عنها بلاء سجل نغره له التاريخ .

ولقد كانت حالة عرب الأندلس تتبع حالة القاطنين بأمر الحكم فيها قوة وضعفا . وكذلك حال الاسبان كانت تتبعها انقباضاً ونشاطاً . لذلك اختلف المؤرخون من العرب في تصوير ابن تاشفين فيما عمل مع ملوك الأندلس في جوازه الثانى وفي تخصّصه : فبعضهم يقول انما سار

(١) لابن غزان في حروبه مع الاسبان وقّع كثيرة اشتهر فيها شجاعته الخارقة للعادة . وكان يخالف رأى الفرناطيين في اقرار الصلح الذى قدمه اليهم فرديناند وكان يرى الاستمرار في الحرب حتى يقضى الله أمراً . فلما خالفوه خرج مجاهداً للمحاصرين وحده ، ومات في جهاده بعد أن فك عشرات منهم .

(٢) كان ابن الفخار من القواد العظام وكان في يده عدة حصون فلما سقطت بطة في يد الاسبان حضر في جبة القواد الذين سلموا مفاتيح حصونهم الى فرديناند ورحموا بالجوائز ، فلما وصلت النوبة اليه قال للفلك فرديناند : « انى رجل مسلم قائد لحصون طبرنة وبرشنة . (ذكرها يانوت برشانة) وقد تسانتها للمحافظة عليها ولكنى فندت حاميتها ومن بقى منهم لا يطبقون الاستمرار في الحرب ، وهذا أصبحت لكم . وما هي هذه مفاتيحها » . فأمر فرديناند باعطائه مبلغاً كبيراً . فأبى أخذه بكل كبرياء قائلاً : انى لم آت لأبيع ما ليس من ملكى ولكن في علمكم أنه لو بقى معى من يسعنى في قتالكم لكان الموت ثمن هذه الحصون بدلاً من هذا الذهب الذى تتعمون به على . فأعجب الملك بشهامته وطلبه في خدمته ، فأبى إلا أجازته ومن كان معه الى أفريقية وهم في أمان على أموالهم ودينهم وأعراضهم .

الى الأندلس بدعوة من مسلميها يستصرخونه فيما كان ينزل بهم من ملوكهم من المظالم وكثرة المكوس والضرائب وخيرا فعل . وبعضهم الآخر يقول انما بهره كثرة ما شاهده بها في جوازه الأول من عظيم الثروة وضخامة الملك وبارق العمران وتأتق الحضارة فقصدها بتلك الحجة ، ونكل بملوكها حتى تكون له البلاد من غير شريك أو وسيط ، ويناله باللائمة لأنه بعمله هذا هدم أول حجر من صرح حكم العرب في البلاد ، ذلك الصرح الذي أخذت حجارته تتناثر واحداً بعد الآخر الى أن تم هدمها بعد أربعة قرون (وهي قليلة في عمر الدول) .

وعلى كل حال إن ابن تاشفين ما كان له أن يقضى مرة واحدة على هؤلاء الرؤوس الذين كانوا يديرون ما كان في أيديهم من البلاد التي كانت في دائرة حكمهم ، والذين كانوا أذرى الناس بمسالكها ومسارها وإدارتها وأعرف الناس بدائها ودوائها ، وأقدرهم على تشميرها والدفاع عنها لعدوها الذي كان لها بالمرصاد من جهتيها الشمالية والغربية .

على أن ابن تاشفين بعد أن بلغ شهوته من تملك البلاد من أقصاها الى أدها كان لا بد أن يعامل ملوكها الذين أصبحوا في أسره ، من غير أن يبدأوه باعلان حرب ولا بخلاف في رأى إن لم يكن بالحسنى التي تليق بأمثالهم فلا أقل من الشفقة والرحمة .

وأن من يطلع على بقية حياة ابن عباد في سجنه وهو يرسف في أغلاله وقيوده بعد ما كان له من عزة الملك ونعيم السلطان : فراشه الغبراء ! وغطاؤه صفحة الهواء ! وأنيسه البكاء ! وقرينه الداء ! وسميره كل نوع من أنواع البلاء !! يرى أن قلوب المملوك إذا كانت كبيرة في

نعمتها فهي كبيرة في بؤسها وتقمّتها . وإن ابن تاشفين إذا كان خشناً في طعامه ، خشناً في لباسه ، لشدة في دينه ، فقد كان ساعه اللّـخشناً في معاملاته لكل من أوقعه سوء حظه بين برائن غضبه :

ومن يطلع على قوانين الحروب في هذا الزمن ير أن الشخص المحارب لا يلبث بعد وقوعه في أسر عدوه أن تنقلب عداوة الغالب له شفقة وإحساناً إلى هذا الذي أصبح لا حول له ولا قوة . وقد يتركون للعظيم سلاحه ، ويوفرون له أسباب الراحة ، والأمثلة في هذا كثيرة تفوق الحصر .

وعلى كل حال إذا كانت الأندلس قوية الجانب مدة يوسف بن تاشفين فانها ظهرت بعد قليل بمظهر الضعف في نهاية حكم المرابطين ^(١) لشدة عمالهم الذين كانوا يعمدين عن المرونة السياسية ، وعن التسامح

(١) سـوا المرابطين لانهم كانوا في أول أمرهم يجتمعون برباط في صحراء مراكش يعبدون الله فيه مع شيخهم عبد الله ابن ياسين ، فاجتمع عليهم أناس كثيرون أكثرهم من لتونة إحدى قبائل البربر ، وفي مقدمتهم يحيى بن عمر اللـتوني . ولما انقسم الأندلس بين ملوك الطوائف ، استبد بأطراف المغرب أمراء الأَطراف ، وقامت منهم دولة مفراوة بفاس وعاملوا الناس بظلمهم . وكان أمر المرابطين قد ظهر واشتهروا بدينهم وتقشغهم . فكتب فقهاء سجلماسة إلى ابن ياسين في الوفادة اليهم وكان ذلك في سنة ٤٤٧ هـ . فسار اليهم بمن كان معه من المرابطين وعلى رأسهم يحيى بن عمر اللـتوني ، وأخذوا يستولون على البلاد التي في طريقهم . ولما مات يحيى قام بأمر القيادة أخوه أبو بكر بن عمر . ولما مات ابن ياسين في سنة ٤٥١ هـ انتهت الزعامة إلى أبي بكر . وما زال في فتوحاته حتى انتهى أمر البلاد إليه . وهناك عقد لابن عمه يوسف بن تاشفين على المغرب وانسحب هو إلى الصحراء ونفى فيها بقية أيامه .

والمرابطون يسون أيضاً باللمتين لانهم كانوا يفظون وجوههم بحيث لا يظهر منها غير أعينهم . ويقال أن سبب ذلك شدة برد الصحراء وشدة حرها . ويقال أيضاً أن سبب ذلك أنهم في قلتهم خرجوا للغزو فجاء أناس وهجموا على ديارهم . فتلى النساء وحلن السلاح ووقفن أمام بيوتهن فظنهم عدوم رجالاً ورجع من حيث أتى ، ومن ثم صار اللثام من عاداتهم . وفي اللتين يقول الشاعر

قوم هم درك العلامن حمير وأن اتدوا صنهاجة فهم همو
لما حووا احراز كل فضيلة غلب الحياء عليهم فتلكوا

الذى ألفه أهل البلاد فى حكم من كان قبلهم ، ثم محمود عزائم أحفاد ابن تاشفين الناشئ عن اختلافهم طمعاً فى الملك . ولولا أن تغير حكمهم فى المغرب بحكم الموحدين وظهر من هؤلاء ملوك من أحسن الناس عقلاً ، وأكبرهم فضلاً ، وأغزرم علماً ، وأبعدهم نظراً ، وأحسنهم سياسة ، وأكملهم رياسة ، كعبد المؤمن وولده يوسف ، ثم يعقوب بن يوسف ، لما كان قد بقى ذكر لحكم المسلمين بالأندلس . حتى إذا جاء الناصر محمد ابن يعقوب وراز إلى الأندلس بهذا الجيش الهائل الذى أعجبته كثرتة إلى درجة لم يحسن معها سياسته مع رجالات الاندلس بل عاملهم بالقهر والاذلال من غير ماسبب الا زهوره بنفسه واعجابه بكثرة خيله ورجله ، ودارت عليه الدائرة فى حربته مع ملوك الأسبان وتمزق جيشه كل ممزق ، أخذ صرح البلاد يتناثر من أطرافه بسرعة فى يد العدو ولم يبق فى يد المسلمين غير غرناطة وهى إحدى ولاياتها الشرقية . ولم تلبث أن أتى عليها دورها من السقوط فى يد الاسبان بعد أن ضعف أمر بنى مرين . ملوك المغرب ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

الرسالة التاسعة

بعد تسليم غرناطة

حاصر الملك فرديناند الثاني غرناطة سبعة أشهر حتى كاد الناس فيها يأكل بعضهم بعضاً . وآل أمر سلطانها أبي عبد الله بن علي إلى تسليمها إلى فرديناند وزوجته إيزابلا بشروط جعلتها سبعة وستون شرطاً : أهمها تأمين أهلها على أنفسهم ودينهم وأموالهم وأعراضهم وأملأهم وحرّيتهم وإقامة شريعتهم واحترام مساجدهم ومعابدهم وشعائهم وفك أسراهم وإجازة من يريد الهجرة منهم إلى العدو وأعفاؤهم من الضرائب والمغارم سنين معلومة . وهكذا من أمثال هذه الشروط التي لم يعمل الأسبان بشيء منها . وبعد استيلائهم على المدينة رتبوا أحكامها من النصارى فأخذوا ينتحلون الأسباب لمحاربة المسلمين ، وكانت نتيجة الحكم إما التنصر أو الإعدام . وقد تنصر كثير من الناس صورة أو حقيقة على حسب قوة يقينهم في دينهم ، اتقاء لظلم الغالبين وعسفهم الذي لم يكن له من مسوغ غير تعصبهم الديني . نعم كان تعصب الأسبانيين في منتهى حدوده : من ذلك أن تربت في إسبانيا من أول القرن الثاني عشر أنظمة كنسية لمحاربة المسلمين : منها نظام فرسان الهيكل ، ونظام قلعة رباح ، ونظام ماري يعقوب ، ونظام فرسان ماري جرجس ، ونظام سيدات الفأس وكان خاصاً بالنساء . وكان لكل نظام ملابس خاصة به مرسوم عليها الصليب بحال تميزه عن غيره . لذلك كان تعصبهم الديني

تعصبا عنيفا لا يتفق مع السماحة^(١) التي كان المسلمون يعاملون بها الاسبان وهم في ضعفهم ، بل لا يتفق مع معاملة مسلمي الشرق للنصارى في حروبهم الصليبية .

وهذا التعصب وان كان موجودا في الاسبان بطبيعته ، زاده اضطر اما ما كان يصدره البابوات من المنشورات ضد المسلمين وخاصة بعد استيلاء الأتراك على الاستانة عاصمة الدولة الرومانية الشرقية في سنة ٨٥٧ هـ . وفي هذا الوقت كانت أوروبا كلها محتمدة بفكرة التعصب القاطع ضد المسلمين بصفة عامة وعلى الاخص بعد أن وصلت فتوحاتهم في أوروبا مدة السلطان سليمان الأول الى أسوار فينّا . واستولت أساطيلهم تحت قيادة خير الدين باشا أمير البحر (بارباروس) على كثير من سواحله

(١) الأمثلة العملية على سماحة الدين الاسلامي كثيرة منها أن علي بن طالب كرم الله وجهه وقف وهو يركزه من الدين والعصية بخوار رجل يهودي أمام عمر بن الخطاب في قضية له عليه خاله عمر بكنته ، فطلب اليه على العدل بينهما فلا لاكتني يأمر المؤمنين وانا بجانب خصمي . وكان الخلفاء وهم في قوتهم وعصبيتهم الدينية يحترمون عقائد شعوبهم ولذلك تسمت في مذهبهم المذاهب الدينية . وكانوا يحترمون التدينين من أهل الذمة سواء أكانوا من النصارى أم من اليهود . وكانوا يوظفونهم في حكومتهم فكان منهم الأطباء والوزراء . وكان التوكل العباسي على صلابته في دينه وتعبه للسنية يؤاخذ النصارى على عدم تحكيم دينهم كما فعل مع طبيبه حين ، وكان بلغه أنه نفل على صورة السيدة العذراء فحده وسجنه .

وفي أيام المعتض بالله قامت العامة على رجل من النصارى واتهموه بأنه سب النبي وأحضره بين يدي الوزير القاسم بن عبيد الله وحالوه بانامة اخذ عليه ولكنه صرفه لتحققه عدم صحة دعوامهم . وقد صلب الخليفة الحكم بن الناصر أحد عماله لأنه بلغه أنه ظلم أحد أهل الذمة .

وقد وصل كثيرون من أهل الذمة الى مناصب الوزارة كعيسى بن نسطورس الصمراني ، ومنشا اليهودي : وكانا من وزراء العزيز بالله الداخلي . ومنهم اسماعيل بن نفزلة اليهودي الوزير بخرناطة بل أن الدول النصرانية كانت تلجأ الى سماحة الاسلام وعدالته فقد أرسلت حكومة المجر في سنة ١٦٠٥ مدة السلطان أحد الأول سفيرا الى الاستانة يرحوه أن يجعل المجر تحت حمايته من ظلم انما المسيحية واسترقاقها للعبريين .

أما الأحاديث والآثار الدينية التي توصي بأهل بالذمة فهي كثيرة جدا ولكننا اقتصرنا على ذكر الوقائع العملية لتكون أمثا في الحجة على ما فعله الاسبان مع العرب من ظلم لاتنعمه مفرقة التاريخ .

البحر الأبيض المتوسط من جهتيه الشمالية والجنوبية . وكان لهذا الأسطول يد بيضاء في إغاثة كثير من عرب الأندلس بعد سقوط بلادهم في يد الاسبان وجوازهم الى تونس والجزائر .

ولما أصبحت مظالم الاسبان ومغارهم بحيث لا يحتملها لإنسان نار جماعة من البيّازين وهم قوم من عرب الاندلس بغرناطة اشتهروا بعزتهم ونخوتهم وفتكوا ببعض الحكام ، وقد يكون هذا بدافع سياسى من عدوهم ، هنالك قامت قيامة القسوس ونادوا بالشبور وعظامم الأمور . وأنشأوا محاكم التفتيش : وهنا تقشعر الأبدان وتهلح النفوس لذكرى تلك الشنائع والفظائع التى كانوا يقومونها على أولئك الأبرياء مما سجله عليهم التاريخ فى صفحات الوحشية التى لم يكن لها مثيل فى صحيفة من صحائف المظالم من يوم خلق الله الانسان : فكلم من نفوس قتلت ، ورجال صلبت ، وأعراض هتكت ، وأموال نهبت ، وكتب أحرقت ، وديار هدمت ، وجسوم مثل بها وهى على قيد الحياة !!

ولما وصلت نكبة الاسبان للعرب (سواء أ كانوا من المسلمين أم من اليهود ، أم من الذين تنصروا منهم) الى الحد الذى لا يحتمل ، وصدر أمر الملك سنة ١٥٦٣ بانهم يغيرون زيهم ولا يتكلمون الا الاسبانية ، نار أحد سلالة بنى سراج واسمه فرج بن فرج ولجأ الى جبال البشرات وتبعه عدد غير قليل من غرناطة ، وكان منهم هادوناندودوفلور وهو من نسل خلفاء قرطبة فنادوا به ملكا عليهم تحت اسم محمد بن أمية . وهناك عمت الثورة كل نواحي جبال البشرات ، واستمرت هذه الفتنة سنتين وهى على منتهى شدتها ، وأبلى فيها الفريقان بلاء عظيما ، ومات منها خلق كثير .

وقد خلع المسلمون ابن أمية لهوادته وولوا أمرهم أحد الزعماء المشهورين
ببسالتهم وشجاعتهم واسمه عبد الله بن أبيه . وما زالوا في كفاحهم حتى
غلبتهم كثرة الاسبان وشتت جوعهم وأفتتهم بين تقتيل ونحريق وتكسيل ،
وبعد أن قتلوا رئيسهم عبد الله علقوا رأسه على أحد أبواب قرطبة ، وبقي
معلقا عليه ثلاثين سنة . وأخذ الاسبان بعد هذه الواقعة يطردون
العرب من بلادهم ، وقد قدروا المطرودين منهم بعد سقوط غرناطة بثلاثة
ملايين نفس ، كلهم أهل نجدة وصناعة وتجارة وزراعة . وعلى أثر إبعادهم
خرجت غرناطة وضواحيها حتى أصبح مرجها قاعا بلقعا بعد أن كان جنة
الله في أرضه .

ومن ينظر الى حالة الاسبان وهم في ضعفهم وقلتهم يرأنهم كانوا
كباراً في جهادهم لعدوهم مدة ثمانية قرون ، كباراً في دفاعهم عن حوزتهم ،
كباراً في نضالهم عن حياتهم ، كباراً في نبذهم كل خلاف لهم تلقاء كل
خطر يدهمهم ، كباراً في مباربتهم على دفع ذلك الخصم القوي الذي كان
يتغلب على بلادهم ، حتى اذا تملبوا عليه وانقلب الحال بأن صار هو
الضعيف بين أيديهم ، لم يكونوا كباراً معه في شيء !! بل ضاعت كل
محامدهم أمام التاريخ للمثالب التي ارتكبوها مع العرب بعد استيلائهم
على غرناطة : فقد اخفروا عهدهم ولم يوفوا لهم بدمتهم وعاملوهم باسم
النصرانية بما تبرأ منه الانسانية : ذلك بأن قرروا جمعهم بين مسلم
ويهودي واستصدروا أمرا ملكيا بأن من لم يتنصر^(١) منهم فجزاؤه القتل !

(١) لما فتح المسلمون الجزيرة (العراق) هربت قبيلة اياد ودخلت بلاد الروم فكتب عمر
الى هرقل يردها ، فأخرجها هرقل من دياره وكان على الجزيرة الوليد بن عقبة فأبى أن يقبل منهم
الا الاسلام ، فكتب اليه عمر « دعمهم على أن لا ينصروا وليدا ولا يعتنوا احدا منهم من

ولما رأوا أن كثرة سفك الدماء تؤثر بطبيعتها في تهيج النفوس بما تخشى مغبته . شادوا محارق في كل عاصمة من عواصم الأندلس ، وكانوا يأتون بمن بقي على دينه من العرب ويلقون به في أتون تلك الجحيم فتصعد دوحه صارخة الى السماء ، بعد أن يذهب جسمه بخاراً في الهواء .

وكان قد بقي من العرب في الأندلس عدد ممن تنصروا أو تدجن وكانوا يعاملونهم أسوأ معاملة .

والمدجنون هم المسلمون الذين بقوا في البلاد التي تغلب عليها الاسبان بسبب ضعفهم أو عدم قدرتهم على الهجرة الى بلاد اسلامية .

وقد وضع الاسبانيون لمن بقي منهم تحت حكمهم اشارة ^(١) في

الاسلام ه ثم عزل الوليد عنهم لسطوته وشدته . فانظر الفرق بين المعاملتين !
وفي مدة السلطان ابراهيم الاول العثماني استولى الاسطول التركي سنة ١٦٤٥م على خانية عاصمة كريد ، وكان نصارى الجزيرة يساعدون البنادقة الذين كانوا متسلطين على الجزيرة ضد جيوش الاتراك واحرقوا فعلا مدينة بتراس وغيرهما من الثغور ، فاراد السلطان ازاء ذلك أن يقتل جميع النصارى بالجزيرة . ولكن المفتي اسعد زاده عارضه في هذا الامر معارضة شديدة قائلا انه مخالف للشرع الاسلامي وبذلك لم يقع سلطان العثمانيين في مثل هذه الشناعة التي وقع فيها ملوك الاسبان أمام الله والتاريخ .
(١) جاء في الجزء الأول من القرى وصف ابن سعيد المؤرخ بالقاهرة عند زيارته لها في أوائل القرن السابع الهجري وهو الوقت الذي كانت فيه الحروب الصليبية قائمة على ساقها بين نصارى الغرب الذين أشعلوا في عامة أوروبا جذوة الحرب الدينية ضد مسلمي الشام ومصر : « والنصارى بالقاهرة يتنازرون بالثرار في أوساطهم واليهود بمعاظم صفر ويركبون البغال ويلبسون الملابس الجليلة » . ومن هذا تعلم أن تلك الحرب على شاعتها وصغتها الدينية لم تحرك حقد المسلمين في مصر والشام ولا في غيرها ضد النصارى الذين كانوا يعيشون بين أظهرهم ولم يكن تغايرهم في زيهم الا لتيهم من غيرهم ، كما ميزوا الاشراف بماءم خضر سنة ٧٧٣ هـ . زمن السلطان الاشرف شهبان بن حسين بن محمد ابن قلاوون وفي ذلك يقول ابن جابر الاندلسي تزيل مصر .

جعلوا لاولاد النبي علامة ان العلامة شأن من لم يشهر نور النبوة في وسيم وجوههم يعني الشريف عن الطراز الأخضر
واذا كان قد صادف النصارى أو اليهود شيء من الاضطهاد في بعض الدول الاسلامية يكون ذلك أما انتقاماً لاثر سيظهر من جهتهم ليس للتعصب الديني أثر فيه أو استبداداً من بعض الملوك الذين لم تقتصر قناعتهم على مخالفتهم في دينهم وفي مذهبهم الديني فحسب ، بل كثيراً ما كان ينال ظلمهم كل طبقة من رعاياهم لسبب أولغير سبب وخصوصاً في دول الممالك . ومن ذلك ما أمر به صلاح الدين ابن محمد بن قلاوون في سنة ٧٢٤ هـ ، من ان الفلاحين ينصروا لايركبون الخيل ولا يحملون السلاح !

لباسهم تميزهم عن غيرهم سواء منهم النساء والرجال ، كما جعلوا لهم قوانين خاصة بهم : منها انه لا يجوز لمسلم أو يهودى أن يستخدم مسيحياً مطلقاً ، ومن خالف هذا يستولى على أملاكه ، وليس لهم أن يقبلوا دعوة مسيحى ، أو أن يدخلوا بيته إلا اذا كان طيباً . وقد حظروا عليهم معاملة المسيحيين فى أخذ أو فى عطاء . وإن من يفر منهم إلى بلاد المسلمين يعد أسير حرب وتضبط جميع أملاكه ، ويكون هو ملكاً لمن يقبض عليه من الاسبانيين . ومن يعارض من المسلمين فى تنصير ابنه يحكم عليه بغرامة فادحة . ولذلك كان كثير من المسلمين يقتلون أولادهم خشية تنصرهم . ومن كان من المسلمين له دين على أسباني لم يعد له قيمة إن أنكره المدين إلا اذا كان مسجلاً فى محكمة اسبانية . وليس لرجالهم أو نساؤهم أن يلبسوا الخلل الحريرية ولا يتزينوا بحلى الذهب والفضة . وبالجملة قد كان محرماً عليهم أن يركبوا الخيل وأن يحملوا السلاح وإن يظهروا بأى مظهر من مظاهر الدين الاسلامى لا بالقول ولا بالفعل : كالجهير بالشهادة أو الصلاة مثلاً !!

ولقد عقد القوم النية على ألا يبقى من العرب فى البلاد مسحة من عمل أو أثر من طلال !! فآلقوا بمن بقى منهم الى البحر فغرق من غرق ونجا من طال عمره الى بلاد المغرب أشتاتاً فى مناكبها ، عمالاً يطلبون الحياة بعرق جبينهم ، بعد أن كانوا اسادة فى مواطنهم ، قادة فى بلادهم . وقد ذكر بعض السياح أخيراً أنه شاهد بحوار (تمبوكتو) قبيلة اسمها (اندلوز) ولا بد أن تكون من فلول عرب الأندلس .

ولقد سعدت بلاد المغرب بمن وصل اليها من الأندلسيين ، وخاصة

تونس التي فتحت أبوابها لهم : فهضت زراعتها ، وظهرت صناعاتها ، وبرز عمراتها ، ونشطت حضارتها ، من بنايات على الطراز الأندلسي ، وعمارات على أحسن شكل هندسي ، مما لا يزالون يقيمونه في المعارض المختلفة إلى الآن . كما فقدت بهم اسبانيا رجالا عاملين ، وزراعا متقنين ، وصناعا فنانين حتى أصبحت بلادهم فقرا جرداء في كثير من جهاتها إلى الآن . ولولا أن صادف طردهم للعرب من ديارهم كشف^(١) كولمب لامريكا ، وصارت لهم مصدر رزق جديد لهلكوا جوعاً . وبالجملة قد أجمع مؤرخو الافرنج على أن اسبانيا لم تحلم إلى اليوم وإلى الغد بمدنية مثل مدنيتهما مدة العرب . وسبحان من يرث الأرض ومن عليها .

وقد استبقى القوم بعض الفنانين من المسلمين واليهود عبيداً لهم وحبسوا في الاديار لنحت التماثيل ، وبناء الكنائس ، وتجديد بعض الآثار الفنية العربية مما لا يمكن غيرهم عمله ، وآثارهم كثيرة تملأ دور الآثار باسبانيا من نحاس مكفت بالذهب والفضة أو عاج منقوش وغير ذلك مما يستدعي الإعجاب والأعراب بدقة هذه الصناعة الفخمة وقما كانت أوربا غارقة في بحار المهجية والوحشية . ومع هذا كله أنهم كانوا يدعون هؤلاء الصناع بالعبيد ويعاملونهم بأقسى المعاملات وخاصة رجال الدين الذين هم أولى الناس بالشفقة والرحمة وأحق الخلق بالرفق والاحسان . وقد أشار الرندي الى ذلك في قصيدته المشهورة قال رحمه الله :

(١) نقل بعضهم عن الادريسي انه خرج من اشبونة ثلاثة اخوة من العرب هائمين في بحر الظلمات جادين في الوصول الى بروءاءه وقال انهم عثروا على جزيرة سكنها حمر . فاذا صح هذا كان العرب أول من استكشف امريكا .

أعندكم نبأ من أهل أندلس فقد سرى بحديث القوم ركباً
كم يستغيث بنو المستضعفين وهم أسرى وقتلى فما يهتز انسان
بالأمس كانوا ملوكاً في منازلهم واليوم هم في بلاد الكفر عبدان
ولو رأيت بكاهم عند بيعهم لهالك الأمر واستهوتك أحزان
وقد يقول قائلهم ، إن العرب كانوا أيضاً يستعبدون أسراهم: فنقول :
له على رسلك ، فليس الأمر في الحالين واحداً : لأن أسير الحرب ينزل
بطبيعته على حكم الذي أسره ، وكانت هذه سنة سار عليها الناس من قديم
الزمان . وقد ترى صور أسرى الحرب منقوشة على هياكل المصريين
وخاصة الكرنك ، وقد وضعت في أعناقهم السلاسل والأغلال ،
وقدموا واحداً واحداً الى الملك المنتصر ليقطع بسيفه رقابهم تشفياً منهم
أو إرهاباً لغيرهم . وتواريخ الرومان واليونان والفرس حافلة بذلك ، حتى
الفرق المذهبية من دين واحد اذا نشبت بينهم حروب كانت القسوة
تكون متمثلة فيها كل التمثيل : انظر الى حروب اليعقوبية مع الارثوذكسية ،
والسنية مع الشيعة ، والكاثوليكية مع البروتستانتية ، تجدها كلها تنتهي
بقسوة المنتصر . وترى هذه القسوة في الأحزاب السياسية لاختلافهم
في رأى قد يكون صواباً وقد يكون خطأ . أما هنا فليس الحال كذلك :
لأن القوم سالموا بشروط منها حقن دمائهم ، واحترام شرائعهم ، وحفظ
أمواتهم وأملاكهم ، والابقاء عابهم في مواطنهم . وقد خالف الأسبان
كل ذلك مع أنهم أمضوا عليه صلحهم .

ولو رجعت معى الى حرب المسلمين لبلاد الفرس لرأيت غير ذلك
فقد كان العرب حاصروا مدينة جند يسابور من كل جهة وكانوا يرسلون

المحصورين من الجهة التي فيها القائد طبعاً بأنهم ينزلون على حكم الفاتح وقد كاد يتم لهم ذلك لولا أن أحد العبيد وكان على باب من أبواب المدينة خاطبهم في تسليم البلد ولهم حريتهم في أنفسهم وأملاكهم ، ففتحوا له الباب وطالبوا الفاتحين بشرطهم فناكرهم المسلمون ، وأرسلوا يستشيرون عمر رضي الله عنه فأمضى عمر أمان العبد قائلاً : المسلمون متكافئون فيما بينهم يحجز أدناهم على أعلاهم ، وقد احترم عمر رأى عبد من العبيد لتضامنه مع بقية الجيش في كونه معهم ، وفقد المسلمون بذلك ما كانوا يغنوناه من هذه المدينة وهو شيء كثير . أما الملك فرديناند والملكة ايزابلا وكبار قومهما فأنهم لم يرعوا لهم وعداً ، ولم يحترموا عهداً مع أهل غرناطة وبقيت في البلاد بقية ممن تنصر من العرب (ويسمونهم مورسك) ، اندمجوا فيهم وتكلموا لغتهم ، ولكنهم حافظوا من جهة أخرى على لغتهم العربية فكتبوها بالأحرف الأسبانية ، ويسمونها الحميادو . ولا تزال فيها كتب كثيرة مكتوبة بالأحرف الأفرنجية . ولكن من يطلع عليها يجد لها لغة أخرى غير العربية لما صادفها من التحريف والتصحيف . ومن هذا أن اللغة القبطية القديمة كتبها أهلها مدة الدولة الرومانية بالأحرف اليونانية وقد دخل عليها كثير من التحريف فأصبحت لا مصرية ولا يونانية .

وهنا ذكرت ما بدا لآخواننا الأتراك من نبد قواعد الكتابة التركية وتغييرهم حروفها بالحروف اللاتينية . ولا بد أن يصادفهم مصادف العرب من الحميادو : فتصبح اللغة التركية لا شرقية ولا غربية : وبذلك يقضون على مجدهم القديم وتاريخهم الذي كله جلال وعظمة .

ولغة الأسبان الآن وإن كانت من اللغات اللاتينية ترى فيها كثيراً من الألفاظ العربية بتحريف يسير أو تصحيف قليل وكثيراً ما ترى الأسماء العربية منتشرة في القوم بشيء من هذا التحريف مثل NASSARE نصار . RABADANE رمضان . CALAF خالف . وقد عقد الأستاذ العلامة أحمد زكي باشا باباً كثيراً الأهمية في هذا الموضوع برحلته «السفر إلى المؤتمر» .

وبالجملة كل كلمة عندهم مبتدأة بأداة التعريف (ال) فهي عربية مثل : القاضي « ALCALDE » . القائد . المنارة . السكراسة . الفارس . الوادي الكبير . الروضة . الأييار « AL AVIARE » . المحراب . الانبيق . الساقية . الربض . القصر . « ALCASARE » . القنديل . الفندق . القصبة . المسجد . القميص . السروال .

ولقد كنت أود أن أذكر لك من هذه الأسماء لولا أن ذلك يستدعي تحليلاً في لغة القوم وأنا أجهلها ، وجهل بها حال يبنى وبين معرفة كثير من شؤون البلاد في حاضرها وغابرها ، نعم كان معي دليل يعرف بعض الفرنسية ، ولكن الأدلاء هنا هم أشبه الناس في مهنتهم بهؤلاء الذين تراهم على أبواب شبرد والكوكتيننتال بمصر ، وعلى مدخل الكرنك وغيره من هياكل الصعيد ، إلا أن الحكومة المصرية بدأت تهتم بشأن هذه الطائفة التي يسمونها تراجمة ، وأذكر أنها قررت عمل امتحان لهم في مهنتهم الإرشادية إلى الآثار المصرية وحسناً فعلت . ولو أن دار الآثار تحفل بوضع كراسة صغيرة بالعربية عن آثارها بمصر حتى يمكن أن ينتفع بها أبناءها الذين لا يعرفون البحث في كتب الآثار التي

باللغة الأجنبية لكان لها فضل يذكر بجانب هذه الفائدة الكبرى التي تعود على البلاد من وراء هذا العمل السهل المفيد .

وبهذه المناسبة أذكر أنى كنت فى زيارتى للسكرتك فى الشتاء الماضى ، وكان به تلامذة صفارأتوا من بعض مديريات الصعيد لزيارته مع أستاذهم الذى كان يشرح لهم تاريخ هذه الآثار ، وكان شرحه يدور حول كلمتين « اعجابه من ضخامة الأحجار التى بنيت بها هذه الآثار ! ! » واتفق وجود حسن بك الدجوى مدير أسوان فأخذ يشرح للتلاميذ تلك الآثار شرحا دقيقا يتفق وسنهم . ولا شك أن هذا الأستاذ معذور لأنه لو كان يعلم أكثر من ذلك لما ضن به على تلاميذه . وهذا نقص كبير فى حكومتنا التى قد يذهب اهتمامها بالتأفة من الأمور الى الحد الأقصى ، ويصل تقصيرها عن النافع منها الى حد لا مثيل له فى الحكومات الأخرى !!

للعمرة والآثار

وصل طارق بالفتح الى منحدرات جبال البيرينات التى يسكنها قوم يسمونهم الباشكنس (الباسك) واحتل العرب كل جهات الجزيرة الا جزاء يسيراً فى غريبها الشمالى قرب خليج غسقونية على نهر دافا ، كان العرب يسمونه الصخرة والأسبان يسمونه كوفادونجا ، لجأ اليه فلول من القوط^(١) وغيرهم وانتخبوا للأماره عليهم رجلا من سلالة لذريق

(١) انتهت دولة القوط بموت لذريق آخر ملوكهم فى حربه مع طارق . ومن بقى منهم اندمج فى البشكنس وغيرهم ممن بقى من العناصر الاسبانية فى شمال البلاد ، كما اندمج كثير منهم فى سواد الفاتحين . وكانوا لا يزالون يذكرون هذا اللفظ الى ما بعد الدولة الاموية . ومن ذلك ابن القوطية ذلك العالم المسلم الكبير الذى مات سنة ٣٦٧ هـ . وقد سأل الحكيم بن الناصر أبا على الغالى : من أنبل من رأيته فى اللغة يلدنا ؟ — فدل محمد بن القوطية .

آخر ملوك القوط اسمه بلايو، وكان أهلوه يعتصمون بما فيه من الحصون والمعافل الطبيعية، ويستمتعون فيها دفاعا عن وجودهم وحياتهم.

وكان رأى طارق أن يظهر الجزيرة من سكانها الأصليين، وأن تكون جبال البيرينات جميعها في يد المسلمين، حتى يكونوا في أمن من هذه القلة التي كانت تسكن رأس البلاد، وهي أشبه شيء بالجراثيم الضارة التي أن أهملت كثرت الى الدرجة التي ينوء الجسم بحملها. ولكن جوازه الى الشرق مع موسى بن نصير حال بينه وبين تنفيذ هذه الفكرة السديدة الثاقبة. وبقي القوم جائعين في أغوارهم يظهرون للعرب الطاعة والاخلاص غير مخلصين، وقد يرشدونهم الى عورات الفرنجة فيما وراء (البيرينات) بل يساعدونهم عليهم، لا محبة في العرب ولكن دفاعا للفرنجة عن كياناتهم من الشمال، كما كانوا يدفعون العرب عنه من جهة الجنوب. وما زال هذا شأنهم في سياستهم الحيوية حتى كونوا لهم دولة سموها ليون وأقاموا عليها ملكا منهم. ثم أخذت أطرافها تمتد الى الجنوب الشرقى حتى تمخضت عن مولود جديد سموه قشتالة قام بتدييره أمير منهم، ثم آل أمره الى أن صار ملكا. واستمرت أملاكهم تمتد الى الشرق يبطء لا يظهر معه خطرهم، حتى ظهرت مملكة ثالثة سموها نافاريا، ثم انتهى الأمر بوجود مملكة رابعة في الشمال الشرقى للبلاد سموها أراغون. وكانت هذه الممالك تعمل على الدوام لحرب العرب بطريق مباشر أو غير مباشر: فسكانوا إذا آنسوا من العرب قوتهم التي لا قبل لهم بها، أخذوا يدسون الدسائس بين ولاية الأطراف بكل وسيلة ممكنة، ويحتالون للوقعة بينهم: فتدب البغضاء في قلوبهم ويظهر الخلاف في دوائر حكمهم وينتهي أمرهم بأن

يشن كل قبيل حربه على الآخر لسبب تافه وهنالك تضطر الإمارة العامة الى التدخل بينهما لردع الفئة الباغية بسيفها . وفي هذه الأثناء قد نشور فئة ثالثة ضد رابعة ، فتسير الإمارة جيشاً آخر للفصل بينهما ، وقد يكون تأثير هذه العوامل المفسدة في إشعال نار الثورات في القبائل ضد عرش البلاد لسبب قد لا يكون وجيهاً ، فيشتغل الأمير أو الخليفة بالحرب في داخل بلاده حتى اذا أخذ النار من جهة تأججت في جهة أخرى . وفي هذه الحالة قد ينهض الأسبانيون لشن غاراتهم عليه لاعتقادهم ضعفه ، فان كانت الغلبة لهم زادوا في دائرة حكمهم الى الجنوب ، وان كانت عليهم أخذوا يتزلقون الى الأمير بعبارات الأسف والتوبة بما يحسن عليه سكوته لتفضيله للسلم ، حتى يتفرغ للنظر في شئون بلاده التي شغلته عنها كثرة الحروب . ولقد كان هذا حال المسلمين من منتصف القرن الثاني للهجرة الى منتصف القرن الخامس : لم يهدأ لهم بال في حرب ولا في سلم من فعل ملوك قشتالة وليون وأراغون . الا في الأوقات التي كان فيها بأسهم فيما بينهم خلافتهم على الملك . وكثيراً ما كانوا في زمن ضعفهم يؤدون الجزية لأمراء المسلمين وخلفائهم ، وقد ظهرت تبعيتهم تامة واضحة لعبد الرحمن الناصر في النصف الثاني من حكمه . ولما وفد عليه سفراء ملوك الأستانة والفرنجية لتنهئته بالخلافة ولتوطيد دعائم التقرب والمحبة بينهم وبينه ، وفد عليه ملوك الاسبان متقدمين بطاعتهم له وولائهم اليه ، وبقوا على ذلك الى أن تمزقت الدولة الأموية الى ملوك الطوائف ، فأخذوا يتسعون في ملكهم ويضاعفون من قوتهم ويرمون ملوك المسلمين بعضهم ببعض ، وقد كانوا يأخذون الجزية من ضعفائهم الى

أن انقطعت بحكم المرابطين ثم الموحدين . فلما ضعف سلطانهم أخذ ملوك
الاسبان يزحفون من الشرق والغرب على الأندلس ، ويستولون من
البلاد على أطرافها ، حتى ألجأوا العرب الى الانحسار الى غرناطة التي آل
أمرها الى أن كانت تدفع الجزية لملوك قشتالة زمناً طويلاً . وانتهى بها الحال
بأن سلمت اليهم مفاتيح البلاد بعد أن خارت عزيمتها وضعف أمرها أمام
قوة هذه الفئة التي كانت في القرن الأول لحكم العرب صغيرة ضعيفة
متشردة في سفح (البرينات) وساحل خليج غسقونية بحيث لم يعرها
الفاتحون عناية ما ، وما كان يخطر على بالهم أن هذا البغاث سيستفسر يوماً من
الأيام ، وذلك الرميس سيستأسد ، وتلك القملة ستكثر الى الحد الذي
استكانت أمامه قوة الفاتحين ، وانهار عرش سلطانهم تحت تأثير معاولها

الرملة العاصرة

من غرناطة الى برشلونة

كنت أود كثيراً أن أسافر من غرناطة الى برشلونة من شرق الأندلس حتى أشاهد مالقة ، والمرية ، ومرسية ، وبلنسية ، تلك المدن التي كان لها شأن عظيم في الدول الإسلامية . ولكن مما يؤسف له أن الطريق يكاد يكون غير ميسر في الصيف على الخصوص لقلة المسافرين ولكونه يستدعي تغييرات كثيرة في فروع متعددة ليست أسباب الراحة متوفرة فيها . لذلك اضطررت الى العودة الى مدريد . ومدينة طليطلة على بعد تسعين كيلو متراً منها الى الجنوب وكانت عاصمة القوط . ففتحها طارق بن زياد سنة ٧١١ م . وما زالت تحت حكم الخلفاء حتى استقل بها سنة ١٠١٢ م اسماعيل ذو النون فيمن استقل من ملوك الطوائف . ثم استولى عليها القشتاليون سنة ١٠٨٥ م وجعلوها عاصمتهم ومكان قوتهم الحربية .

ومن آثار العرب فيها كنيسة سنتا ماريا التي كانت مسجداً فخماً ، ثم كنيسة سنتا ماريا دي ترزيتو وكانت مسجداً جميلاً . وقد غير اليهود الذين كانوا يعملون فيه وقت تحويله الى كنيسة ما كان فيه من الكتابة العبرية الى كتابات عبرية . ومن آثارهم أيضاً فيها القنطرة التي على نهر التاج ولا يزال اسمها « القنطرة » . وكان للمأمون ابن ذي النون بطليطانة قصر في منتهى الجمال والفخامة وفيه يقول أبو محمد المصري :

قصر يقصر عن مداه الفرقد عذبت مصادره وطاب المورد
نشر الصباح عليه ثوب مكارم فعليه ألوية السعادة تعقد
وكانما المأمون في أرجائه بدر تمام قابله أسعد
وكانما الأقداح في راحاته درّجمان ذاب فيه العسجد

وقبيل مدريد محطة ارانجو ويز . والملك فيها قصر جميل اسمه
« دار الفلاح » ذكرتنى بدار الفلاح التى أقامتها جريدة السياسة الموقرة
فى المعرض المصرى فى أوائل الربيع الماضى ، وقد كانت هذه الدار لأحد
الفلاحين ، فاستحسن ملك أسبانيا مركزها فأهداها اليه ذلك الفلاح .
ومع ما دخل عليها من الاصلاح الذى جعلها جديرة بسكن الملك لا يزال
يطلق عليها اسم « دار الفلاح » .

وفى الساعة التاسعة صباحاً قام القطار السريع من مدريد الى
برشلونة ، وسار فى طريق صحراوى كانت تكثُر فيه المزارع كلما قربنا
من سرقسطة : وهى مدينة عظيمة فى منتصف المسافة بين مدريد
وبرشلونة ، وتبعد عن مدريد بأربعمائة وواحد وأربعين كيلو متراً .
وكانت هذه المدينة من أكبر المدن العربية وأثمرها ، وما زالت فى
حكم العرب من مبدأ الفتح الى سنة ١١١٨ م ، وفيها تغلب الفرنجة عليها
فما تغلبوا من شمال أسبانيا ، فتركها بنو هود الى طليطلة ، وأقاموا فيها
الى أن سقطت هى أيضاً فى يد القشتاليين . وفى سنة ١١١٩ هدم القوم
مسجد سرقسطة وبنوا مكانه كنيسة الجامعة (الكاتدرائية) . ولم
يبق من آثار العرب فى هذه المدينة غير قصر الجعفرية الذى بظاهر
المدينة . وفى جانب منه الآن مكتبة للجند ، ولا يزال بهذا القصر قبة

جميلة كانت لمسجد القصر ويدخل إليها باذن من القائد العسكري بهذه الجهة
وقد كان لهذا القصر باب جميل من النحاس البديع الصنع وهو الآن بمتحف
مدريد وكان يجوار هذا القصر قصر السرور الذي يقول فيه المقتدر بن هود

قصر السرور ومجالس الذهب بكمما بلغت نهاية الأرب

لو لم يحز ملكي خلافا كانت لدى كفاية الطلب

وعلى طول هذا الطريق ترى تلالا عليها بعض بقايا الحصون
العربية التي كان يسكن إليها حماة هذا الاقليم مدة حكمهم وأهمها قلعة أيوب.
وما زال القطار سائراً وعلى يساره الجبل ، وعلى يمينه المزارع الجميلة
التي هي أثر لنظام الري الذي عمله العرب في هاته الجهة ، حتى وصل الى
برشلونة الساعة العاشرة مساء .

برشلونة

يبلغ عدد سكانها ٤٤٠ ألف نفس وهي ألطف مدينة إسبانية وأنظفها
وأرقها وهي العاصمة الثانية بعد مدريد ، ولكن لمركزها على البحر
الأيض المتوسط تجدد درجة الحرارة فيها لا تزيد عن ٣٠ سنتجراًداً في
الصيف ولا تنقص عن ٨ في الشتاء . وبالجملة فبرشلونة لا تعد من المدن
الإسبانية سواء في ذلك مناخها ومناظرها وورقة أهلها ، مما جعلها مورداً
للأجانب على اختلاف أجناسهم : هذا للنزهة ، وذلك للتجارة ، والآخر
للترويح عن النفس تحت سمائها الصافية وجوها المعتدل .

وتنقسم المدينة الى قسمين : المدينة القديمة وشوارعها ضيقة بعض
الضييق وأبنيتها على النظام القوطي . والمدينة الجديدة وشوارعها واسعة
وأبنيتها كلها على النظام الافرنجي الجميل .

وفي برشلونة ميادين كثيرة أهمها ميدان كتالوني ، وهو مكان الحركة التجارية العمومية واليه تنتهي الفروع الكثيرة المختلفة لطريق المراكب الكهربائية والتي تحترق شوارع المدينة كلها . وهذه المراكب الكهربائية وكذلك الأنوار الكهربائية التي بالمدينة تستمد قوتها من التيار الكهربائي العظيم الذي تولده جنادل (شلالات) - ترومب - على نهر أبره ، وعلى بعد مائتين وثمانية كيلو مترات من برشلونة ، وتبلغ قوتها مائة ألف (فولت) .

وتكثر في هذه المدينة الملاعب من كل صنف وكل نوع ، وقد عدت في شارع واحد منها نحو عشرة يجاور بعضها بعضها مما يدل على أن مزاج أهلها ميل للسرور ميلا عظيما . ويظهر أن حركة الناس لا تنقطع في الليل الى قبيل الصبح : لأنني استيقظت الساعة الثالثة بعد نصف الليل ونظرت من نافذة غرفتي فوجدت الناس على افريزي الطريق وهم في ذهابهم وروحاتهم كما كانوا تقريبا بعد العشاء . ولو كان اليوم يوم أحد لقلت ذلك لهم لأنه يوم راحتهم من أعمالهم ، ولكنه كان في وسط الأسبوع : ولا أقول إنهم يعملون ليلهم ويرتاحون نهارهم على قانون قره قوش في عصر الأيوبيين : لأنني وجدت الحركة العمومية كمادتها غاية في النشاط في الساعة التاسعة صباحا . ويظهر أن مسألة السهر عادة في بلاد أسبانيا كلها أصبح القوم معها يكتفون في نومهم بقليل من الزمن . وفي المدينة كنائس جميلة . وهم يبنون الآن كنيسة اسمها « سجرادا فامليا » وقد تغالوا في تأنيقهم في مبانيها بشكل لا يمكن أن تتم معه قبل خمسين سنة . وفي شمال المدينة جبل « تايدا بو » ويصعد اليه (بالفنيكولير)

فى طريق طوله ١٥٠ متراً بين غابة جميلة من الصنوبر . وفى سطح هذا الجبل ترى فندقين وقهوات وبعض الملاهى ، منها مراكب كهربائية تسير معلقة فى سلك القوة الكهربائية فى الجوفى طريق منرجة الى جانب الجبل بحال تقف النفس أمامها بين راغبة فى ركوبها وراهة منها . وفيه أيضاً أرجوحة من أراجيح الصناديق الحديدية قطر دائرتها نحو خمسين متراً فإذا صعد الانسان الى أعلاها وجد منظراً من أحسن المناظر يطل من جهة على البحر الأبيض المتوسط ومن أخرى على جبال (اليرينيه) ، والمدينة بين هذا كله كأنها صحيفة جغرافية .

والى الجنوب الشرقى متنزه (بارك) غاية فى الجمال فى منحدر الجبل بـمـدرجات لطيفة ، وفى وسط هذا المتنزه فندق « جراند أوتيل » . وفى وسطه أيضاً قام مثال أسباني . وهنا تذكرت عدم اهتمام بلادنا بالفنون الجميلة ولولا عناية الأمير يوسف كمال بها وبفتح مدرستها من سنوات لما كان لفى التمثيل والتصوير ذكر فى مصر .

وبالجملة ان برشلونة مدينة افريقية صرفة ، وليس للعرب فيها من أثر لأنهم استولوا عليها سنة ٧١٢ هـ ثم أخذها منهم شارلمان فى سنة ٧٨٠ الى أن أخذها منه الأسبان . لذلك أرجوكم أن تسمح لى أن يسد باب الكلام عنها لأنها لا تهمنا فى موضوعها ولا فى مدينتها شيئاً .

وتقرب من برشلونة معادن الزئبق ، وكيفية استخراجها أن تغلى حجارته فى آنية من الفخار فيسبل ما عليها من الزئبق ويصعد على وجه القدر ثم يسير منها فى أنابيب توصله الى خزانات يجتمع فيها . وكانت العرب تستغل هذه المعادن زمن وجود هذه المنطقة فى حكمهم . وتقرب

من هذه الجهة مناجم البوتاس وهى فى يد شركة بلجيكية .
 ولقد كنت عقدت النية على زيارة بلنسية من طريق برشلونة لأنها
 فى الجهة التى بلغت عناية العرب بها فى مسائل الرى كل مبلغ : فقد شقوا
 أنهارها وحفروا ترعها وأجروا خلجانها وسيروا إليها الماء من جبال
 (سيرا نوفادا) التى هى مقر الثلوج المستديمة فى الجنوب الشرقى من
 الأندلس ، وبنوا على الترع قناطر كثيرة لحجز المياه ووصلوها الى المناطق
 العالية ، حتى أصبحت هذه المنطقة جنة من الجنان ، وكانت دورة الزراعة
 فيها ثلاثية فى السنة فى مدتهم ، وهى للآن الجهة الوحيدة التى تتجلى
 فيها آثار العرب بكل مظهر فى إسبانيا لأن أرضها تنتج الزراعات المنتظمة
 فى كل أدوار السنة فتزرع فيها الفاكهة والقمح والذرة والبنجر والدخان
 والأرز والخضر وخصوصاً البصل الذى يوفرته فيها قد يؤثر فى حال
 البصل المصرى فى أسواق أوربة . والقوم الآن يجربون فيها زراعة القطن .
 نعم كنت عقدت النية على زيارة بلنسية التى دخلها العرب سنة ٧١٤م
 وبقوا فيها الى سنة ١٢٣٨ ، حتى استولى عليها منهم جيم الأول ملك أراغون
 بعد حصار طويل من البر والبحر ، وهى الى الآن لا يزال فيها الأثر
 الحيوى للعرب ، ذلك الأثر الذى لا يمحوه الزمان ولا يمكن أن ينكره
 الاسبان على ممر الأيام لأنه مصدر حياتهم ومستقى ثروتهم : ولكنى عند
 ما حضرت الى برشلونة كنت فى شدة التعب من شدة ما عانيت فى
 جنوب اسبانيا من الحر ، وخاصة بعد ما سمعت بأن جو بلنسية حار
 جداً بل هو أشد فى حرارته مما رأيته فى قرطبة وأشبيلية ، وهو الذى
 قال فيه عبد الرحمن الأوسط أمير الأندلس حين سار لغزو جليقية :

فكم قد تخطيت من سبب ولاقيت بعد دروب دروبا
الآقى بوجهى سموم الهجىـراذ كاد منه الحصى أن يذوبا
لذلك طويت صحيفة جولتى فى هذه البلاد وأنا آسف كل الأسف
لهزيمة عزيمة أمام قوة الطبيعة وشدها ، راجياً أن يوفقنى الله تعالى الى
عودتى اليها فى أحد الربيعين حتى أدرك فى غدى ما فاتنى فى يومى :
والآن وأنا أكتب كلمتى الأخيرة عن اسبانيا والجراند الفرنسية
تشير الى ما فيها من أثر عصيان أقسام من رجال المدفعية فى جملة من نواحيها
وينسبون ذلك الى ما صادف ضباطهم من القبح على أثر رقى الضباط الذين
كانوا ولا يزالون فى الريف ، أسمع لنفسى أن أقول للقراء الحقيقة التى
فهمتها وأنا فى تلك البلاد التى لا تزال تحت عبء ثقل من الأحكام
العرفية ، لهذا كنت ترى أهلها يكرهون المارشال دى ريفيرا الحاكم
المطلق فيها . وقد بدءوا يتذمرون من الملك لتسليمه أمور البلاد الى هذا
الطاغية ، وقام منهم جماعة يعملون لاسقاط الملكية وعلان الجمهورية .
وجعلوا مركزهم مدينة سان جان دولوز الفرنسية والتى بجوار الحدود
الغربية الشمالية الاسبانية ، وعملوا فعلاً للقبض على الملك فى سان سباستيان
فى إحدى نزعاته بها لارغامه على التنازل عن الملك . وقد مر بك فى
كلامنا على هذه المدينة أنه كثيراً ما تراه يتنزه بها من غير حرس ،
ولكنهم لم ينجحوا فى تديبرهم لسفره الى مدريد . وهناك وضع يده فى
يد دوريفيرا للقضاء على هذه الفتنة التى تشير البرقيات الى انتهائها على
خير ، ولا يعلم إلا الله ما تحت رمادها الذى يظهر للناس هائلاً مطمئناً .
وهنا يحمل بى أن أشير الى طرف من الأحكام العرفية وشدها مما

لم أكن أريد التحدث به لولا هذه الحركة ، لأنه لا يهمننا نحن المصريين في شيء فانه خارج عن موضوع سياحتى التي أعلنت الشرطة الأسبانية عنها أنها تاريخية محضة : وذلك أن الشرطة الملكية والعسكرية كانت تنتشر في عربات السكة الحديدية بعد قيام القطار من كل محطة رئيسية ، ويسأل كل مسافر عن جواز مروره سواء أ كان من أهل البلاد أم من الأعراب ، ذكراً كان أو أنثى . وقد يسألون الشخص عن الجهة التي يقصدها وعن سبب سفره اليها وعن مدة اقامته فيها . وقد صادفت وأنا في طريقى الى برشلونة أن شخصاً بعينه سألنى عن ذلك مرات على جملة خطوط أخرى . فأردت أن ألفت نظره الى ذلك ، ولكنه أجابنى بكل هدوء « نعم أعرف ذلك ولكنى أودى واجبى في معرفة وجهة كل مسافر » فأذعنت لأمره وبعد أن اطلع على جواز السفر ، سألنى عن وجهتى وعن المدة التي أقيمها فيها وعن الفندق الذي أنزل به فأجبت به بما حسن سكوته عليه ، وانصرف الى غيرى بسلام . وكان بجوارى قسيس فطلب اليه جوازه ، فاستنكر القسيس ذلك لما للقسوس من عظيم الجاه في بلادهم ولكن رجال الشرطة يعرفونه حق المعرفة فألح الضابط في ضرورة رؤية الجواز واستمر القسيس في عناده ، وهنا لك انبرى له أحد الركاب في الديوان الذي كنا فيه بمبارات التويخ القارص حتى أذعن لأمر الضابط صاغراً ، وحمدنا الله على أن ترك القسيس بعدها الديوان وانصرف الى غيره ولعل ذلك من خجله ، وقد عرفت بعدها أن الشخص الذي كان معنا من كبار الحكام .

أما في الفندق فكانوا يطلبون الجواز وبعد أن يتحققوا من صورة

صاحبه يأخذون رقه و اقرار المسافر بخطه على كل ما فات من البيانات
ومن هنا تعرف أن شدة الأحكام العرفية هي من أسباب تلك الحركة
التي لا يعلم الا الله ما وراءها

وهناك أثر آخر سيء في نفوس الناس من الهزائم المتوالية في حرب
الريف ، سواء في ذلك أو لها مدة عبد الكريم الذي خدع بمواعيد فرنسا
الطويلة العريضة حتى نزل من سنام مجده ومن منعة زعامته التي وصل
بها في أول أمره الى أسمى نخر وصل اليه الزعماء والرؤساء ، وطبق صيته
ما بين الأرض والسماء ، فأسلم نفسه الى فرنسا لا بعامل الجبن والهزيمة
والضعف ، ولكن بعامل الطمع في تحقيق تلك الآمال التي فسحوا له
في دائرتها بالوصول الى سلطان أوسع ، حتى انتهى أمره بالنفي الى جزيرة
صغيرة من جزر الاقيانوس هو وأسرته مقهورين غير مشكورين ، لا
من الفرنسيين ولا من غيرهم !! وسواء في مدة الزعيم الجديد الذي لا
يزال هو والقبائل التي بقيت معه يصلى الدولتين ناراً ، ويضرم في قلوبهم
من متانة موقفه معهم جراً وشراراً ، بما جدد اليأس في قلوب الأُسبان
وتحققوا معه أن ليس لهم بالاستمرار في الحرب مع هذا الزعيم الجديد
يدان ، بعد أن كانوا قد طووا صحتها مع الزعيم القديم . كل هذا أثر في
الناس حربيين وغير حربيين حتى ظهر دخان ثورتهم في وسط المدفعية ،
ومع أنهم يقولون إن دى ريفيرا قبض على ناصية الحركة في البلاد بيده
الغشوم لا يدري أحد ما لذلك من رد فعل وان الجنديّة تتهقرت لتهجم
والأمة ربهضت لتثور ، والله عليم بمصير الأمور .

للعبرة والتاريخ

قبل أن أترك أرض اسبانيا أرى من الفائدة ذكر كلمة عن تاريخها وحالة أهلها يعرف من يطلع عليها أن اسبانيا العربية غير اسبانيا الحالية سواء في ذلك مدنيتهما وقوتها المادية والمعنوية :

اسبانيا تكون مع البرتغال الجزء الممتد من جنوب أوروبا الى البحر ومساحتها وحدها ٤٩٢ر٢٣٠ كيلو مترا مربعا . واذا أضفنا اليها ممتلكاتها في جزر البليار (ومساحتها ٤٩٩٤ كيلو متر) ، وفي جزر كناريا (ومساحتها ٧٦٢٤ كيلو متر) ، وفي مراکش (ومساحتها ٣٥٠ كيلو متر) كان مجموع مساحتها مع أملاكها ٥٠٤ر٩٠٣ كيلو متر مربع أما عدد أهلها فكما جاء في احصاء سنة ١٩٠٠ « ١٨ر٦١٧ر٩٥٦ » من النفوس . وقد زاد هذا العدد نحو مليون نفس في مدة ٢٠ سنة فتكون الزيادة في هذه المدة خمسة ونصفا في المائة من السكان ، وهي زيادة قليلة جداً بالنسبة لزيادة الأمم الأخرى .

واذا وازنا بين زيادة النفس في اسبانيا وزيادتها في القطر المصرى رأينا أن تعداد هذا القطر في سنة ١٨٩٧ ، وهي المدة التي تقابل زمن تعداد اسبانيا تقريبا ، كان ٩و٧١٧و٢٢٨ من النفوس ، وان تعداده في سنة ١٩١٧ كان ١٢و٧١٨و٢٥٥ من النفوس : فتكون الزيادة في عشرين سنة هي ثلاثة ملايين نفس تقريبا ، وهي ثلاثة وثلاثون في المائة من عدد السكان . وعلة عدم زيادة الأهالي في اسبانيا هي عدم عنايتهم بأطفالهم لانهم لا يهتمون بالمسائل الصحية ويظهر أنهم ورثوا ذلك من زمن بعيد ، حين كان القسوس يحرمون عليهم الاستحمام حتى لا ينشبهوا بالمسلمين في

تظهرهم وفي وضوئهم ، ولعلمهم يشاركون بعض فلاحينا في عدم تنظيف أولادهم خشية عيون الحاسدين ؟ ؟

وترجع العلة من جهة أخرى الى كثرة هجرتهم طلبا للعيش ، لأن أسباب الحياة تضيق بهم في بلادهم إما لقحولة قلب البلاد لكثرة ما فيها من السلاسل الجبلية ، او لقلة الأنهر في الشمال والغرب ، ولأن الموجود منها تجف مياهه في أكثر أيام السنة وهذا لعدم اهتمام الحكومة بالمسائل العامة لأنها في طول أدوار حياتها في يد قوم لا يهتمون الا بأنفسهم وهم الأشراف والقسوس ورجال الحرب . ولا يزال في أيدي الأشراف والقسوس أغلب الأراضي الخصبة ، وهي تلك الاقطاعات الواسعة التي كان يوجد بها الملوك على كل قبيل منهما . وهذا عدا الأوقاف الكثيرة التي كان الأهالي يرصدونها للكنائس ، وكل ذلك غير ما تأخذه هاتان الطائفتان من المرتبات الشهرية التي لا تزال تبهظ ثروة الحكومة . وحسبك أن تعرف أن عدد القسوس في إسبانيا الآن يزيد على سبعين الفا وأن في أيديهم التعليم في جميع طبقاته من ابتدائي وثانوي وعال ولهذا أصبح لهم النفوذ الشامل في البلاد من أقصاها الى أقصاها .

وأول ما يعرفه التاريخ من أمر اسبانيا أنها كانت مسكونة بالبلسك أو الفندال قبل أن يلتجئوا الى جبال (البرينات) ثم بالأيبيريين الذين قدموا من الجنوب .

وفي أواخر القرن الخامس قبل المسيح احتل الفينيقيون هذه البلاد . ثم أتى من بعدهم اليونانيون والروديسيون وأنشأوا الثغور التي على البحر الأبيض مثل قادس ومالقة وغيرها ، مما كانت قواعد تجارية لهم يتبادلون

فيها مع أهل البلاد بضائع الشرق المعادن التي كان الأهالي يستخرجونها من أراضيها . وفي سنة ٢٣٨ ق م ، بدأ القرطاجيون باحتلال النصف الجنوبي من اسبانيا ، ثم بنوا مدينة برشلونة في شمال الساحل الشرقي ، وكانوا يسمونها مدينة برقة ، باسم القائد الفاتح BARCA الذي بناها ، وبنوا في جنوبها قلعة قرطاجنة . وفي سنة ٢١٩ ق م . حاصر انيبال مدينة ساجونت ، وجر ذلك إلى الحروب البونيقية الثانية .

وفي سنة ٢٠٤ ق م . غزا الرومان اسبانيا وبنوا فيها مدينة اشبيلية ، وما زالت تابعة لحكمهم إلى سنة ٤١٢ م . وفيها استولى اتواف ملك القوط على برشلونة . وهو أول ملك قوطي باسبانيا . وبقي القوط بهذه البلاد تارة مستقلين وأحياناً تابعين للرومان وقد ألزموا الفندال (ومنهم أتت كلمة فاندالوس أو أندلس) أن ينحسروا إلى جبال البيرينات ولا يزالون بها إلى الآن .

وقد وصل حكم القوط من العظمة مدة ملكهم أوريك إلى أن وصلت فتوحاته إلى نهر اللوار بفرنسا . ودخلت النصرانية اسبانيا في مدته . وبعد وفاته اضطربت أحوال المملكة إلى أن حكم الملك أتاناجيلد سنة ٥٥٤ م وجعل طليطلة عاصمة له ، واستولى بعده ولده ريكارد سنة ٥٨٦ ، ففتح أبواب مملكته للقسوس ، واعتنق المذهب الكاثوليكي ، وحارب الرومان وأجلاهم عن البلاد التي كانوا لا يزالون يحتلون منها الساحل الشرقي . ثم طرد اليهود من اسبانيا وعاملهم معاملة قاسية . وفي سنة ٧٠٩ انتخب رودريك (والعرب تسميه لذريق) ملكاً على البلاد ، وفي

مدته دخل العرب اسبانيا . ولعل اليهود المطرودين هم الذين أُرشدوا العرب إلى سهولة فتحها .

وقد بقي ملك العرب باسبانيا إلى أواخر القرن الخامس عشر من الميلاد، وفي غالب مدتهم كان السلطان العام في البلاد لهم، وكان حكمهم في عمومهم كله مجد وعظمة . وكان ملوك الأَسبان في أول أمرهم في منتهى الضعف ، وكانوا يدفعون الجزية لأمرأء المسلمين ، ولكنهم كانوا على الدوام يحاربونهم بالدسائس والسماعات وهي سلاح الضعيف . ولما قويت عصبيتهم على مر الأيام كانوا يحاربون العرب كثيرا كلما آنسوا منهم خلافا أو ضعفا ، وكان نصيبهم الخذلان في جل حروبهم معهم . حتى إذا بلغهم زحف الناصر محمد سلطان الموحدين يبحشه الهاائل على أسبانيا ، استغاث ملوك الأَسبان بأمم النصرانية في أوربا في كل جهة ، وأعلنوا الحرب المقدسة ، فهرعت إليهم جيوش النصرانية ، وبعد هزيمة الناصر صلبت شوكتهم وقويت عزيمتهم ، ولم يضيعوا فرصة هزيمة العرب بل أخذوا يتغلبون على أطراف البلاد، حتى إذا كانت سنة ١٤٩٢ م استولى فرديناند ملك اراغون وايزابلا ملكة قشتالة على غرناطة التي كانت الملاجأ الأخير للعرب ، ثم طردوا المسامين من أرض أسبانيا كلها ، وبذلك أصبح لهما الحكم المطلق فيها . وبموتها ورثت عرش البلاد ابنتها جان ، وتزوجت من فيليب الأول ابن مكسيمليان الأول ملك النمسا ، وهو أول ملك أسباني من أسرة هابسبورج . ولما أصيبت جان بالجنون آل الملك لولدها شارل الأول ، الذي سمي فيما بعد بالأمبراطور شارل كان .

وقد كان الأَسبانيون يكرهون شارل كان لتوجيه اهتمامه للنمسا

وحدها . فشغلهم بالحروب ضد فرنسا وأمريكا . وفي مدة فليب الثاني (من ١٥٥٦ الى ١٥٩٨) الذى كان ملكا لأسبانيا والبلاد الواطئة والأملاك التى كانت له فى إيطاليا وأمريكا ، قضى بنفسه على الحرية الدينية والسياسية ، وظهر فى هذا الطريق بكل مظاهر الاستبداد ، ولم يكن متعصبا لدينه فحسب ، بل كان متعصبا لمذهبه الكاثوليكي تعصبا أعمى : فقد حارب البروتستانت بلا جدوى . وكانت حروبه لانكترا وفرنسا وتركيا نتيجتها هزائمه المطلقة . وفى سنة ١٥٨٠ استولى على البرتغال عنوة ، حتى اذا مات كانت البلاد فى منتهى الضعف المادى لسوء ادارته وخرق سياسته التى جرت على أسبانيا فقد أملاكها ، وطرد من بقى فى بلادها من المسلمين واليهود الذين أصلهم من جنس عربى ، وكان عددهم يزيد على مئات الألوف ، كلهم من أرباب الصناعات والمشتغلين بالزراعة .

واستمر بيت هابسبورج إلى أوائل القرن الثامن عشر وانتهى بموت شارل الثانى من غير عقب ، بعد أن عهد بملك اسبانيا إلى حفيد أخته مارى تيريزه التى كانت زوج لويس الرابع عشر ملك فرنسا ، ويسمى فليب الخامس . فاعلنت النمسا حربا على إسبانيا دامت اثنتى عشرة سنة ، وكانت نتيجتها تنازله عن نابل وسردينيا للنمسا ، ثم تنازل عما كان يملكه فى البلاد الواطئة . وبعد ذلك تنازل عن صقلية للسفواى ، وعن جبل طارق وجزيرة ميورقة للانكليز .

وفى سنة ١٨٠٥ تعاقدت اسبانيا مع فرنسا واشتركت معها فى حربها مع انكترا ، ففسرت أسطولها فى واقعة الطرف الأغر . وفى هذه السنة

قامت ثورة البلاد ضد شارل الرابع بتدبير ولى عهده فرديناند . فتدخل نابليون الأول فى الأمر ودخل بجيوشه أرض اسبانيا لتهديم الفتنه ، وهناك أعلن تعيين أخيه ملكا على اسبانيا . فقام الأهالى بإيعاز انكلترا ومساعدتها وأعلنوا حرب الاستقلال التى انتهت بانسحاب نابليون وبتنازل أخيه عن عرش اسبانيا . وفى مدة شارل خسرت اسبانيا جميع أملاكها فى أمريكا ، فاضطر إلى التنازل عن الملك ، وعقبه فرديناند وتسمى بفرديناند السابع . وفى سنة ١٨٢٠ قام ضده الحزب الحر الذى تكون فى البلاد ، فاستصرخ بفرنسا فأرسلت اليه الدوق انجوليم على رأس جيش لتسكين الفتنه وتأييد عرشه ، ومات فرديناند سنة ١٨٣٣ بعد أن أوصى بالملك لابنته ايزابلا : فحرك ذلك من ضغينة أخيه الدون كارلوس فقام بالثورة ، واشتغلت الحكومة بمحاربته إلى سنة ١٨٣٩ .

وفى سنة ١٨٤٣ أعلن رشد ايزابلا ، فابتدأت الاضطرابات فى أنحاء البلاد وقامت الثورة فى جميع أطرافها إلى سنة ١٨٤٨ . ففرت ايزابلا إلى فرنسا ، وانتخب الشعب سيرانو زعيم الحركة الوطنية رئيساً للحكومة رئاسة مؤقتة وفى أول يونيه سنة ١٨٦٩ أعلن سيرانو الدستور فى البلاد لأول مرة وأصدر قراره بالابتداء فى الانتخابات النيابية

وفى سنة ١٨٧١ تنازلت ايزابلا عن الملك الى ولدها القونس ، فلم يقبله الشعب ، وعرض حزب الأحرار تاج البلاد على الدوق اميدا الابن الثانى لملك ايطاليا فكتور عموناييل ، فقبله ولكنه استقال للاضطرابات التى قامت ضده . وهناك أعلن الأحرار الحكم الجمهورى . ولم تطل مدته الا من ١١ فبراير سنة ١٨٧٣ الى ٢١ ديسمبر سنة ١٨٧٤ ،

لأن الجمهوريين لم يستطيعوا إقامة حكومة تسير حركة البلاد التي كانت في فوضى عامة .

وفي ٢٩ ديسمبر أعلن الجنرال كامبوس جلوس الفونس الثاني عشر (ابن ايزابلا) على عرش اسبانيا ، فقامت الثورة السكارلوسية ثانياً الى سنة ١٨٢٦ . وبعد انطفائها قام الفونس ببعض الاصلاح ، ومات في سنة ١٨٨٥ ، خلفته الملكة ماري كرستين في الحكم ، وكانت حبلى ، فلما ولدت بقيت وصية على ولدها الفونس الثالث عشر ، وفي مدتها عطل الدستور ، وقامت الحرب بين اسبانيا والولايات المتحدة سنة ١٨٩٨ ، وبها فقدت ما بقي من مستعمراتها في أمريكا (كوبا وبورتوريكو والفلبين) ثم باعت جزر كارولين الى المانيا .

وفي سنة ١٩٠٢ أعلن رشد الفونس الثالث عشر (الملك الحالي) وتسلم زمام الملك في وسط اضطرابات مالية وحرية ، لدخول البلاد في حرب مع الريف الذي ينازع اسبانيا الى الآن فيما بقي لها في مراكش من ذلك الجزء الذي على المحيط : ذلك الجزء الذي كلفها من الأموال والدماء ما بهظ ثروتها وأفنى شبيبته وحرك نيران الثورة في كل ناحية من أنحائها . ولولا أن البلاد ترزح تحت عبء الأحكام العرفية لكان لحيها قد قضى على الرطوبة واليابسة !! ولولا أن سيف دورفييرا الذي قبض على أزمة البلاد مصلت على رقاب الناس من صغير وكبير بما فيهم الملك ، وأن سواد ضباط الحرب الذين أصبحت موارد البلاد في أيديهم يشدون أزر هذا الزعيم المستبد ، لكانت اسبانيا تركت دارها البيضاء لكبير الريف منذ زمن بعيد ، ورضيت من مناوشاتها وحروبها مع عرب

مراكش ، والتي كان نصيبها منها تلك الهزائم المتوالية في السنوات الأخيرة ، بأوبة من بقي هناك من جيوشها (بسلامتهم) ، ولسكنها تخشى من عودتهم الى اسبانيا اشغالهم نيران الثورة بسبب الاستغناء عن أكثرهم ، لعجزها عن النفقة عليهم اذا وضعت الحرب أوزارها ، ووضعت للضرائب حدوداً معقولة عادلة ، وعلى الأخص إذا رفعت الأحكام العرفية .

بما تقدم تعلم أن الاسبان قد نمت في عروقهم جرائم الثورة لتعصبهم لرأيهم الذي هو أثر تعصبهم الديني ، الذي كان القسوس يبثونه فيهم منذ كان العرب واليهود بين أظهرهم ، هذا التعصب الديني الذي لا ينطبق على عقل ولا حكمة . لذلك كانت حربهم للعرب حرباً دينية لا وطنية . وأعقب ذلك حربهم يهود وطردهم من بلادهم ، ثم حربهم للبروتستانت في البلاد الواطئة وغيرها . وقد ورث الأبناء هذه العاطفة السقيمة عن الآباء ، وأخذها الأحفاد عن الأجداد ، ولا يزال القسوس يبثونها في روح الناشئة لوجودها بين أيديهم في عامة المدارس . وبذلك أصبحت العاطفة الوطنية ضعيفة فيهم جداً ، مما كانت سبباً في هزائهم في جميع حروبهم ، وفقدتم جميع أملاكهم التي نالوها في أمريكا ، وقت أن كان سكانها لا فرق بينهم وبين الحيوانات التي كانت في دائرة بلادهم . ويظهر أن استيلاءهم عليها كان بعامل المصلحة الشخصية لا الوطنية : لذلك لما قامت مستعمراتهم في وجههم طلباً لحريتها ، لما كانوا يلاقونه من كثرة مظالمهم لعدم معرفتهم بأساليب الاستعمار ، انهمزوا أمامهم لأنهم كانوا يحاربونهم أشخاصاً لا جماعات

وليس أدل على تعصب الاسبان مما تركوه في بلاد الارجتين
بأمريكا الجنوبية من بذور هذا التعصب الشنيع في المدة التي ملكوها
فيها من سنة ١٥٢٣ إلى سنة ١٨١٠ م التي اعلنت فيها هذه البلاد استقلالها
فقد جاء في رحلة سمو الأمير الجليل محمد علي باشا لهذه البلاد في
مايو سنة ١٩٢٦ ما نصه :

« ومن الأمور المضحكة التي يجوز اثباتها في سجل السياحة على
سبيل الفكاهة أن قد وصلني كتاب من الارجتين يقول فيه مرسله انه
قرأ في الجرائد مدحى والثناء على وحيث أن له عواطف نحوى فهو يشير
على مراعاة لصالحى أن أكون كاثوليكيًا لأنه من الأسف الشديد
أن يكون رجل مثلى بعيداً عن طريق الهدى ومحجة الصواب وانى ان
لم أقبل ذلك دخلت الجحيم وعذبت العذاب الأليم وعلى ذلك ينصح لى
بالأسراع إلى التوبة واعتناق الكتلثة الحقة ذلك الدين القويم والصراط
المستقيم .

وعقب الأمير ذلك بقوله « هذا والاسبانيون كالإيطاليين
والبورغاليين متعصبون لدينهم فلو كان مثل هذا الأمر قد حصل
لأمير غربي وهو سائر في بلاد المشرق لعد ذلك تعصباً من المسلمين
وكان ذنباً عظيماً لا يحصى ولا يغتفر ، .

ومن هذا وذاك ترى أن الشعب الاسباني أصبح من الفقر وضعف
الارادة بمكان لجملة أسباب :

اولا - لتوزيع ثروة البلاد على الأشراف والقسوس وملوكهم
لأغلب أراضيها الخصبة ، واستيلائهم على وظائف الحكومة المهمة .

ومرتباب القسوس السنوية وحدهم تبلغ مليوني جنيه ، وهو عشر مالية الحكومة تقريباً .

ثانياً — الجيش الذى يلتهم جل ايرادات الدولة بما تضطر معه إلى الاستدانة كثيراً . وهى الآن تزح تحت عبء دين ثقیل ، لولا شدة الأحكام العرفية لظهرت آثاره السيئة مهددة لكيان البلاد .

ودين اسبانيا كما جاء فى لأئحة رسمية (انظر دائرة المعارف للبستانى) بلغ فى سنة ١٨٧٤ (٤٠٨١١٨١٤٠٨) ليرة انكليزية ، وفائده السنوية (١٠٢٣١٢٢٨) ليرة انكليزية ، ولا بد أن يكون دينها الحالى أكثر من هذا كثيراً ، وهو ما لم أوفق لمعرفته .

ثالثاً — قلة المواصلات فى البلاد وصعوبتها ومع أن مساحة اسبانيا أكثر من ٤٩٢ الف كيلو متر مربع ، فالطرق الحديدية لا تزيد فيها عن ١٥ الف كيلو متر على ما فيها من عدم توفر أسباب الراحة ، مع أنها فى مصر التى لا يبلغ المعمور فيها غير ٣٢ الف كيلو متر مربع^(١) تزيد على أربعة عشر الف كيلو متر .

رابعاً — حرب الريف التى كلفتهم نفقات باهظة جداً ، خامساً — كسل الأهالى وعدم ميلهم إلى العمل وذلك لاستسلام إلى الأفكار الساذجة التى أدخلها القسوس فى عقائدهم حتى أصبحوا أقرب الناس إلى الآخرة منهم إلى الأولى ، وإن شئت فالى الموت منهم إلى الحياة .

(١) مساحة مصر مليون كيلو مربع منها معوز ٣٢ الف كيلو متر والباقي صحارى غير معوزة .

سادساً - شيوع الأمية فيهم لقلة ما ينفق على التعليم بحيث لا يصل عدد القارئ منهم إلى ٤٠ في المائة على أكثر تقدير . وأشنع ما فيهم محاربتهم لتعليم البنات لفكرة سخيفة (لا يزال موجوداً بعصر شيء منها وخصوصاً في جهات الصعيد) ، اعتقادهم بأن كثرة العلم تؤدي بالشخص إلى الزندقة والإلحاد !!

هذا هو شأن اسبانيا اليوم في عمومها . وان وجد في عواصمها شيء من الحياة انطبق عليه المثل العربي « كل الصيد في جوف الفرا » وبالجملة أن الاسبانيين اذا كانوا يعيشون بحسومهم في القرن العشرين فعقليتهم لا تزال تتصل بالقرون الوسطى .

وما دامت البلاد على ما فيها من فقر مدقع^(١) وتعصب سخي و عدم نشاط للعمل ودم يغلي على الدوام ببخار الثورة ، وحكومة مع فقرها لا تهتم الا بقبيل من الناس دون الآخر تاركة أساليب الإصلاح فيها الى الشركات الأجنبية من الإنجليزية والألمانية وفرنسية وأمريكية ، فمسيرها من غير شك لا يبشر بقرب مستقبل سعيد .

(١) بلغ من فقر الاسبانيين انهم يبيعون غلات أرضهم في الغالب وهي على أرضها قبل نزعها . ولا يزال بعصر شيء من ذلك الا انه في أرض الترفين من أبناء الاغنياء أكثر منه في أرض الفقراء

بعض الأعلام الإسبانية بالأفريقية وما يقابلها بالعربية

قَرْشُونَه	CARCASSONE	المرج	LA VEGA
قَرْطَاجَنَه	CARTHAGENE	الْأَرْك	ALARCOS
قَسْطُجُون	CASTEJON	الْبَيَازِين	ALBAICINS
قَسْتَالَه	CASTELLE	القَصْر	ALCAZARE
سَنْتَرَه	CENTRA	الْجَزِيرَة الْخَضْرَاء	ALGESIRA
سَبْتَه	CEUTA	الْحَرَاء	ALHAMBRA
قُلْمُورِيَه	COIMBRA	الْقَنْت	ALICANTE
قَرْطَبَه	CORDOUE	الْخِيَادِر	ALJAMIADG
بُورَه	EVORA	الْمَرْبَه	ALMERIA
فَنْتَرَابِيَا	FONTARABIA	الْمَزَار	ALMAZAR
جَلِيْقِيَه	GALICE	عَيْن دَامِر	ÁINDAMAR
جَبَل طَارِق	GIBALTAR	الْأَذِفُونْس	ALPHONSE
غَرْنَاطَه	GRENADE	الْبَشَرَات	ALPIXARAT
الْقُوط	GOTHS (les)	مَغَارَاتِ اسْتُورِيْس	ASTURIES
وَادِي الْحَجَارَة	GUADALAJAR	الْتَرَسَاتَة (دَارِ الْمَنَعَة)	ATARZANA
وَادِي الْآبَار	GUADALAVIAR	ابْن رَشْد	AVERROES
الْوَادِي الْكَبِير	GUADALQUIVIR	أَبِلَه	AVILA
وَادِي يَانَه (آنَه)	GUADIANA	الشَّرَف	AXAROF
وَادِي آش	GUADIX	بَطْلَمْيُوس	BADAJOS
مَحْكَمَة التَّنْفِيْش	INQUISITION	بَرْتَلْمُونَه	BARCELONE
جِيَّان	JAEN	بِيَّاس	BASA
جَاتِبَه	JATIVA	بَاجَه	BEJA
شَرِيْش	JERCY	الْبَشْكَنْس	BASQUES (les)
يُولِيَّان	JULIEN	أَبُو عَبْدِ اللَّهِ	BOABDIL

برغش (برغش)	BURGOS	صاموره	ZAMORA
قَدَس	CADIX	لانجدوك	LANGDOC
سانت (اشتاني)	SAINT-SEBASTIEN	ليون	LEON
سالمقه	SALAMANQUE	لارده	LERIDA
سانت ياقب	SANTIAGO	لشبونه (اشبونه)	LISLONNE
سنترين	SANTAREN	لوتنه	LOJA
سرقسطه	SARAGOSSE	لورقه (لورقه)	LORCA
الشرقيون	SARRASINES (les)	لوك	LUQUE
شغويه	SEGOVIC	مجر بط	MADRIDE
ساجوره. شافوره	SEGURA	مالقه	MALAGA
اشبيليه	SEVILLE	المغاربه	MAURES (les)
شدونه	SIDONIA	مدينه صالح	MEDINACELI
طريف	TARIFA	مارده	MERIDA
طارق	TARIK	ميرنده	MIRANDA
طرطوش	TARTOSE	مرسيه	MURCIA
طركونه	TARRAGONE	المسجد	MASQUITA
طليطلة	TOLEDE	الملك بلای	PELAGE
طالوشه. طولوشه	TOLOSA	مدينه البورتغال	PORTO
أبده	UBEDA	البورتغال	PORTUGALE
ولنسيه (بلنسيه)	VALENCE	بروقانسه	PROVENCE
شمينيس	XEMINES	لدریق	RODERIC
		رندده	RONDA

فهرس

صفحة	صفحة
٤١	٥ خطبة الكتاب
٤٤	٦ مدنية أسبانيا قبل العرب
٤٤	٦ نقد كلام العرب فيما له علاقة بالتاريخ
٤٨	التقديم
٤٩	٧ كلامهم في السحر والطلسمات
٥٠	٩ مدنية العرب في أسبانيا
٥٧	١٢ السفر إلى أسبانيا
٦٢	١٢ عدم معرفة لغة البلاد
٦٣	١٣ لغة الاسبيرانتو وضرورة وجود لغة
٦٧	عامة تربط الأمم بعضها ببعض
٧٦	١٣ سان سياستيان
٧٩	١٦ صراع الشيران
٨١	١٦ تاريخ الصراع
٨٢	١٨ كلف الاسبان بصراع الشيران
٨٥	٢٤ من سان سياستيان الى مدريد
٨٥	٢٥ مدريد
٨٦	٢٨ الاسكوريال
٨٨	٣١ قصر الملك
٨٨	٣٢ قصر الأمراء
٨٨	٣٤ الأمم والأعمال الجسيمة
٨٩	٣٤ زواج العرب بالاسبانيات وأثره فيهم
٨٩	٣٧ بعض من نبغ من المسلمين في أسبانيا
٨٩	ابن شهيد
الحكم بن الناصر	

صفحة	صفحة
١١٦ المعتمد ابن عباد	٨٩ عناية الحكم بنشر المعارف
١٢١ من اشبيلية الى غرناطة	٩٠ عنايته بجمع الكتب
١٢٥ غرناطة	٩٠ ترجمة الكتب العربية الى اللطينية
١٢٧ قصر (جنراليف)	تأثير ذلك فى مدينة أوربا
١٢٨ قصر الحمراء	٩١ هشام بن الحكم وأمه صبح
١٣٢ قاعة الحكم	٩٢ المنصور بن أبي عامر
١٣٢ حوش السباع	٩٥ من قرطبة الى اشبيلية
١٣٥ قاعة بنى سراج	٩٥ اشبيلية
١٣٥ أصل بنى سراج	٩٧ الكنيسة الكتدرائية باشبيلية
١٣٦ قاعة الأختين	٩٨ قبر فرديناند
١٣٦ حوش الريحان	٩٨ قبر كرسstof كولولب
١٣٩ حمام الملك	١٠١ ما يحدثه تحويل الكنائس الى مساجد
١٣٩ مسجد الملك	وبالعكس فى النفوس من الاثر السىء
١٤٠ قاعة الاستقبال	١٠٢ القصر باشبيلية (الكازار)
١٤٣ القصر وما يحدثه من الأثر	١٠٦ قصر بيلاتوس
فى النفس	١٠٧ شوارع اشبيلية
١٤٧ بنو الأحمر وتاريخهم	١٠٨ أعياد اشبيلية
١٥٠ تسليم أبى عبد الله (برياديل) آخر	١٠٩ معرض اشبيلية لسنة ١٩٨٢
ملوك بنى الأحمر غرناطة الى فرديناند	١١٠ انقسام الدولة الى ملوك الطوائف
سبب اضطراب ملك بنى الأحمر	١١١ منتديات العرب وبداهتم
١٥٣ مبلغ مساعدة بايزيد الثانى ملك الترك	١١٣ اشبيلية مدة بنى عباد
وقايتباى ملك مصر لعرب أسبانيا	١١٥ محمد بن عباد
١٥٤ بنو الاحمر وبنو مرين	١١٥ المعتضد بن عباد

صفحة	صفحة
١٨٦ خضوع الخلفاء للحق	١٥٨ توقع عرب الاندلس لنكبتهم قبل
١٨٧ حضارة العرب بالاندلس	حصولها
١٨٧ الصناعة مدة العرب بالاندلس	١٦٠ بارباروس وحروبه البحرية مع الاسبان
١٨٨ الجامعات والمعاهد العلمية بالاندلس	١٦٠ دخول العرب أسبانيا
١٨٨ بلاغة العرب بالاندلس	١٦٦ خليج الزقاق
١٩٠ دور الصناعة وأساطيلهم البحرية	١٦٦ جبل طارق
١٩٠ الجوائز للناغبين واختراع المطبعة	١٧٠ نكبة موسى بن نصير وطارق
١٩٠ شعر العرب سبب فى رقى الشعر	١٧١ مرض سليمان بنكبة الناغبين
عند القرنجة	١٧٣ الاندلس مدة الأمويين
١٩١ اجتماعاتهم الخصوصية للسمع	١٧٥ شعراء الاندلسيين وكتائبهم وعلماءهم
١٩٢ الموشحات	١٧٥ زرباب والموسيقا
١٩٣ الخيال	١٧٦ رقص الاسبان
١٩٣ شيوع المواليا فى العامة	١٧٦ تحريق الكتب العربية
١٩٣ كثرة استعمالهم للشراب	١٧٦ المدارس فى عهد العرب باسبانيا
١٩٥ الرقص على الموسيقى	١٧٨ خطبة لأحد المستشرقين فى مدينة
١٩٥ تشكيل الفتيات بشكل الفتيان	عرب اسبانيا
١٩٦ سبب تفرق كلمة العرب باسبانيا	١٧٩ احتجاج الخلفاء بالاندلس
٢٠٢ الاذيفونش وفرديناند وضبط اسميهما	١٨١ الاعلام العربية والزيادات الافرنجية
٢٠٣ أسباب ضعف العرب فى أسبانيا	١٨٢ الزهراء والزاهرة
٢٠٦ السيد قنطور	١٨٤ قصور العرب بالاندلس
٢٠٦ الرقه وضعف الثقافة الحربية من العرب	١٨٤ التماثيل عند عرب الاندلس
٢٠٨ غلطة ابن تاشفين فى نكبتهم للوك	١٨٥ العمارة على الوادى الكبير
الطوائف	١٨٦ عناية الخلفاء بتعرف أحوال الناس

صفحة	صفحة
٢٣٥ علة عدم زيادة الاهالى بأسبانيا	٢١٠ المرابطون والملثمون
٢٣٦ سكان أسبانيا الأول	٢١٢ بعد تسليم غرناطة
٢٣٧ غزو الرومان والقوط لأسبانيا	٢١٣ تعصب الاسبان ضد المسلمين
٢٣٨ فتح العرب لاسبانيا	٢١٣ سماحة الاسلام والمسلمين
٢٣٨ طرد الاسبان للعرب من بلادهم	٢١٤ مظالم الاسبان وفضائعهم مع المسلمين
٢٣٨ تاريخ الاسبان عند العرب	٢١٤ صفة الاسبان فى ضعفهم وفى قوتهم
٢٤١ حرب الاسبانيين مع الريف	٢١٦ المدجنون وفضاعة معاملة الاسبان لهم
٢٤٢ التعصب والثورة من علل الاسبان	٢١٧ طرد الاسبان للعرب من اسبانيا
٢٤٣ سبب تأخر الاسبان وفقرهم	٢١٨ استبقاء الفنانين من العرب باسبانيا
٢٤٦ بعض الأعلام الاسبانية بالأفريقية	وسوء معاملتهم
وما يقابلها بالعربية	٢٢٠ المورسك والخمبادو
	٢٢١ اللغة الأسبانية والكلمات العربية
	٢٢١ الأدلاء عندهم وعندنا
	٢٢٢ عدم اكتراث العرب لقلة الاسبان
	٢٢٦ من غرناطة الى برشلونة
	٢٢٦ آثار العرب فى طليطلة
	٢٢٧ من مدريد الى برشلونة
	٢٢٨ آثار العرب بسر قسطة
	٢٢٨ برشلونة
	٢٣١ النظام الذى عمله العرب للرى فى
	بلنسية
	٢٣٢ الأحكام العرفية والثورة فى أسبانيا
	٢٣٥ أسبانيا وجغرافيتها

فهرس

بما اشتمل عليه الكتاب من الصور

صفحة

- ١٩ بناء لمصارعة الشيران فى سان سباستيان
٥١ أحد أبواب مسجد قرطبة
٥٥ منارة مسجد قرطبة وقد وضعوا فيه النواقيس بعد تحويله الى كنيسة
٥٩ قبلة المسجد الجامع بقرطبة وهى آية الآيات فى الصناعة العربية
٦٥ منظر من الحنايا والعقود الفنية البديعة لمسجد قرطبة
٦٩ منظر داخلى لمسجد قرطبة الجامع
٧٣ منظر داخلى آخر للمسجد الجامع بقرطبة
٧٧ الواجهة الخارجية لأحد أبواب مسجد قرطبة
٨٣ المقصورة بجامع قرطبة
٩٩ (لاجيرالد) وهى منارة المسجد الجامع باشبيلية الذى جعلوه كنيسة
١٠٣ قاعة السفراء
١١٩ مناظر مدينة غرناطة وفى أعلاها قصور الحمراء
١٢٣ وجهة المسجد الخارجى بالحمراء
١٢٩ منظر قصر جنراليف أو جنة الريف
١٣٣ منظر قاعة الحكم من جهة حوش السباع
١٣٧ أحد مناظر حوش السباع بالحمراء من جهة قاعة الحكم
١٤١ قاعة السفراء
١٤٥ المنظر الداخلى لمسجد قصر الحمراء
١٥١ منظر آخر لحوش السباع بقصر الحمراء
١٥٥ منظر عام لحوش السباع بقصر الحمراء
١٥٩ منظر قاعة الحكم بقصر الحمراء
١٦٣ القصبية أو قلعة الحمراء